

مختارات
التعاون
العالمية

حاسوس فوق الجبال



ماهر عبد الحميد

المؤلف والكتاب

يعرف القراء ماهر
عبد الحميد ، بوصفه
متخصصا في الكتابة عن
أنشطة المخابرات ، وهو في
هذا الكتاب ، لا يكتفى
بوصف عملية سرية ، بل
يعرض أدق التفاصيل ،
الدراسات التي أجريت ،
والأبحاث التي تمت ، ثم
القرارات التي اتخذت ،
على أعلى مستوى ،
بالإضافة إلى الاتصالات التي
كانت تجرى بين الحكومات
العربية ، التي دارت على
أرضها أحداث تشد الأنفاس ،
تتسم بالاثارة ، وهو يسلط
شعاعا خاطفا من الضوء ،
على أسرار ذلك العالم
الغامض والغريب ، عالم
المخابرات ..

الناشر

مركز الأبحاث

مؤسسه دارالنگارون للطبع والنشر

مركز الدراسات الصحفية

مخبرات التعاون العالي

رئيس مجلس الإدارة
وأمين التحرير العام

محمد دوح رضا

رئيس التحرير التنفيذي

عبد القادر السعدني

المدبر المالي

جميل شفيق

مكتبة التحرير

سيد قنديل

المراسلات
دارالنگارون - ٦ شارع عبدالقادر صفر
شارون سيتي - القاهرة

مختارات التعاون العالمية :

جاسوس فوق البحر الأحمر

ماهر عبد الحميد

المقدمة

في وقت ما . منذ خمس سنوات . أصدرت مصلحة وثائق السفر والهجرة والجنسية التابعة لوزارة الداخلية المصرية . جواز سفر باسم المواطن موسى زكى سلامه . ومن الغريب أنه لم يستخدم هذا الجواز أبدا . لسبب بسيط وهو أن المواطن موسى زكى سلامه نفسه . ليس له وجود على الإطلاق !!

كانت هذه واحدة من وقائع عملية بالغة الاثارة . من عمليات المخابرات . وقد سمعت بها لأول مرة في وقت مبكر للغاية . بينما كنت في مكتب رئيس أكبر معهد للمخابرات في الشرق الاوسط . وكان أحد الضباط الفنيين . يقدم تقريرا دقيقا بعد أن أنجز مهمته بنجاح . ولم يكن في تصوري . أنني سأنشر هذه القصة بعد خمس سنوات كاملة !!

كان ذلك قبل حرب اكتوبر . وبالتحديد في صيف سنة ١٩٧٢ . ولم يكن أي مخلوق في هذا العالم يعرف .. أن أهم قرارات الحرب . قد

اتخذت في هذا الصيف . وعندما تبينت التفاصيل فيما بعد . أدركت أنني أقصر تقصيرا شديدا . ان لم أنشر القصة كلها . على الرأي العام .

ورغم أنني اطلعت على ملفات هذه العملية . وهي ملفات محاطة حتى الآن . بأقصى درجات السرية . وقرأت بعناية ألف ورقة في حجم الفوليسكاب . تتضمن الوثائق والصور . والخرائط والكروكيات . الا أنني قطعت أكثر من خمسة آلاف كيلو متر . وتحدثت الى اثنين من رؤساء الدول وحشد من ضباط المخابرات . وعدده كبير من الفنانين والمعاونين وجنود الحراسة وأفراد الأمن لمجرد أن أستوثق من المعلومات المذهلة . التي استخلصتها بنفسى .

لقد استخدمت المخابرات الاسرائيلية . عندما تأزمت الامور بشكل حدى . لواء من الطائرات المقاتلة . ومجموعة ائزال بحرية . وعشرة ملايين جنيه استرليني نقدا . وصققة أسلحة صغيرة وفي المقابل . استخدم المصريون جواز سفر مزيف . وغواصة بعيدة المدى . وطائرة مجهولة الجنسية . ومع ذلك فأنى أعترف . أنتى لم أقت مبهورا . الا أمام ما دار في هذه العملية من حوار !!

لذلك أرجو من القارئ . أن يتأمل بامعان في الحوار وسط سياق الاحداث المفردة في الرهبة . وعلى الأخص . ذلك الحوار الذى جرى بين المخابرات المصرية والمخابرات الاسرائيلية عندما وجد اثنان من

ضباط المنظمات . أنهما يجلسان معا . وجها لوجه . ولدة ستة وعشرين يوما بلا انقطاع !!

كذلك أرجو من القارئ المتخصص . والدارسين لعلوم المخابرات . بصرف النظر عن جنسياتهم أن يلاحظوا حجم النجاح الذى يستطيع ضابط المخابرات تحقيقه . اذا تصرف بسرعة وحزم في الميدان . متجاوزا ما لديه من أوامر . وأن يكتشفوا الاهمية القصوى لفيض المعلومات الذى يجب أن يتوفر لمن يعمل في الحقل السرى . والقدر الهائل من الدقة في إدارة وتوجيه العمليات والامكانيات الضخمة التى توضع تحت تصرف الاجهزة . في اللحظات الحاسمة . كما أرجو أن يعرضوا للنقاش . ذلك المبدأ الذى تربع على عرش السيادة في العمل السرى . وأعنى به مبدأ « المعرفة على قدر الحاجة » . لأن تطبيق هذا المبدأ بدقة فائقة . كاد أن ينهى هذه العملية في مرحلتها الأخيرة . بكارثة محققة !!

وأخيرا . أود أن ألفت الانتباه . الى أنني لم أكتب أى شذرة من المعلومات . باستثناء أسماء الضباط المصريين . الذين مازالوا في الخدمة حتى هذه اللحظة . ليس من أجل متطلبات الأمن وجدها . ولكن لأنى على ثقة تامة . من أن جميع الاسماء التى يستخدمونها في العالم الخارجى . ليست سوى أسماء مزورة .

ماهر عبد الحميد

الشرق الاوسط مايو سنة ١٩٧٧ -

الفصل الاول

« مهمة عند الفجر »

كل شيء كان هادئا في البداية . مساء الخميس الثامن عشر من يوليو سنة ١٩٧٢ . ولأن اليوم التالي . هو يوم العطلة في مصر . كانت الشوارع الرئيسية في ضاحية مصر الجديدة تموج بحركة السيارات المتجهة الى المدينة . وجماعات المارة التى تقصد الحدائق . ودور السينما القريبة سيرا على الأقدام . أما الطرقات الجانبية الخافتة الاضاءة . فهى ملاذ الاحياء من صغار السن هناك يسرون متشابكى الايدى تحت الشرفات ووراء الاشجار العتيقة . دون أن يعكس صفوفهم أحد .

كانت الساعة تقترب من المايعة والنصف . وكانت الدقائق تحمل معها مزيدا من نسمات الصيف وفي حديقة الميريلاند الشهيرة . كان الرواد متناثرين على المقاعد المصنوعة من القش . حول بحيرة صناعية تسبح فيها قوارب على شكل الازر . وثمة موسيقى صاخبة تنبعث من بعيد . وعلى مائدة صغيرة فى أقصى أركان الحديقة . كان شاب هادىء القسمة

رياضى القوام . يجلس مع سيدة رقيقة جميلة التقاطيع . وعلى العشب .
كان طفل يلهو بحيوية ويبتسم بلا سبب . كانت أسرة صغيرة تستمتع
بوقتها بعيدا عن الناس .

وشأن كل الأطفال كان الطفل يحاول أن يشهد عن أبيه في اتجاه
البحيرة ولكن أمه كانت تناديه بلهجة أمرة ثم ترفع عينها الى رجلها
الذى كان مسترخيا بلا ميالة . ولم يكن أحد يدري أن جهاز
التليفون . يدق في مسكنهم القريب منذ خمسين دقيقة . وأن كل أقارب
الأسرة وأصدقائها قد تلقوا محادثات غامضة . وأن عربة زرقاء تابعة
للمخابرات . تندفع بسرعة رهيبية . وهى تثير الفزع في نفوس المارة . وفي
النهاية . توقفت هذه العربة بالقرب من سور الحديقة . وأحدثت
عجلاتها صوتا مزعجا . لفت انتباه كل من كان يجلس بالقرب من
السور .

كان هذا الشاب واحدا من ضباط المخابرات . طويل الجذع عريض
الكفين ذا قبضة قوية وعينين ماكرتين . ضعيف الحركة أشبه بالفهد .
وقد انتبه الى صوت العربة ورمقها بطرف عينه . ولأنها توقفت بجوار
عربته مباشرة . غمغم . يضع كلمات تنم عن السخط وغادر المائدة .
وحاول الطفل أن يلحق به ولكن الأم أسرعته فالتقطته وأرغمته على
البقاء .

وفي غضون دقيقتين . كان « الفهد » يتظاهر بفحص جانب سيارته .
ليؤكد من أن هذا المحنون لم يصيبها بأذى . وفي نفس الوقت . تلقى
رسالة سريعة نقلها اليه سائق العربة الزرقاء وعندما عاد الى مائدته . أدركت
رسالة سريعة نقلها اليه العربة الزرقاء . وعندما عاد الى مائدته . أدركت
الزوجة أن أحداثا جسيمة توشك على الظهور . وكانت تعرف مساوىء

الزواج من ضابط مخابرات ، ولكنها كانت راضية كل الرضا عن رجلها . رغم المتاعب التي تسببها مهنته .

دأب القهد شعر طفله دون أن يجلس ثم مضى بخطوات واسعة الى طرف البحيرة . كان يبدو سعيدا رغم عشرات الأسئلة التي تتدافع في عقله . وبعد أن دار حول البحيرة أنطلق صوب مبنى إدارة الحديقة . وهناك طلب من موظف الحسابات الذي يجلس الى ماكينة تسجيل المبيعات أن يسمح له باستخدام التليفون .

وفي تمام الساعة والنصف وأربعة دقائق . وعلى مسيرة ثلاث دقائق بالسيارة من حديقة الميرلاند . فوجيء حارس الباب في مبنى رئاسة المخابرات . بصوت متقطع لنفير سيارة حديقة الطراز . وعندما ألقى نظرة . أسرع يفتح الباب وهو يرفع يده بالتحية . فقد كانت السيارة مخصصة لمدير المخابرات نفسه .

ان رجالا قلائل هم الذين أثبتوا جدارة في منصب « رئيس الجواسيس » . دون أن يمارسوا الجاسوسية ولو لساعة واحدة . وكان مدير المخابرات المصرية في ذلك الوقت . أحمد اسماعيل على . الذي ذاعت شهرته في العالم كله بعد ذلك بسنة ونصف . لحظة اندلاع حرب أكتوبر والذي حصل على رتبة المشير . كان واحدا من رؤساء الجواسيس النادرين في التاريخ .

كان من ذلك الطراز من المفكرين . الذين خلقوا ليكونوا جنودا . حازما لا يقيم وزنا للعواطف . وكانت رأسه الحليقة . وعيناه الضيقتان . وقامته المتكئة . مع تقاطيعه الجامد تثير حوله هالة من المهابة والاحلال . ولكنه كان انسانا رقيق القلب . دمث الخلق . يشع من عنوبة روحه في نفس كل من يقترب منه . وكان ضابط المخابرات

يلاحظون . تقتيره الشديد في النفقات ، وحرصه البالغ فيه على المال العام . وكثيراً ما كان يستفسر . أثناء مناقشته عملية تتكلف مائة ألف من الجنيهات عن جدوى اجراء يتكلف خمسة جنيهات !!

ومنذ الساعة السادسة وعشرة دقائق . كانت ترقد على مكتب المشير أحمد اسماعيل . مذكرة مطبوعة بالجبر الاحمر . وكان مدير مكتبه قد نقل اليه عن طريق التليفون : مضمون المذكرة بعبارات مقتضبة للغاية . أشبه بالشفرة . وعلى الفور اتصل المشير أحمد اسماعيل . برئيس القسم الخاص بمقاومة الجاسوسية . ثم ارتدى بذلة رمادية . دون رباط عنق . واتجه الى مكتبه حيث قرأ المذكرة بنفسه . كانت المذكرة تبدو عادية رغم اللون الاحمر . ودرجات السرية الموضحة عليها . فقد اكتشف القسم المسئول عن المعلومات في المخبرات العامة من بين مائة وستين ألف خزانة معلومة تدخل اليه كل أربع وعشرين ساعة . معلومة جاءت من مصدر جديد غير المصادر المعتادة . وكانت البرقيات الاصلية . توضح أن أحد جنود حراسة الشاطئ في ميناء الحديدة اليمنى . لاحظ رجلاً مغربياً يلتقط صوراً للميناء بكاميرا من طراز غريب . وعندما فحصت أجهزة الأمن في اليمن . الفيلم الذي استخدمه في التصوير . لم يعثروا على شيء ذي بال . وإنما مجموعة صور لا معنى لها للبحر . ولكن ما أثار رغبة اليمنيين ودفعهم الى أن يستشيروا القاهرة . أن الرجل دفع ألفين من الدولارات كرشوة . لجندي الحراسة الذي قبض عليه . وكان هذا التصرف الاحمق . سبباً كافياً للتريث قبل اتخاذ قرار نهائي باطلاق سراحه !!

استغرق المشير أحمد اسماعيل في قراءة المذكرة . ثم اتصل عن طريق

التليفون الخاص بمكتبه بالقسم الخاص بمقاومة الجاسوسية . وكان الاتصال في الساعة وأربعين دقيقة بالضبط . وبيدوا أنه كان يرغب في

اطلاعه معاونيه على وجوده في المكتب ، لأن الحديث كان مختصرا الى أقصى حد .

وفي نفس الوقت . كان حديث تليفوني آخر مثيرا للدهشة . فقد لاحظ موظف الحسابات في حديقة الميرلاند . وهو شاب أسمر ذو ملامح فرعونيه وشعر مجعد . يدعى توفيق يوسف أن الشاب الهادى الذى تحدث فى التليفون بالقرب من أذنه . لم يردد سوى كلمة نعم مرتين . ثم عبارة « بعد دقائق » وانتهى كل شيء .

كان توفيق يوسف قد نقل مؤخرا من حديقة « الجود شوت » التى تقع على شاطئ النيل عند مدخل ضاحية المعادى . وكان يشعر بالضيق لأنه يقيم فى منطقة القلعة . حيث كان فى مقدوره أن يصل الى مقر عمله باستخدام مواصلة واحدة . وقد زاد سخطه وهو يستمع الى المحادثة التليفونية الغامضة . ولعله اعتقد أن معظم المحادثات فى الميرلاند تجري على هذا النمط . وسبح بخياله الى مقعده القديم أمام الماكينة فى الجود شوت . حيث نسمات النيل المنعشة ، وأحاديث الحب واللهفة التى تنشأ الفتيات . للذكور الذين يتأخرون عن موعد اللقاء .

وعندما حلت الساعة الثامنة الاسع دقائق . أجريت محادثة تليفونية أخرى ولكنها مختلفة فقد اتصل السفير المصرى فى شعاء فؤاد عبد المبدى . بوزارة الخارجية فى القاهرة . وكان السفير المصرى يستفسر عما تم فى البرقية التى أرسلت بالشفرة قبل ذلك بساعات . بناء على طلب الحكومة اليمنية . ولم يكن لدى وزارة الخارجية . أية اجابة على استفسارات السفير . واكتفت بأن أفضت اليه . بعزمها على اخطاره فورا . بمجرد انتهاء الاجراءات اللازمة !!

وعلى مرمى حجر من السفارة المصرية . فى مبنى وزارة الداخلية اليمنية . الذى يقع فى أول شارع جمال عبد الناصر من ناحية ميدان

التحرير . كان التاجر المغربي ، أحمد الصبان ، وهو رجل جم الأدب خافت الصوت في حوالى الأربعين . يعرب عن احتجاجه للضابط المتوب بحراسته . وقد أقسم ألف مرة بأنه براء ، وإن كل جريمته تنحصر في هوية التصوير المقتة التى قادته الى هذا المأزق . وتعد بأن يقلع عن هذه العادة السيئة الى الابد . وفي نفس الوقت . كان محمد الزرقا . رئيس تحرير جريدة الثورة اليمنية . وهو صحفى قصير القامة يضع على عينيه نظارة طبية . ويتمتع بأنف صحفية شديدة الحدة . يحاول جاهدا أن يحصل من وزارة الداخلية . على إذن بمقابلة التاجر المتهم بالتجسس . وقد قيل له أن الرجل ليس متهما ولكنه من المشتبه فيهم . وفي النهاية . قيل له أن الوحيد الذى يستطيع أن يأذن له بهذه المقابلة هو وزير الداخلية شخصيا .

وعلى مسافة ثلاثة كيلو مترات من صنعاء . في مضيف يعرف باسم مضيف « حده » كان على سيف الخولاني . وزير داخلية اليمن . مسترخيا في مزرعته وهو يدخن في هدوء . وعندما اتصل به أحد مرؤسيه ليبلغه أن رئيس تحرير جريدة الثورة يلح في طلب مقابلة المتهم . أجاب بأنه سيسمح له بهذه المقابلة بعد انتهاء التحقيق . الذى يأمل أن ينتهى خلال عشرين يوما على أكثر تقدير .

كانت الساعة تشير الى الثانية تماما . عندما وصل « الفهد » الى مكتب رئيس قسم مقاومة الجاسوسية . وقد قضى هناك خمس دقائق وما أن خرج من المكتب حتى أصدر أمرا قصيرا عن طريق التليفون . وكان هذا الأمر . يقضى باستدعاء . أحد الضباط الفنيين . بصفة عاجلة . وكان هذا الضابط . خيرا ذا مقدرة عظيمة على قراءة الصور . ابتداء من الميكرو فيلم الى الصور الجوية الهائلة المساحة .

وبعد ذلك بدقائق . كان السائق « طلبه محمود » . وهو رجل ضخم
الجثة غليظ الاصابع أشبه بالدب . منطلقا بعربته الزرقاء في شوارع
القاهرة . ومعها قائمة بالاماكن التي يحتمل أن يكون فيها خير قراءة
الصور . ورغم انه كان منطلقا بسرعة الصاروخ الا انه كان يتعجب لحالة
الحمى للفاجئة . التي اجتاحت رئاسة المخابرات . وقد نجا من الموت
بمعجزة . عندما مرق أمام مقدمة قاطرة مترو . بعد أن خالف إشارة
المزور الحمراء وتغافل عن صراخ جندي المرور الذي تنفس الصعداء .
عندما افلتت العربية من الكارثة . ورآه « طلبه » وهو يسجل رقم عربته .
فهرز كتفه باستهتار وابتسم ابتسامة شاذية .

وفي شارع هادئ من شوارع مصر الجديدة . وفي الطابق الثاني من
فيلا صغيرة يملكها احد الاطباء . كانت السيدة الرقيقة الجميلة
التقاعصية . تجلس امام جهاز التلفزيون . بينما كان طفلها يلهو على
أرضية الغرفة بدبابة تطلق وميضاً احمر من مقدمتها . كانت علامات
الضيق والحيرة تكسو وجهها . فقد حرمت بغيته من النزهة الوحيدة التي
انتظرها طوال الاسبوع دون أدنى تفسير . وعندما دق جرس التليفون
أسرعت اليه . كادت ان تحطم لمة طفلها وجاءها صوت « الفهد » من
السماعة .

— حسنا ... سأغيب لبعض الوقت .

— بعض الوقت ... ماذا تعنى ؟

— أنت تعرفين ما أعنى ... هل تريدني شيئاً ؟

— لا ... آه ... نعم ... ليس لدينا أرز .

— أرز ؟ انه يؤدي الى السمّة . وأنا افضل قوامك كما هو !!

وفي الثامنة والربع اتخذ « الفهد » طريقة الى الجراج . الذي يقع
تحت مكاتب المبنى الذي احتله قسم مقاومة الجاسوسية . ومن هناك

انطلق بعربته وسط الحقول وانحرف بحدّة الى اليمين حتى اذا وصل الى الطريق المحاذى لسور قصر القبة . أبطأ من سرعته . وعندما وصل الى باب مبنى رئاسة المخابرات العامة . وجد الباب مفتوحا . ولاحظ أن ثلاثة مكاتب في الطابق الثانى ، ترسل نوافذها المسدلة الشائثر بصيصا من الضوء .

ترك « القهد » عربته وقفز كالقط البرى فوق مدرج من الاسمنت يعلوه باب زجاجى أنيق . ثم اتجه الى ممر يتوسطه تمثال برونزى « لأمنحتب » . وعبر ممشى مفروشا بالأحجار الملونة ، وسط صفين من الزهور النادرة ، كانت خطواته عملاقة كما هو دأبه دائما . مرفوع القامة ، شامخ الجبهة ، ولم يكن مظهره المرح . وأبتسامته الدائمة ، تبين عن انه في الطريق الى مهمة خطيرة من مهام المخابرات .

كانت وراءه سنوات عشر قضاها في الخدمة . والتقى اثناءها بذلك الطراز الفريد من البشر الذين يعرفون « بالجواسيس » . وقد انتزع من فواشه مرات عديدة . وطار الى كل انحاء الارض . وكان يعرف قبل غره . ان رحلاته محفوفة بالمخاطر . ولايد أن تنتهى بالنجاح . فالفشل أشد قسوة . في دنيا المخابرات من الموت . وكان يعرف ان عدوه لو اكتشف وجوده خارج مصر . فلا بد أن يصفى حسابه معه في هدوء . ودون أية بيانات رسمية . حتى من السلطات في القاهرة !!

لم يكن يفكر في اسرته الصغيرة . التى تعاني من نقص الارز . ولكنه كان يحاول جاهدا أن يستنتج هدفه المقبل . لقد أمر بأن يستعد للطيران عند الفجر . وأن يصحب معه خبير الصور الجوية الذى يختاره . وقيل له ان من الأفضل . الا يحمل معه اية اسلحة شخصية . كما تسلّم شفرة معقدة للاتصال برؤسائه في الحالات الضرورية . ولكن احدا لم يخبره « بالهدف » بعد .

دخل في النهاية الى ردهة واسعة يعلوها نسر هائل يغطي السقف
بجناحيه ، واستقل مصعداً ضيقاً يكفى شخصاً واحداً . وعندما خرج من
المصعد ، توقف لحظة ثم مضى الى الامام . واتخذ طريقه نحو مكتب
يطل على الفناء . وعندما فتح باب المكتب ، كان أمامه مباشرة ، وعلى
مسافة خطوتين المشير احمد اسماعيل بنفسه .

- يجب ان تسافر غدا الى اليمن .

هكذا نطق المشير احمد اسماعيل بهذه العبارة وهو يفحص بعينه
الحادثتين الضابط الذي قيل له انه من اقدر ضباط مقاومة التجسس . وانه
يشير الرعدة في نفوس عتاة الجواسيس .

لمست هناك طائرات في الغد . طائرة اليمن موعدها الاربعاء .

- لا . لا . لا . يجب ان تكون في اليمن غدا . حتى لو سافرت عن

طريق جهنم .

قطب الفهد جبينه عندما نطق المدير بالكلمة الاخيرة . كان
يعرف . مثل بقية زملائه ولع رئيسه بالاعتقاد في النفقات . لذلك لم
يشأ ان يقترح رحلة جوية طويلة .

- ان ذلك يكلفنا اموالاً اضافية .

- اموال ؟ ليس ذلك هاما ابدا .

- هناك طائرة ستقلع في الفجر الى لندن . ومن هناك تستطيع السفر
الى عدن في نفس اليوم بعد ذلك اقطع الطريق بالسيارة الى تعز ثم
صنعاء .

ستصل في وقت متأخر اذن . ولكن . لا بأس . تستطيع ان تدرس

مهمتك حتى موعد الطائرة . لماذا تقف هكذا ؟ اجلس يا بني .

جلس الفهد أمام المدير وبدأ عليه شعور بالارتياح . ولكن عينيه
بدأتا في ارسال ذلك البريق الغريب الذي ينبعث منهما كلما تقدم

الليل . وكان المدير يتصفح بعض الاوراق واخيرا تناول المذكرة المطبوعة
باللون الاحمر ومد يده بها الى ضابطه ثم ساد الضمت .

— ان القصة تبدو عادية . اليس كذلك .

— لا اعتقد .

— ماذا تعتقد إذن ؟

— يجب ان اذهب اولا لارى . ولكنى اشك انه جاسوس .

— هل قلت جاسوس ؟

— نعم . والا فلماذا يدفع رشوة بهذه الضخامة . بل لماذا يدفع

اضلا ؟

— معك حق . لقد فكرت أنا ايضا في هذه النقطة . هل لديك

مطالب معينة ؟

— لا مطلقا .

وكانت عقارب الساعة المعلقة وراء مكتب المدير تشير الى التاسعة

وعشرة دقائق عندما وقف « القهد » وقد وقف المشير احمد اسماعيل . ودار

حول مكتبه ليصافح ضابطه . ومد يده ووضعها بخزان غامر على كتفه .

وفي تلك اللحظة . كانت مصر كلها تضع يدها على كتف واحد من

ابنائها . وهو يتأهب لرحلة بالغة الخطورة . في طريقه الى « الهدف » .

الفصل الثانى

« اذاعة تشير الفرع »

من مكتب المشير احمد اسماعيل ، خرج ضابط المخابرات المصرى ، الذى أطلق عليه اسم « الفهد » ، مباشرة الى مكتبه . وهناك ، تسلم شريطا من الورق ، سجلت عليه كل المعلومات الضرورية لمهمته . طبيعة الأرض ، وطرق المواصلات والمبذن والموانئ الهامة . مواعيد سفر السفن والطائرات . بالاضافة الى حالة الطقس ومواقيت حركة المد والجزر على مدار السنة . ثم بيان شامل للقبائل والقرى ، واسم دبلوماسى مصرى تقرر أن يكون حلقة الاتصال بينه وبين السفارة المصرية فى صنعاء . وكان عليه أن يراجع هذه المعلومات ، بمنتهى الدقة ، خلال الست ساعات المتبقية حتى موعد اقلاع الطائرة الى لندن ، ولم يحدث أن تعرض « الفهد » لأية مقاطعة . ولو عن طريق التليفون الا عندما اشرفت الساعة على الحادية عشرة والنصف . فقد ابلغ بأن كل الجهود التى بذلت لتعشور على خير الصور الجوية قد باتت بالفشل .

وعلى الفور . اتخذت الإجراءات الاستدعاء خبير آخر . ليكون بمثابة « احتياطي المهمة » . ولكن أوامر « الفهد » حظرت بشكل حاسم . اطلاع الخبير الجديد على أية معلومات عن الرحلة قبل الساعة الواحدة والنصف صباحا . لذلك اقتضت الرسالة التي تلقاها . على أمر بأن يبقى في منزلة . الى جوار جهاز التليفون . فاذا لم يتصل به أحد حتى الواحدة والرابع . كان عليه أن يتخذ طريقة نحو رئاسته .

ويتقدم الوقت . انضم نحل جديد الى الخالية الصغيرة . التي كانت تعمل بدأب في قسم مقاومة الجاسوسية . وتمكن أحد الضباط من العثور على الخبير المطلوب . وهو عائد الى منزلة قبل منتصف الليل بعشرة دقائق . وعندما وصل في النهاية . وجد « الفهد » متكيا على القراءة ولم يعره التفاتا .

ان هذا الخبير الذى شغل جهاز المخابرات . لمدة تزيد على الساعتين . رجل بدين مرح يغط في النوم كلما سنحت له الفرصة . ومع ذلك . فان الفهد يفضل مصاحبته في المهام البعيدة التي تتطلب قدرا كبيرا من الموهبة . والحظ الجيد . ومن المؤكد . أن الرجل جدير بهذه الثقة .

فمن الشائعات التي تتردد بين المختصين بدراسة وتتبع الجواسيس . انه يتمتع بموهبة عظيمة على تمييز الصور وهو مغمض العينين . وثبتت سجلات خدمته . أنه قام حتى يونيو سنة ١٩٧٢ بمائة وسبعة وعشرين رحلة جوية . عدا آلاف الكيلو مترات التي قطعها بمختلف وسائل المواصلات . ورغم أنه ينتهر دائما ليلة العطلة . ليسهر على غير عادته الى ما بعد العاشرة . ورغم انه استدعى وهو أقرب ما يكون الى غرفة نومه . الا أنه لم يقصد مرحة .

ان البنين . والمهام السرية الى أبعد مدى . ووحدة التعرض للخطر . ترسخ الصداقة الثينة التي تربط بين الرجلين . كما أنهما يحتفظان

بذكريات يقشعر لها الجلد . في أقصى شمال العالم وفي أقصى جنوبه .
أما في القاهرة . فما إن تشمم أنف « الفهد » رائحة جاسوس حتى يسارع
إلى الاستنجاد بصديقه البدين . الذى لم يخيب أمله فيه قط .
وفي منتصف الليل بالضبط . وقع أمر لم يكن في الحسبان . إذ أفادت
الوحدة المسؤولة عن « التجهيزات » . بأن الطائرة المحددة . ليس فيها
مقعد خال . ولأن هذه الطائرة لم تكن تابعة لشركة مصر للطيران .
لجأت منظمة المخابرات المصرية . إلى إجراء استثنائى غير مستحب .
ولكنه فرض نفسه . إذ لم يكن هناك أى بديل له .

فقد انطلقت عربة تقل ثلاثة من رجال المخابرات . صوب عنوانين
محددتين في مدينة القاهرة . فيلا استاذ جامعى في مدينة المهندسين . وشقة
مهندس مناجم في حى السكاكىنى . وتلقى كل من أستاذ الجامعة
ومهندس المناجم . طليبا مهذبا بأن يؤجلا رحلتها إلى لندن . إذا لم تكن
هناك أضرار منطقية .

كان مهندس المناجم . يغالب النعاس . وكانت حقائب السفر وراء
باب الشقة مباشرة . وعندما قيل له أنه يؤدى خدمة للوطن . لم يحاول
المناقشة . أما الأستاذ الجامعى . فقد نظر إلى رجال المخابرات الثلاثة . في
هذا الوقت من الليل . بارتياح بالغ . ولكن أسارية تهلت عندما
أدرك أنهم يطلبون عونه . ولأنه كهل ذكى متخصص في الفلسفة . أعلن
موافقته وسط طوقان من الاستفسارات والأسئلة . وقد أجبى بكل
بساطة . بأن أحد أفراد الأمن سوف يحتل مقعده في الطائرة . ولما
استفسر عما إذا كانت هناك معلومات مؤكدة بأن الطائرة سوف تختطف
تلقى ابتسامة خجولة أنهت المقابلة .

وكما يحدث دائما في مثل هذه الرحلات . أعدت للفهد وصديقه .
مهمات السفر . ملابس ومعدات حلاقة وراديو ترانزستور وأدوات

للكتابة . مع بعض الأشياء البريئة المظهر . والمحتوية على معدات معقدة للغاية . وهذه المهمات يتم اختيارها بدقة . لتناسب الشخصية والمهنة التى سيدعيها ضابط المخابرات أثناء وجوده خارج البلاد . فلم يحدث مطلقا - أن سافر ضابط مخابرات الى الخارج - بصفته هذه .

ان هذا الاجراء . ليس ضروريا في تجهيز المهمة . بل غالبا ما يكون مسألة حياة أو موت . فعلامة المعطف . أو علبة السجائر المحلية . تدل بوضوح كامل على بلد الصنع . ويعرف ضابط المخابرات . ان تفتيش مقر أى انسان . ليس سوى اجراء روتينى تقوم به الأجهزة المختصة أو ضاحية المصلحة . قبل أى خطوة أخرى .

وقيل ان يغادر الضابطان مكاتب مقاومة الجاسوسية . في تمام الثالثة صباحا . اتصل المشير احمد اسماعيل تليفونيا من منزله . ليتمنى لهما التوفيق . ولكنه لم يشر من قريب أو بعيد الى مهمتهما . ولم يوجه لهما أية نصائح . وكان الرجل - رحمة الله - حريصا بطبيعة على قواعد الأمن ولم يكن يسمح أبدا . بمناقشة الأمور السرية . عبر أجهزة الاتصال المعتادة . وعلى الاخص أجهزة التليفون بأنواعها المختلفة .

كانت الرحلة طويلة بقدر ما كانت مضيئة . من القاهرة الى لندن . ومن لندن الى عدن . ولأنهما وصلا الى مطار عدن في العاشرة مساء الجمعة . اقترح البدين قضاء الليل في المدينة . وأخذ يعدد مزايا العمل بعد أن يأخذ الجسم قسطا من الراحة . ولكن « الفهد » كان يستمع اليه وهو يسرع الخطى بحثا عن عربة أجرة . تقلهما صوب الشمال الى صنعاء .

وطوال الرحلة . عبر سلاسل الجبال العظيمة التى تغطى معظم ربوع اليمن . كان خبير قراءة الصور مستغرقا في نوم عميق . وكان قد احتل مقعد العربة الخلفى وحده . بينما كانت عينا « الفهد » تومضان بذلك

البريق الغريب الذى ينبعث منهما في الظلمة . وفي مدينة « تعز » أعلن
سائق العربية أنه يفضل . ومن أجل سلامة الجميع . ان يستريح لبعض
الوقت قبل مواصلة السفر . ولكن « الفهد » كان في عجله من أمره .
وتسبب الارهاق . مع نقص الاوكسجين في اجزاء الطريق الشاهقة
الارتفاع . في ان الفريق كله كاد أن يلقى حتفه . فبالقرب من الكيلو
١٥٥ . على طريق تعز - صنعاء انحرفت عجلة القيادة من يد السائق .
واندفعت العربية صوب الهاوية السحيقة . التى يزيد عمقها على الثلاثة
آلاف قدم . وبينما كانت قمم الجبال تراقص امام عينى « الفهد »
تعلقت العربية بعلامة الكيلو المبنية من الاسمنت . وقد انتبه البدين
وألقى نظره . ثم وجه الشكر الحار للسماء لأنه مازال يتنفس . وأبدى
ملاحظة سريعة عن بغية عدم الاستماع لنصائحه . وما أن بدأ السائق في
التقهقر ليعيد العربية الى الطريق . حتى انصرف الى أحلامه السعيدة من
جديد . ولم يستيقظ الا على مشارف صنعاء .

وفي صنعاء اتجه الزجلان الى فندق متواضع . وبعد ان اغتسلا وبدلا
ثيابهما هبطا الى الشارع وكان « الفهد » متعبا بدرجة كبيرة . أما البدين
فكان يتدفق حيوية ومرحا . وكانت هيئة الاثنین معا توحى بأنهما من
المدرسين المعارين لمدرسة ثانوية . أو الصحفيين الكسالى . ولم يكن أحد
يتصور أبدا . أنهما اثنان من أقدر ضباط المخابرات في العالم بأسره .

وفي الساعة الواحدة والثلث . بعد ظهر السبت العشرين من يونيو .
أجرى الفهد أول اتصال تليفونى مع السفارة المصرية . وقد تحدث الى
الدبلوماسى الذى يحتفظ باسمه . وبعد هذه المحادثة بعشر دقائق .
أخطر السفير المصرى . فؤاد عبد المبدى . وزير الداخلية اليمنى . وكان في
ذلك الوقت على سيف الدين الخولانى . بأن اثنین من خبراء قراءة
الصور قد وصلا لثوبهما وأنهما رهن إشارة حكومة اليمن .

وفي تمام الساعة الثانية ، وصلت الى الفندق عربية لاندروفر ، تقل وزير الداخلية وشابا أنيقا قوى البنية لم يفتح فمه بكلمة . وتم التعارف بين « الفهد » والوزير . وتوقفت المهمة بسرعة . واتضح ان الحكومة اليمنية ، قد خصصت فيلا من طابق واحد لاقامة الخبيرين . وتم نقل أمتعتهما الى الفيلا التي تقع في ضواحي العاصمة ، على الطريق المؤدى الى « وادى ظهر » . وما ان استقر الرجلان في مقرهما الجديد ، حتى تسلما مظلوما يحتوى على الأفلام والصور التي ضبطت في حوزة التاجر المغربي المشتبه فيه . وانتبهت حواس البدين كأنه ابتلع عقارا سحريا فجأة . وعكف على دراسة محتويات المظروف باستغراق شديد . الى حد أنه رفض أن يتوقف لتناول طعام الغداء . وبينما كان « الفهد » يزدرد طعامه ويتأمل عن كثب . كان هو منحنيا على عدساته وأجهزته بشكل يثير السخرية .

ولم تنقض خمسون دقيقة ، حتى كان البدين قد فرغ من مهمته . وأعلن ان الصور ليست سوى « بانوراما » لميناء الحديدة . وكانت كل صورة ، اذا فحصت على حدة . لا تعطى مدلولاً مريئاً . ولكن اذا أزيلت من كل صورة ، مساحات جانبية تهدف الى التضليل . وألصقت كل الصور متجاورة وفق ترتيب معين . تكونت صورة كاملة للميناء ، ولم يكتف البدين بإعلان هذا الاكتشاف المثير . بل أضاف أنه يجزم ، بأن الكاميرا التي استخدمت في التصوير ، ذات - عدسات خادعة ، وهو نوع من الكاميرات التي يستخدمها الجواسيس ، بحيث يكون اتجاه العدسة متعامدا مع اتجاه الهدف المراد تصويره .

شعر الفهد بالارتياح . وبما لأن الجهود الشاقة لم تضئع هباء . وقد قرر أن يخلد الى الراحة حتى صباح الأحد . وفي نفس اللحظة التي سمع

فيها لنفسه . لأول مرة منذ تكليفه بالمهمة . ان يستلقى على سرير . كان يشحذ طاقاته كلها ليصل الى هدفه . فقد كان عليه ان يتعرف على « المتهم » ، وان يحدد « جنسيته » . والجنسية هنا تعنى جنسية رؤسائه . ثم يأتي أهم وأخطر مرحلة في اللعبة كلها وهى استخلاص كل ما لديه من معلومات صادقة .

ان الراحة بعد التعب شىء ممتع بصورة خيالية . ولكن الثوانى لها حساب بالغ الخطورة في حقل الجاسوسية . لذلك انتزع « الفهد » نفسه من فراشه في الساعة من مساء نفس اليوم ليتصل مرة أخرى بالسفارة المصرية . وفي التاسعة تم أول لقاء بين الدبلوماسى المصرى والفهد في عربة الدبلوماسى . وهى من طراز فولكس واجن . وفي العاشرة ودقيقتين أرسلت من السفارة المصرية أول برقية بشفرة المخابرات . وأبلغ المشير احمد اسماعيل بمحتوى البرقية . بمجرد أن انتهى المختصون من حل رموزها في القاهرة .

وفي صباح الأحد عاود « الفهد » الاتصال بوزير الداخلية اليمنى . وطلب ان يطلع على أوراق التحقيق المبدئى الذى أجرى مع المتهم . كما طلب ان يفحص كل ما ضبط في حوزته . وقد أتضح ان التاجر المراوغ كان يحمل في جعبته شيكات سياحية قيمتها خمسة آلاف دولار . وثلاثة آلاف دولار نقدا . وثلاثة وأربعين ريالاً يمنياً . وخاتماً ذهبياً . وساعة « أوميجيا » من أحدث طراز . وخطابات اعتماد من شركات تنتج لعب أطفال . وكتالوجات ملونة لهذه اللعب . وجواز سفر صادر من حكومة المغرب .

أما أوراق التحقيق فلم تشمل الا اجابات المتهم على الاسئلة التقليدية . السن والمهنة والعنوان وتاريخ الوصول وسبب الزيارة وتفسير التقاطه الصور في منطقة الميناء . كما أشتملت على أقوال جندى الحراسة

الذى ضبطه واقتاده الى ادارة الأمن العام في الحديدة . وتفاصيل واقعة الرشوة . وقد أصر المتهم في اجاباته كلها . على أنه من هواة التقاط الصور التذكارية ثم أعرب عن احتجاجه على احتجازه دون سبب جوهري . وعن العواقب الوخيمة التى ستنتج عن هذه المعاملة التى يلقاها مواطن عربى من رعايا جلالة ملك المغرب .

وبمجرد أن انتهى الفهد من فحص أوراق التحقيق . والأشياء المضبوطة حتى أصدر أوامره الى البدين الذى انتهى دوره في صنعاء . بأن يتخذ طريقه بأقصى سرعة الى المغرب . لكى يستفسر من الحكومة المغربية . عما اذا كان جواز السفر المضبوط . صادرا فعلا من وزارة الداخلية المغربية . وأن يتأكد . من أن البيانات المثبتة به حقيقية . وكان على البدين أن يترق باجابة الحكومة المغربية . بالشفرة . الى السفارة المصرية في صنعاء . وبعد ذلك . يمكنه أن يعود الى القاهرة . وبعد أربع وعشرين ساعة . أفادت السفارة المصرية في صنعاء . بأنها تسلمت برقية مرسلة من المغرب . بشفرة خاصة . وكانت هذه البرقية مكونة من كلمة واحدة . وعندما وضعت تحت بصر « الفهد » ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة . فقد كانت ترجمة هذه الكلمة . لا تعدو أن تكون أداة النفي : « لا » .

نفس الوقت . وكان وزير الداخلية اليمنى . يتعجل اعلان نبا القبض على أول جاسوس بسقط في اليمن .

ومع أتضاح الصورة أمام عيني الفهد . بعد اكتشاف صور الميناء وجواز السفر المزور . بدت مهمته وكأنها مفرطة في السهولة . ولكن المتاعب أخذت تلوح في الأفق . فقد اشارت السفارة المصرية . بأسلوب مهذب . الى أنها لا تحبذ الاشتراك في مثل هذه « المسائل الغامضة » .

كان ضابط المخابرات المصرى . أمام حالة نادرة . وكان يعرف
بتجربته ان المتهم شديد الخطورة . وكان قد قرر أن يتولى استجوابه
بنفسه . وأن يقيه بمعزل عن العالم الخارجى لكى يتمكن من الانفراد
به . لمعرفة كل ما لديه من معلومات .
وبعد مناقشات معقدة . أمكن اقناع السفارة المصرية فى صنعاء . بأن
مجرد ارسال واستقبال البرقيات . لا يعنى اشتراكهما فى « المسائل
الغامضة » . كما ان العملية كلها تتم بناء على طلب السفير نفسه .
استجابة لرغبة حكومة اليمن . أما وزير الداخلية . فقد وافق هو الآخر .
على التريث ولو لمدة أيام معدودة . قبل اذاعة النبأ .

وفور الانتهاء من تدليل هاتين العقبتين جاء دور المطلب الذى كان
ملحا . ان يلتقى ضابط المخابرات المصرى . بذلك التاجر الغريب
الأطوار . والذى يحمل هوية مزيفة وصورا دقيقة لميناء بالغ الحيوية .
ومع ذلك . يصر على أنه من هواة التقاط الصور التذكارية .
وفي الساعة الواحدة من صباح الثلاثاء . الثالث والعشرين من يونيو .
أخطر أحد الحراس اليمنيين . المتهم . بأن صحفيا مصريا سوف يأتى
لزيارته . وكان المتهم محتجزا فى مصلحة الأمن الداخلى . فى غرفة صغيرة
فى الطابق الأرضى . وقد فتح الحارس الباب . وبمجرد ان دخل
« الفهد » أغلق الباب بالأقفال والمزاليج الحديدية .

كان التاجر المتهم . جالسا على كرسى من الخشب المتآكل . وقد
أطرق برأسه . وكانت الجدران العالية . المبنية من الحجر الكاليج اللون .
والتأفدة الوحيدة المغطاة بالقضبان . والضوء الخافت . تضىء أجوا من
الكتابة المقبضة على جوف الغرفة . وقد عثر « الفهد » على مائدة عتيقة أمامها
مقعد . فتأمل المكان كله ثم جلس بهدوء .

ساد الصمت الزهيب في جو مشع بالملودراما . وعندما رفع المتهم رأسه ليفحص زائره . التقت عينا الرجلين . وللحظة خاطفة قرأ كل منهما في عين الآخر أشياء مرعبة . واكتشف المتهم ان زائره ذا سحنة لا تبشر بالخير . رغم الابتسامة التي يعلقها على شفتيه . ورغم انه مؤدب الى حد مدهش . ورغم أنهم أخطروه بأنه صحفي .

- هل أنت مصري ياسيدى ؟

هكذا نطق المتهم وهو يحاول جاهدا ان يخفف من رهبة الموقف .

- مصري .. نعم .. اننى أهتم بمثل هذه القضايا . لذلك طلبت أن

أراك ..

- ان مصر بلد متحضر . انتم لا تقبضون على الناس لمجرد أنهم

يلتقطون الصور ..

- هدى من روعك . لقد قالوا لى أنك مغربى .

- نعم .. وقد جئت بقصد السياحة .

- اننى أحب المغرب . ولى أصدقاء مغاربة . هل انت متزوج ..

- آه .. نعم ولدى ولدان . ان هؤلاء اليمينيين حمقى .. فقد أردت ان

التقط بعض الصور .. صور تذكارية . وقد قبضوا على .

- هذه اجراءات ضرورية . وسوف تعود لأسرتك . أين أسرتك الآن ؟

- في الدار البيضاء .. بيتى في شارع الملك محمد الخامس .

- آه ... هذا الشارع محاذى للمحيط .

- بالضبط .. يجب ان تساعدنى أيها السيد ..

- ولكنهم يقولون أنك دفعت رشوة .. هل حدث ذلك فعلا .

- وماذا كنت تتوقع . لقد أدركت بمجرد أن رأيت هذا المنكود وهو

يقترب منى أن المتاعب قد بدأت . كان تصرفي أبلها . اليس كذلك ..

- لقد أثرت شكوكهم . ولكن يجب ألا تكسب .

- أكتب ؟ لقد فكرت في الانتحار . اننى لا اعرف خطوتهم المقبلة .
أرجو أن تساعدنى . نعم . يجب أن أوكل احد المحامين للدفاع عنى .
- سوف أساعدك ولكن بشرط .
- هل قلت شرطا ؟
- نعم .

- أعرف .. أعرف .. اننى تحق امرك .. ولدى ثروة كبيرة في
المغرب .. واستطيع أن ..

- دع الحديث عن الثروة الآن . يجب أن تعطى لتأخذ ..
- طبعاً .. ان تجارتى تتعرض للدمار لو بقيت هنا .. وسوف أضحي
بأى مبلغ .. أى مبلغ ..

- رائع .. أعدك بأن أساعدك .. ولكن عليك أن تصارحنى .
- اننى لا أخفى شيئاً .. صدقنى .. أقسم .

- قلت لك يجب أن تصارحنى .. هذه نقطة هامة .. الى أقصى حد ..

- حسناً .. سوف أجيب على أسئلتك .
- أسئلتى ؟ لا .. اننى أفضل أن تروى أنت القصة .

مضت ساعة كاملة والتمهم يسرد قصته . جئت من نيروبي يوم ١٦
مايو . غادرت عدن يوم ١٨ الى تعز ثم ركبت السيارة بعد يومين الى
صنعاء . في صنعاء نزلت في فندق « المخا » . كان الجو خائفاً ففكرت في
زيارة الشاطئ . سافرت بالأتوبيس الى الحديدية ونزلت في فندق
« الأخوة » . بقيت هناك أستطلع السوق وأتترزه على ساحل البحر الى أن
قبضوا على .

كان ليل صنعاء هادئاً لا يعكر صفوه هدوئه سوى نباح كلب ضال
أمام مبنى الأمن العام . وكان « الفهد » ينصت باهتمام وملامحه جامدة
كأنه بنى سداً بين أذنيه وعينيه . ومن آن لآخر كان التهم يتوقف

ويحذق في زائرته لعله يقرأ تأثير أقواله في تقاطيع وجهه دون جدوى .

- هل هذه أول زيارة لك لليمن ؟

- نعم ... ولكن زرت عدن من قبل .

- متى ؟

- العام الماضي في يونيو .

رفع « الفهد » عينه الى السقف وكأنه يقرأ شيئا مجهولا هناك . في

يونيو سنة ١٩٧١ كانت ناقلة بترول اسرائيلية قد تعرضت لهجوم

ال فلسطينيين امام ساحل عدن . ولكن لماذا أفصح عن زيارته لعدن دون

أن يسأله أحد . هل لأن الزيارة مسجلة على جواز سفره . أم أن هذا

أسلوب بارع لابعاد الشكوك . دارت عجلات « الكمبيوتر » الدائر في

جمجمة الفهد بسرعة مذهلة . وعندما خفض بصره كان وجهه صلبا كأنه

اكسى بقناع من الفولاذ .

- لنعد قليلا الى الماضي ... ماهى البلاد التى زرتها من قبل .

- طفت العالم أياها السيد ... اننى تاجر .

١- أعتقد أننى أعرف مهنتك . قبل « نيروبي » أين كنت ؟

- آه ... زرت بروكسل في ابريل ومنها انتقلت الى عدن . بعد ذلك

عدت الى كينيا . ثم قررت ان أرى اليمن .

- هذا سجل طيب . في الحقيقة ...

- ان هؤلاء اليمينيين أشرار للغاية ياسيدى . الحراس . أنهم

يتوعدوننى بالويل دائما . يجب أن تساعدنى ياسيدى ؟

- حسنا . فلترتب الأمور على النحو الأمثل يجب أن نخطر سفارتك

- أية سفارة ؟

- سفارة المغرب . يجب أن يعرفوا أنك فى مازق . ليساعدوك .

- لا .. أرجوك .
- هل تعنى أنك لا تريد أن أستجد بحكومتك ؟
- نعم .. نعم .. سأصارك .. لدى مشكلة خاصة .
- أية مشكلة ؟
- جواز سفرى .. أنه غير مسجل لدى حكومتى .. فقد حصلت عليه بالثمن .

آه .. أن القضية تزداد تعقيدا .. الجواز مذور إذن .
- ليس تماما .. أنت تعرف .. ثمة ظروف يجد التاجر منا نفسه فيها على شفا الافلاس .. حدث ذلك معى منذ أربع سنوات ، وقد استدنت مبلغا بسيطا . ووقعت على شيك هذا أمر سىء للغاية . فقد صدر ضدى حكم بالسجن .. وعندما تحسنت الأحوال كان الألوان قد فات .
- وكيف حصلت على الجواز ؟
- دفعت . الاختام صحيحة ، ولكنه غير مسجل . هذا كل ما فى الأمر .

كانت ورقة رابحة من أوراق الفهد . التى كان يدخرها للحظة المناسبة . قد أصبحت بلا قيمة . ولكنه كان مستغرقا فى تأمل محدثه البرىء القسمات . وكانت فى جعبته ورقة رابحة أخرى . الا أنها كانت بالغة الخطورة . فقد كان على هذا المتهم أن يفسر تفسيراً مقبولا . السر فى احتفاظه بصورة معقدة للفنياء . وبكاميرا ذات عدسة خداعة .
- اعتقد أنك لا تتحدث بصراحة .

نطق « الفهد » بهذه الكلمات فجأة وبسرعة . وانتقل اليه ذلك الشعور بالرعدة الذى سرى فى جوف المتهم . كان يتماسك بصعوبة ولكنه أبتسم .
- ماذا تعنى ؟

- انصت الى . ليس في العالم كله انسان واحد تقول له سفارتك ،
فيسأل أليه سفارة ، هذه مجرد ملاحظة .

- أنت تقسو على أيها السيد . انتي مرهق ، ويجب .. يجب أن تقدر
ظروفي .

- حسنا ... وماذا بشأن الصور ؟

- الصور ؟ لقد أخذها اليمينيون .

- آه .. هم سمحوا لي بأن ألقى نظرة ... وقد وضعتها متجاورة .. أن
الصورة رائعة

- كانت عينا « الفهد » مركزيان على عيني المتهم . وقد حاول الأخير
أن يقاوم ، ولكنه اختلج بجدة . بدا عليه شعور بالهزيمة . رفع رأسه
وتنفس بقوة ، كانت المطلقة قد أصابته في مقتل وفي النهاية همس :

- هل قلت أنك تهتم بمثل هذه القضايا ... أعتقد انتي فهمت ..

- اذن عليك اختصار الطريق .

- أنت ضابط أيها السيد .

- وهل قلت لك غير ذلك .. انتي أفضل الصدق .

- هذه مأساه ... ولا بد أن اعترف .

- وأنا سأستمع ... أنت تعرف القواعد طبعاً .

- القواعد .

- نعم ... يجب أن تعطى لتأخذ .. هذه أول القواعد .

- أننى .. هذه أول مرة .. صدقنى .. عليهم اللعنة .

- من

- هؤلاء الامريكيون ... لقد التقوا بى في نيروبي .

- استمر .



« فندق الأندلس في المدينة هنا أقام » باروخ »

- ثمة رجل يدعى ريتشارد .. قدم لى نفسه على أنه تاجر يدير شركات كبرى .

- ريتشارد ماذا ؟

- ريتشارد فقط .

- متى ألتقيت به ؟

- منذ أربعة أشهر ، تعارفنا في فندق فرانسيه . وكنا نلتقى في مقهى

فندق نيوستالى هاوس . وفي النهاية أعطانى الكاميرا . وطلب أن أقصد الحديدة .

- في مقابل ؟

- في مقابل توكيل ضخ في المغرب .

- وهل حدد لك الهدف ؟

- نعم .. الميناء .

- ألم يقل لك لم يريد الصور ؟

- قال أنه يريد أن يتعرف على الوحدات البحرية السوفيتية التى

تزرور الميناء .

- وكيف تسلمه الصور ؟

- استأجرت صندوق بريد في نيروبي .

- باسمك ؟

- لا بأسم أحمد صابر .

- هل كانت لك خبرة سابقة بالتصوير .

- لا .. هو علمنى كيف ألتقط الصور ، في ثلاثة أسابيع .

- أين ؟

- في مسكنه .. انه يقيم في ... آه ... سوف أتذكر حالا ... في ...

- لا داعى مطلقا .. المهم أنك زرت مسكنه .

- نعم .. أنت لا تعرف هؤلاء الامريكين .. أنهم كرماء للغاية .
- هل أخبرك أنه ضابط ... أعنى ضابط مخبرات .
- نعم .. نعم .. وقال أن رئاسته في لانجلى . بالقرب من واشنطن .
- هذه قصة ممتعة .. أليس كذلك .
-
- هل سمعتنى .
- أننى مرهق ياسيدى . كم الساعة معك .
- الثالثة هل ترغب في أن تستريح .
- نعم ... ان قدمى تؤلمنى بشدة .
- حسنا ... سأتركك الآن وأرجو أن تنام نوما عميقا .
- لحظة أيها السيد ، هل ستساعدنى ... انتى صديق .. اقسم ..
- وسوف أضع نفسى تحت تصرفك .. مدى حياتى أيها السيد .
- لقد وعدتك .. ولكن يجب أولا أن أتأكد من أنك تقول الصدق .
- أقسم .. أقسم أيها السيد - ... لم أكذب في حرف .
- سوف نرى ... هل ترغب في شىء ما .
- نعم .. قل لهم ألا يوقظونى مبكرا .. لا شىء أكثر .
- سأطلب ذلك ، ولكن . هم يطبقون أنظمتهم . وسوف أحاول .
- أشكرك ... أشكرك باخلاص ياسيدى .

اخترق « الفهد » شوارع صنعاء ، في طريقه الى مقره ، كانت نسمات
 الفجر الرطبة تداعب وجهه وهو يقود العربة اللاند روفر التى خصصتها
 له وزارة الداخلية . وقد سرح خياله الى مسافة بعيدة . هناك في ضاحية
 مصر الجديدة . عشه الصغير وطفله المحبب والسيدة الرقيقة التى تقاسمه
 حياته الغريبة ومع ذلك تعيش على هامشها .. وتذكر أن أسرته تعانى من

نقص الأرز، وازدحمت الأسئلة في خلايا عقله . لحساب من يعمل هذا المخلوق . ولماذا جاء الى مدخل البحر الأحمر . ثم تلك الشخصية المراوغة التي لا يمكن أن يصقلها تدريب ثلاثة أسابيع ، كان الفهد يعرف أكثر من الآخرين . حجم التدريب الذى يكفى لاتقان اللعبة الى هذا الحد . كانت قصة التاجر المزيف تبدو صادقة . ولكنها كانت مليئة بالثقوب . فبالإضافة الى قصر مدة التدريب . هناك ضابط المخابرات الأمريكى ، الذى يسمح لعمله بأن يعرف الطريق الى مسكنه . ويحدثه عن رئاسته في لانجلى . ومع ذلك القدر من المعلومات الكاذبة . كانت قصة الجواز « الذى لم يسجل لدى الحكومة المغربية » دليلا على براعة المناورة ، وهى براعة لا تتوفر للهواة والوافدين الجدد الا نادرا . ومع ذلك . حقق الفهد نجاحا في أول خطواته . اذ تمكن بعد أول لقاء . من أن ينتزع اعترافا من هذا القادم من المجهول . بأنه جاء في مهمة للتجسس .

وفي طريقه الى مقره على الطريق المؤدى الى وادى « ظهر » . لم يكن الفهد يعرف ان مصريا نشيطا آخر . كان يؤدى واجبه في صنعاء . اذ حصل مندوب وكالة أنباء الشرق الأوسط ، على تصريح من أحد المسؤولين في ادارة الأمن العام . بأن تاجرا مغربيا قد قبض عليه . بتهمة التجسس في ميناء الحديد . وأرسل برقية عاجلة بالخبر الى وكالته في القاهرة . ولأن البرقية وصلت الى الوكالة في الرابعة صباحا . أذيع النبأ في أول نشرة للأخبار . من اذاعة ركن السودان . وكان ذلك في الساعة السابعة . وأربعة دقائق بالضبط . ورغم ان النبأ لم يتردد في أية اذاعة بعد ذلك . ولم تنشره الصحف . الا أن إذاعته أثارت . دون قصد . فزع المخابرات .

الفصل الثالث

« الاسرائيليون لا يسمعون »

بأقصى سرعة تحركت أذرع أخطبوط خرافى متشعب الأطراف هائل الحجم ، وفي غضون ثلاثين دقيقة . كان كل أثر لنبا القبض على جاسوس الحديدة قد أختفى من الوجود ، وتعجب رؤساء تحرير الصحف المصرية ، الذين تلقوا النبا على آلات التيكروز . من لهفة المخابرات المصرية على كتمان نبا سبق أن أذاعته وكالة الأنباء المصرية الرسمية بشكل علنى . ورغم أن ضباط المخابرات في القاهرة ، شعروا بالارتياح ، بعد محاصرة النبا تماما . الا أن حقيقة واحدة ظلت تحمق في وجوههم بشراسة . وهى أن النبا قد أعلن من راديو ركن السودان . وكانوا يعرفون أن الأثنى عشر ثانية . التى استغرقها المذيع في قراءة النص ، المكتوب بإختصار . كفيلة بإثارة انتباه أجهزة الاستماع المنتشرة في كوكب الأرض . وعلى الأخص . جهاز الاستماع في منظمة المخابرات . التى أوفدت هذا الجاسوس . والتى كانت مجهولة لم تحدد بعد .

واتخذت على الفور . اجراءات معقدة أيما تعقيد . لتأمين العملية من جميع جوانبها . وأرسلت برقية عاجلة الى السفارة المصرية في صنعاء . وتضمنت البرقية مطلباً بالغ الغرابة . ويتلخص هذا المطلب في أن الحكومة المصرية . ترجو أن تقوم السلطات اليمنية . بنقل التاجر المتهم . من مصلحة الأمن الداخلى . الى مكان أمين يحاط بأقصى درجات السرية .

وفي نفس الوقت . تلقى ضابط المخابرات المصرى . الذى كان مشغولاً باستجواب المتهم . برقية بالشفرة . لاطلاعه على القصة كلها . مع نصيحة من رؤسائه . بأن يسرع في انجاز مهمته . وأن يضع في اعتباره . أن جهاز المخابرات المعنى . سوف يبذل جهوداً مكثفة للحيلولة بينه وبين هدفه . مما يستوجب تغيير مقره هو الآخر . مع اتخاذ احتياطات الأمن الضرورية .

وحتى لا يثرثر مندوب وكالة أنباء الشرق الأوسط . في صنعاء . بمضمون السبق الصحفى الذى حصل عليه . صدرت اليه الأوامر في نفس اليوم . بأن يغلق مكتب الوكالة . ويركب أول طائرة الى القاهرة . ومن الغريب . أن مكتب الوكالة في صنعاء . ظل مغلقاً حتى هذه اللحظة . ويباشر مندوب الوكالة الحالى « جلال سالم » أعماله من منزله .

كانت قرون الاستشعار تتحرك في كل اتجاه . وانتبه موظفو قسم الاستماع . في جهاز المخابرات المصرى . ووضعت كل الأجهزة المختصة . بمراقبة الموجات التى تستخدمها المخابرات . وبجل الشفرة . في حالة طوارئ على مدى الأربع وعشرين ساعة التالية . وكان شغل هذه الأجهزة الشاغل . أن تجيبنا على سؤال واحد . هل التقطت الاذاعة التى بثتها محطة ركن السودان . ثم . ما هو رد الفعل ؟

ومن بين ضباط المخابرات المصريين . الذين كانوا على معرفة بأن عملية ما تجرى في اليمن والذين يعدون على أصابع اليد الواحدة . كان واحد يشعر بالقلق أكثر من غيره . ليس فقط على عملية يجب أن تنتهى بنجاح . ولكن على مرؤوسه - وصديقه في نفس الوقت - الذى قد يواجه - بسبب تسرب غير مقصود - جهازا من أجهزة المخابرات القوية . وفي العالم السرى . يعرف « الجميع » ان الالعب القذرة مسموح بها في الظروف المناسبة . بشرط ألا تترك الأصابع أية بصمات . وأن كان « الجميع » ينكرون هذه الحقيقة . في المؤتمرات الصحفية .

هو رجل في حوالى الخمسين . أجمر الوجه دقيق التقاطيع ذو شعر قصير وعينين حادثين تنزلقان بسرعة في كل اتجاه كأنهما خلقتا من الزئبق . وقد أشتهر بسجله العريض كواحد من خبراء « النقل » ولقدرته الفائقة على القفز من القاهرة الى أماكن عديدة في العالم . والعودة سالما بالهدف المطلوب نقله . كان أقرب ما يكون الى « سنجاب » بشرى . جميل الطلعة ناعم الملمس ولكن خفة حركة لا يمكن أن تبارى

وكانت صلة السنجاب بالفهد وثيقة كأوثق ما تكون الصلة بين الأستاذ وتلميذه النابغة . وكان قد تلقاه وافدا جديدا لا يعرف من أسرار المخابرات الرهيبة شيئا . وعندما انتهى الفهد من الدراسة . كان السنجاب هو الذى رشحه لكى يتولى التدريس في مدرسة الجاسوسية . ذلك المعهد المظلم الذى يفرخ نوعا واحدا من الخريجين . نوع لا يمكن أن تعثر عليه في أى معهد آخر . وأغنى بهم الجواسيس .

كان ذلك في أوائل الستينات . ولكن تقدم السنجاب في السن . حفزه على أن يصحب الفهد معه في بعض مغامراته الخاطفة . في أواخر الستينات . وهكذا تدرب مدرس الجواسيس على المراقبة والتتبع في ظروف

بالغة الصعوبة ، وتعلم كيف يقترب بخفة من هدفه ثم يضم قبضته عليه ويسرع به الى « العش » وكان العمل الملائم له . بعد هذا الكم الهائل من المعرفة بأسرار المهنة ، هو مقاومة الجواسيس ، وقد نجح الفهد في هذا المضمار نجاحا باهرا .

وعندما كانت الأمور تتخذ مسارا معقدا ، أثناء العمليات التى يكلف بها الفهد ، كان يلجأ الى معلمه القديم ، وكان السنجاب منبعا مخلصا للحكمة . وكان الوحيد من بين ضباط المخابرات ، الذى يكشف له الفهد عن أسرار العمليات أثناء حدوثها ، وأن كان حرصه الغريزى على الأمن ، يدفعه في معظم الأحيان ، الى ابهام بعض الجوانب . أو كتمان الأسماء . وكان السنجاب يضحك من أعماقه برضا .

أخس السنجاب بخطورة الموقف ولكنه كان هادئا ، ولاحظ رؤسوه أنه كان دائب الاستفسار عن البرقيات الواردة ، كما طلب ان تعرض عليه تقارير الاستماع حتى قبل أن تعرض على الرئاسات المختصة . وكان يعرف أن أعمال المخابرات عندما تتعرض للضوء ، وتفقد سريتها ، تصبح حربا سافرة تستخدم فيها كل الأسلحة .

ورغم ان حرارة الموقف انخفضت بحدة مساء الأربعاء الرابع والعشرين من يونيو . عندما تكشف في الأفق نذر تنبىء بنشاط معاد . الا أن السنجاب ظل على قلقه . وفي صباح اليوم التالى ، اقترح على المشير احمد اسماعيل ، ان تتحرك وحدة بحرية مسلحة ، بأقصى سرعة ، لتكون على مقربة من مسرح العملية الذى يبعد عن القاهرة بأكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر .

وبالفعل تمكن مدير المخابرات من اقناع السلاح البحرى . بأن يأمر احدى وحداته المقاتلة ، بأن تتجه الى جنوب البحر الأحمر . وأن يزعم قبطانها ان خلاا أصابها ، لكى يتمكن من البقاء في ميناء الحديدية .

وكان اقناع رجال البحر صعباً . وكانت الصعوبة ناجمة عن ان المخابرات لم تقدم أى مبرر لهذا المطلب الذى حاولوا عبثاً أن يعرفوا دوافعه .

وفي صنعاء . كانت متاعب جديدة تطفو على السطح . فقد نقد صبر وزير الداخلية اليمنى . وكان حائقاً لأن النبأ أذيع من القاهرة . فضلاً عن أن الفهد لم يفصح عن نتيجة فحصه للقضية . وعبثاً حاول ضابط المخابرات المصرى . أن يقنع اصرار الوزير . بأن اذاعة النبأ من راديو القاهرة . كانت خطأ أمكن تجاوزه . أذ أصر الوزير على أن يتم ابلاغه رسمياً بالنتائج التى توصل اليها الفهد . قبل مساء نفس اليوم .

وازاء اصرار الوزير اليمنى . اضطر الفهد الى اجراء بالغ الاثارة . فقد اقترح على الوزير أن يستمع الى جلسة استجواب يجريها مع المتهم . ليتأكد بنفسه أن المتهم قد أعترف بالتجسس . وان عملية استجوابه ستستغرق وقتاً طويلاً لاستخلاص كل التفاصيل . وبعد ان وافق الوزير على الاقتراح . تولى الفهد بنفسه تركيب جهاز لنقل المحادثات الى غرفة مجاورة . فى المبنى الأمن الذى نقل اليه المتهم . وكانت هذه أول مرة . ليسمح فيها جهاز للمخابرات . لشخص من خارج الجهاز . بأن يتصنت عليه .

وبعد أن استمع الوزير الى جلسة استجواب قصيرة . مساء الخميس . اقتنع بأن يتيح لضابط المخابرات المصرى . فرصة أوسع . حتى يتمكن من الوصول الى كل التفاصيل . ولكنه حذر من أنه سوف يضطر . مهما كانت الظروف . الى السماح للمتهم بأن يوكل محامياً للدفاع عنه . مع تقديره الكامل . لأن هذا الاجراء . سوف يحطم حجب السرية التى تحيط بالقضية كلها .

كان المقرر الجديد الذى أختير لأقامة المتهم . وضابط المخابرات المصرى . أكثر رفاهية من غرف التحفظ فى مبنى الأمن الداخلى . وكانت

هذه أول ثمرة من ثمار تعاونه مع المحقق المصرى الذى وعد بأن يقدم المساعدة . وفي نفس الوقت . تصور أن قصته قد لقيت التصديق وكلا الرجلين . يعرفان أن هذه القصة المتقنة . ليست سوى نسج خيال محض .

وضع هذه الظروف كلها . أضرط الفهد الى أن يختصر الطريق . وبدلاً من أن يترك المتهم ليجتر قصته الكاذبة . حتى سأم من ترديدها . زاره صباح الجمعة . وبمجرد أن دخل الى غرفته هتف .

– يبدو أنك تفضل اثارة المتاعب :

– كيف ؟

– لقد اتفقنا على الصراحة . أليس كذلك ؟

– نعم ... أنا لم أكذب .

– حسناً . سأقول لك . أن لى أصدقاء في نيروبي . وقد أخطرونى

الآن بأن ريتشارد هذا ليس سوى شبح .

– آه ... انت تعرف .. انهم ينتحلون أسماء كثيرة .

– هل تعتقد أن الأسماء تعيننى كثيراً .

– لا .. أقصد ... ربما حدث خطأ .

– الخطأ الوحيد أنك لا تقدر الموقف تقديراً دقيقاً .

– أقسم ... أقسم أنني أقول الصدق .

– أذن دعنى أحدثك بصراحة أكثر ... لقد أرسل اليمينون يطلبون

مشورتنا . لهذا جئت الى هنا .. هل فهمت ما أعنيه .

– نعم ... أفهمك تماماً .

– أنهم يتعجلون الأمور . وسوف أنفض يدي من المسألة . وهم أقدر

على اتخاذ القرار . ان القضية تخصهم .. وحدهم ..

- هل سأسجن ايها السيد .
- تسجن .. أنت لا تعرف اليمينين جيداً .
- ولكنك وعدت أن تساعدني ياسيدى .
- اذا قلت الحقيقة .
- حسناً .. أن ريتشارد ليس ...
- كف عن المراوغة . لنبدأ من المغرب .
- المغرب ؟
- نعم ... أنت لست مغربياً .
- أنهار المتهم وأرخصى يديه وبدأ كأنه استسلم . ولكن عقله كان يعمل بسرعة . كان يدرك أنه أمام ضابط مخبرات محترف . يسدد الضربة في اللحظة المناسبة .
- ولكنه كان ذكياً هو الآخر . لذلك قرر أن يتراجع خطوة أخرى .
- معك حق أيها السيد اننى اسرائيلى .
- آه ... هذا لا يضيف جديداً استمر .
- وقد تصيدنى هذا الأمريكى ...
- لا ... لا ... يجب أن تنسى قصة الأمريكى تماماً .
- لقد قال أنه أمريكى .
- استمع الى .. هذا ليس أسلوب الامريكيين .
- هل تعنى أنه يكذب .
- بالضبط . كما تكذب أنت الآن . هل قلبك أنك اسرائيلى .
- أسمك ؟
- يوسف يعقوب سالم .
- ماذا قلت ؟
- يوسف يعقوب سالم . كنت أقيم في مصر وهاجرت الى اسرائيل .

- هذا يفسر اتقانك اللغة ، أين كنت تقيم في مصر .
- ٢ شارع ذهني بالظاهر .
- متى هاجرت ؟
- ١٩٥٧ .
- والتاريخ ؟
- ٦ فبراير .
- بعد ذلك جئت الى نيروبي . بقصد التجارة . والتقيت
بريتشارد .
- هذا فصل كوميدى من فصول الرواية .
- ماذا تعنى .
- أعنى أن الأمريكين لم يجدوا في هذا الكون سوى أحد
الاسرائيليين ليتجسس على دولة عربية . ان ذلك يشبه ايفاد فأر سمين
لكى يتجسس على القطط .
- وما ذنبى اذا كان هو يقول انه أمريكى . لعله من الكى جى بى
و...
- نطق الاسرائيلى بالحروف الثلاثة ثم توقف فجأة . وأدرك أنه سقط
سقطه لا يمكن التجاوز عنها . وكان أمله الوحيد أن يكون محدثه قد
غفل عن الفخ الذى قاد نفسه اليه دون أن يدري .
- الكى جى بى ؟
- نعم أقصد أى جهاز ، الأجهزة كثيرة .
- أعرف .. ولكن ليس في الدنيا جهاز يستخدم اسرائيلى ويوفده الى
دولة عربية . هناك جهاز واحد . واحد فقط .
- ماذا تقصد ؟
- أقصد « الموباد » ؟

ارتعشت عينا المتهم وبيت العرق لا معا على جبهته . فكلمة «الموساد» تعنى المخابرات العامة الاسرائيلية . وبعد ان ساد الصمت لحظات ، كان كل منهما يتأمل الآخر خلالها . عاد الاسرائيلي الى الحديث بصوت مبجوح .

- اذن يجب أن أصدقك القول .

- قلت لك ذلك منذ البداية .

- لقد كدت اتصور جوعا ، أنت تعرف ظروف يهود الشرق . وانتقلت من عمل وضع الى عمل وضع آخر . حياة الكيبوتزات لا تطاق أيها السيد ، لذلك قبلت أن أعمل لحساب « الموساد » .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا عندما انتهى الاسرائيلي من سرد تفاصيل قصته الجديدة . وكان الارهاق قد تمكن من الرجلين الى حد مفرع . كانت عيونهما مفتوحة على اتساعها . وعقلاهما يعملان بأقصى طاقة لدى كل منهما ، ولكنها كانا يعانيان أثر الجلسة الطويلة . والكد الذهني لمدة ثمانية عشرة ساعة متصلة .

وتلخصت أقوال المتهم في انه هاجر من مصر الى اسبانيا . ثم رحل الى اسرائيل . وهناك استوطن واحدة من المستوطنات الاسرائيلية في صحراء النقب . الا انه ضاق ذرعا بالحياة الخشنة . فصحب زوجته وولديه وقصد تل أبيب . حيث عمل في مخزن للبضائع . ثم التحق بالعمل كمُرشد للمتفرجين في دار للسينما . وعملت زوجته وتدعى مارجريت ليفي كمدرسة في مدرسة للأطفال .

واثناء عمله في دار السينما . عرض عليه أحد أصدقائه أن يعمل في الشرطة السرية . لقاء أجر محترم . فقبل على الفور . والتحق بخدمة الشرطة السرية الاسرائيلية . فيما يعرف هناك باسم « المادورا المركزية »

ومقرها المبني رقم ٤ بشارع ديز نجوف في تل أبيب . ثم انتقل بعد ذلك الى خدمة المخابرات .

وفيما يتعلق بالتدريب . اعترف المتهم بأنه درب على المراقبة . في بروكسل . حيث أوفد الى هناك تحت ساتر أنه تاجر . كذلك درب على التراسل السرى . وحل الشفرة . واستخدام وسائل الاخفاء . واكتشاف المراقبة والافلات منها . وبعد ذلك قام بجولة في أوروبا وافريقيا لا ستكمال بناء الساتر الذى تقرر أن يتخذه في المستقبل .

أما جواز السفر المغربى . فقد روى أنه حصل عليه من الموساد . قبل أن يسافر الى المغرب لأول مرة . لكى يتقن اللهجة المغربية . وليتعرف على المدن والشخصيات التى سوف يدعم بها قصته . لكنه لم يستخدم هذا الجواز أبدا . في الموائى المغربية . وكانت المغرب هى البلد الوحيد التى دخل اليها بجواز سفر مزور آخر . بوصفه من رعايا كينيا .

ولم يخف المتهم شيئا من نوآياه . وخططه . التى كانت وراء رحلته الى الجديدة . اذ اعترف بأن المخابرات الاسرائيلية . كلفته بجمع معلومات عن الميناء . ثم التقاط الصور التى أدت الى سقوطه ولكن أهم ماجاء في اعترافه . انه جمع معلومات عظيمة النفع عن مقر منظمة التحرير الفلسطينية في صنعاء . و اضاف : انه رسم للمخابرات الاسرائيلية في تل ابيب « كروكى » لمقر المنظمة . كما مكنته المراقبة من التعرف على نظم حراسته . ومواعيد تغيير الحرس . واجراءات الأمن عند الدخول .

كانت هذه واحدة من النقاط الهامة للغاية . في اعترافات هذا الجاسوس الاسرائيلى . الذى يعد من أكثر الجواسيس قدرة على الخداع والمائلة . لأن أحدا لم يكن قد اكتشف بعد انه تجسس على منظمة

التحرير . كما ان المعلومات التى جمعها . كانت قد ارسلت منذ بعض الوقت . قبل القبض عليه . الى صندوق بريد . في نيروبي . ولا شك أن ضابط المخابرات المصرى . قد سعد سعادة بالغة بهذا الاعتراف الاختيارى .

ومع ان القصة هذه المرة . كانت تتسق مع المنطق . ومع مالى جهاز المخابرات المصرى من معلومات عن جهاز المخابرات الاسرائيلي . الا ان الفهد كان متحفظا أشد التحفظ حيال القصة الجديدة . وظل يستخدم في نداء المتهم اسم « احمد » ولم يلتفت الى الاسم الجديد . يوسف يعقوب سالم .

كانت حاسته السادسة . التى صقلتها التجارب . تشير بعنف الى أن شيئا غامضا يحملق من خلال شخصية المتهم . وكانت روايته عن تدريبه في « بروكسل » نقطة ضعف خطيرة في هذا الاعتراف . لأن المجندين العاديين لا يدربون في بلاد بعيدة الا اذا كان الحرص عليهم يفوق كل تصور . فاذا اضعنا الى هذه النقطة . سقطت المتهم عندما نطق بالثلاثة الحروف التى تعنى المخابرات الروسية . فان الغموض يزداد حدة .

ان الجواسيس العاديين . والمجندين الجدد . وجماعات الهواة . لا يملكون القدرة على تصور المدى الذى تذهب اليه انشطة المخابرات . الى حد أن الأمريكى يمكن أن يكون روسيا فضلا عن أن المحترفين فقط . هم الذين يستخدمون الرموز المتعارف عليها عند الحديث عن اجهزة المخابرات . كما ان ثمة طريقة ما . تميز أحاديث المحترفين . حتى لو كانت هذه الأحاديث . تتردد عبر مسجلات الصوت .

- وحتى اذا كان هذا الاعتراف صادقا . بافتراض المستحيل . فانه يعد قرينة ضد المتهم وليس كسبا ان يضاف الى صالحه . اذ يكون قد اتبع

اسلوبا راقيا من اساليب مواجهة الاستجواب فحاول بداية ان ينكر التهمة كلها . ثم تراجع خطوة واحدة محسوبة . عندما كشف ان احد المصريين قد جاء الى المسرح . فاعترف بالتجسس . ولكنه أخفى شخصيته ومعها جهاز المخابرات الذى اوفده . وبعد ذلك ادعى انه لا يعرف على وجه التحديد جنسية جهازه . مع كشف هويته هو . وفي النهاية جاء اعترافه عن نشاطه ضد منظمة التحرير الفلسطينية . بمثابة دليل ذكى اراد ان يبرهن به على صدق روايته الاخيرة .

ورغم الشعور بالاجهاد . وعلامات الاعياء التى ظهرت بوضوح على ملامح الاسرائيلى . كان عليه ان يجيب على عدة اسئلة . استغرق توجيهها والاجابة عليها ساعة ونصف ساعة . وكانت كلها تدور حول تفاصيل دقيقة للغاية . اسم صديقه الذى ضمه الى خدمة « المادورا » . واسم ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى تولى تجنيده . ثم اسماء كل الضباط الاسرائيليين الذين التقوا به اثناء تدريبه وتشغيله . وعنوان مقر منظمة المخابرات الاسرائيلية في تل ابيب وتاريخ سفره الى بروكسل . وعنوان مقر المنظمة الاسرائيلية هناك . وتاريخ ارسال معلوماته عن منظمة التحرير الفلسطينية . والغريب ان كل الاجوبة كانت صادقة . وفق معلومات المصريين المؤكده .

ولأول مرة سمحت السلطات اليمنية . المثلة في ثلاثة من أفراد الحراسة . وبناء على طلب « الفهد » . للتمهم الاسرائيلى بان ينام كما يشاء . واختفت بدرجة ما . علامات الحق التى كانت تطالعه في أعين اليمنيين الذين يقع بصرهم عليه . وعندما استيقظ من نومه بعد الظهر وجد وجبة طعام شهية في انتظاره فأكل ثم استغرق في النوم .

وبينما كان الاسرائيلى نائما . كانت البرقيات تتوالى بين سفارة مصر في صنعاء . وبين القاهرة ففى الفجر . تمكن الفهد من ايقاظ صديقه

الدبلوماسى . لكى يرسل برقية طويلة . وكان يطلب في هذه البرقية ، التحقق من شخصية من يدعى يوسف يعقوب سالم . الذى كان مقيما في حى الظاهر حتى سنة ١٩٥٧ . بارسال كل البيانات المتاحة عنه الى ضنعاء ، وتكليف الادارة الافريقية في جهاز المخابرات المصرى ، بمحاولة استعادة أية مظاريف يعثر عليها في صندوق البريد المؤجر باسم أحمد صابر في نيروبى . على أن يتم هذا الأجراء ، خلال ثمان واربعين ساعة ، وعلى الا يتكرر بعد ذلك أبداً .

كانت العبارة الأخيرة ذات أهمية فائقة . اذ أن محاولة استعادة المعلومات الخاصة بمقر منظمة التحرير الفلسطينية ، سواء انتهت بالنجاح أو الفشل . كانت آخر اقتحام لصندوق البريد المقصود . بعد ذلك . كان « الفهد » يكلف الاسرائيلى المحتجز . بأن يكتب رسائل مضللة ، ويرسلها الى نيروبى ، حتى يظل جهاز المخابرات الاسرائيلى ، مطمئنا الى أن رجله في اليمن يعمل دون أن يضايقه أحد .

وفي القاهرة . صدرت الأوامر على الفور . الى وحدة نشطة من وحدات « التحريات » . بجمع كل شذرة من المعلومات ، عن يوسف يعقوب سالم . وقام رجال هذه الوحدة . باستجواب غير مباشر . لسكان المنزل رقم ٢ في شارع ذهنى . وحظى السكان القدامى وكبار السن بقسط وافر من الاسئلة . وكذلك ثم استجواب عديد من المواطنين في كل المنطقة . بوابين وباعة سجائر وصاحبة محل للتنظيف وامرأة يهودية مسنة قيل أنها كانت على علاقة غرامية باليهودى المهاجر منذ عشرين سنة .

وفي نفس الوقت . أرسلت برقية الى ضابط مخابرات مصرى . كان في زيارة سريعة للحبشة بأن يطير بأقصى سرعة الى نيروبى . وان يجد الوسيلة المناسبة لفتح صندوق البريد . واستخراج ما يعثر عليه من

رسائل • ليعيد ارسالها الى القاهرة ، ولم تكن المخابرات المصرية . في حاجة الى التنبيه على رجلها . بأن يتم العملية في هدوء ودون أن يترك وراءه أى أثر . لان بصمات الأصابع . في مثل هذه الحالات . تتم ازلتها بقدر كبير من الدراية والحدق .

وعند الظهر ، قدمت مقاومة الجاسوسية . تقريراً شفوياً بالنتائج التى توصل اليها « الفهد » : الى المشير أحمد اسماعيل . الذى استفسر عما اذا كان الاسرائيليون قد التقطوا الاذاعة التى بثتها محطة ركن السودان . وقد أجيب بأن كل الدلائل تشير الى أن النبأ قد مر بسلام . دون أن يلفت انتباه أحد . وعندئذ . أبدى المشير استيائه لأن « السنجاب » اقترح عليه ايفاد وحدة بحرية مسلحة الى الحديدة دون وجود مبرر قوى . وقد عبر عن استيائه بأن سأل عما اذا كان ضباط مقاومة الجاسوسية . يقدرّون حجم النفقات التى تستلزمها مثل هذه الرحلة .

وفي تمام الساعة الثالثة بعد ظهر السبت . السابع والعشرين من يونيو . استدعى السنجاب لمقابلة المدير . وكان ضابط المخابرات المحنك هادئاً . وهو يستمع الى النقد الذى وجهه رئيسه الى اقتراحه الذى وجد - للأسف - أذناً صاغية . وقد ثبت نظارته فوق عينه ثم طلب من رئيسه أن يستبقى الوحدة البحرية في الحديدة . لأننا قد نحتاج اليها .

ومن الأمور التى تبعث على الدهشة . في قصتنا هذه . ان جهاز المخابرات الاسرائيلى لم يلتقط النبأ من اذاعة ركن السودان . وأعتقد أن السبب يكمن في أن الاذاعة كانت في الصباح الباكر . وربما كان المختص بمتابعة هذه الاذاعة قد أرهقه السهر . فأغض عينيه لبعض الوقت . وعلى أية حال . فلم يسبق في التاريخ . أن كلف أهمل جهاز للمخابرات . مثل التكاليف الباهظة التى دفعها جهاز المخابرات الاسرائيلى . بل

واسرائيل كلها . بسبب اغفال نبأ استغرقت اذاعته اثنى عشر ثانية بالضبط .

وفي مساء يوم الأحد . اخطرت المخابرات المصرية . رجلها في صنعاء . نتيجة نشاطها في نيروبي والقاهرة . واتضح ان صندوق البريد وجد خلوا من أية رسائل . أما المعلومات الخاصة بيوسف يعقوب سالم . فكانت مثيرة للسخرية . اذا اتضح أنه لم يكن متزوجاً . كما أنه لم يهاجر الى اسرائيل بل بقي في مدريد .

وهكذا وجد « الفهد » نفسه من جديد وسط متاهة من الأكاذيب

« الفصل الرابع »

أين مراجعة الأمن

كان صباح الاثنين ، التاسع والعشرين من يونيو . ينبىء يوم خانق الحرارة والجو مترب لا يبشر بالخير . وكانت المعلومات التى جاءت من جهاز المخابرات المصرى فى القاهرة . والتى أكدت ان الأسرائيلى السجين مازال يجتر مزيدا من الأكاذيب . فيما يتعلق بشخصيته . كانت هذه المعلومات وحالة الطقس كفيلا بأن تثير الحنق وتدفع الى اليأس .

ورغم ذلك . استمر ضابط المخابرات المصرى . الذى كان يتصبب عرقا فى تنفيذ المخطط الذى رسمه منذ البداية . لكى يصل الى الحقيقة . بأسرع الوسائل الممكنة . وكان هذا المخطط . وليد افكاره هو . بعد ان درس الحالة دراسة ميدانية . وطبقا للعرف السائد فى منظمات المخابرات لم يعرض هذا المخطط على أى رئاسة أعلى . ولو لمجرد الموافقة عليه !!

وعندما التقى الرجلان من جديد . فى تمام العاشرة من صباح هذا اليوم الاثنين . كان الفهد يرتدى قميصا مفتوحا يتهدل فوق بنطلون

داكن . وقد وضع في قدميه . حذاء من الكاوتشوك . وكانت هيئته تنم
عن ان الإقامة في اليمن قد راقّت في عينيه . ولم يشعر الإسرائيلي مطلقا .
بأن الاوراق التى لعب بها جولاته الاخيرة . قد أصبحت مقروءة تماما
لغريمة الذى يتسم بضفة دائمة !!

وفي اول اللقاء . سأل الفهد عما اذا كان الاسرائيلى قد نام نوما عميقا
وتلقى اجابة خافتة تعنى ان الاسرائيلى لم يعد يبالى . وبأدب جم .
طلب منه الفهد ان يكتب اول رسالة . منذ ان سقط ليتولى بنفسه
ارسالها الى صندوق البريد في نيروبي . حتى تطمئن منظمة المخابرات
الاسرائيلية الى ان رجلها مازال يمارس هوايته في ميناء الحديد :

كانت الاوراق التى وضعت تحت أنف السجين ليكتب عليها رسالته .
من النوع الذى يباع في مكتبات صنعاء . وقد نزع الفهد غلاف مظروف
كان يضم هذه الاوراق . وأمره ان يتناولها من داخل المظروف
بأصابعه . وأدرك الاسرائيلى . ان غريمة ليس سهلا . فقد فهم بوضوح .
ان الفهد لا يرغب في ان تظهر على الرسالة . بصمات أصابعه !!

وتركت للسجين الحرية الكاملة في اختيار طريقة الكتابة . ولون
الحبر . واسلوب تركيب الجمل . وشكل التوقيع . ولكن الفهد كان
يرقب الحروف وهى تنساب على الورق . بعينين أشبه بعينى بومة
ترقب سربا من العصافير وهى تنفلت تحت بصرها من العش !!

كان الاسرائيلى يستجمع كل ما لديه من قدرة على التقمص . وقد
وضع على ملامحه قناعا من الشعور بالذلة . وكان هذا الشعور يتزايد
بدرجة ملحوظة مع كل كلمة يخطها بيده على السطور . فمن الطبيعى
ان يكتسى الانسان بالذل وهو يخدع منظمة بأمر من عدوه . وفي
النهاية . بلغت المأساة ذروتها عندما مد يده بالرسالة . ولكن الفهد ظل
جامدا كأنه تمثال منحوت من الجرانيت !

- مازلت تراوغ !!!
- هكذا نطق تمثال الجرائيت في مواجهة الاسرائيلي الذي انقلبت مذلته الى دهشة عارمة .
- مشكلتي أنك لن تثق في ميهما فعلت ... ايها السيد .
- يبدو أنك تعرف كل القواعد .
- أية قواعد ؟ ! أنا اعرف فقط أنك لن تصدقني ... ابداً .
- اذن ... أين مراجعة الأمن ؟ !

نطق الفهد بالسؤال الاخير وهو يتأمل اليد الممدودة امامه ، بينما رعشة مباغتة تسرى في جسد السجين وتصل الى اصابعه ، ولم يكن الضابط المصري في حاجة الى أى دليل آخر . على ان الثعلب القايح في مواجهته ، والذي يتقن لعبة الدهاء ، قد بدأ يلفظ انفاضة الاخيرة . تماما كالفريسة التى تستमित لتتخلص من الفخ ، الى ان تخمد حركتها تماما .

ان مراجعة الامن ، في لغة المخابرات ، تعنى عملية معقدة تستهدف اخطار مستقبل الرسالة . بأن المرسل يكتب في ظروف عادية . أو بمعنى اوضح هى شفرة سرية ، داخل الرسالة السرية . مضمونها دائما اننى لا أكتب تحت بصر العدو !!

وفي معظم الاحيان . تكون مراجعة الامن ، دقيقة بشكل لا يلفت النظر المجرد . كأن تقفل وضع نقطة فوق حرف من حروف الهجاء . في الكلمة الثالثة في السطر الاخير . او الكلمة الثانية من السطر الاوسط . وكأن تكتب التاريخ دون وضع فواصل أفقية بين اليوم والشهر والسنة . أما في الرسائل اللاسلكية . فان مراجعة الامن . تكون اجراء معقدا ايا تعقيد . كأن تطرح تاريخ ميلادك من تاريخ يوم الارسال . ثم تضيف

للناتج رقما متفقا عليه ، ثم تكتب المجموع في ذيل الرسالة . فاذا اختلفت الارقام . أو جاءت الرسالة خالية من مراجعة الامن . أدرك ضابط المخابرات المختص على الفور . أن رجله في خطر !!
كان الاسرائيلي يعرف هذه التفاصيل كلها . وقد طوى رسالته وأحنى رأسه بينما مد المصرى ساقيه واسترخى في مقعده كأن يقضى أجازة على الشاطئ .

الآن جاء دورك لكى تنصت .
نطق الفهد بهذه العبارة وهو يتأمل عدوه بامعان . بعد ذلك أرخى جفنيه واستطرد :

إذا كنت اطلب منك الصدق فلا بد أن اصدقك القول . لقد خسرت . صدقتى ليس معنى هذا أنك لم تقاتل بمهارة . ولكن المشكلة انك اعطيتنى خيطا دقيقا ليقودنى اليك . ولم يعد امامى سوى اجراء واحد . تنتهى بعده قصتك كلها !!

كان الاسرائيلي ينصت ووجهه يعبر عن الكارثة التى توقعها . فقد كان يعرف اكثر من غيره . انه يعيش اللحظة الحاسمة في دنيا المخابرات . اللحظة التى يتمكن فيها الصياد من الفريسة ويبدأ في ممارسة دور المعلم . مع توجيه النصائح المناسبة . من مركز القوة !!
لم يبق امامى . سوى ان التقط لك صورة وأبعث بها الى القاهرة .

لماذا القاهرة ؟ !

أنت الذى وضعت أصبعى عليها . اتنا لا نقول كثيرا على الاسماء . والملاح . وجوزات السفر الزرورة . أظن انك توافقنى . لقد قلت في البداية انك مغربى . ثم زعمت انك اسرائيلي . ولكن يوسف يعقوب

سالم ، كان مؤشرا سخيفا على الخريطة . لان البحث سوف يبدأ من حى
الظاهر . وبالقرب من بيتك أنت
- ولماذا الصور ؟ ! أعترف أنى خسرت .
- اذن . سأمنحك فرصة ، ...
- انتى أ ...
- الفرصة الاخيرة ! !
- اسمى باروخ زكى مزراحى ! !

بعد أحمد الصبان ، ويوسف يعقوب سالم . ظهر هذا الاسم الثلاثى
ولكنه كان صادقا . وكانت القصة التى رواها الاسرائيلى . هذه المرة .
مقنعة بقدر ما هى مثيرة ، اذ اتضح انه يهودى مصرى ، ولد فى القاهرة
وعاش فى المنزل رقم ٨ بشارع خليل الطوباب . الذى يقع فى حى
الظاهر !! واتضح ايضا أن باروخ . حصل على بكالوريوس فى العلوم
التجارية . من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٨ وكان ينوى البقاء بمصر بمنأى
عن المتاعب التى كانت تواجهها اسرائيل . ابان الحرب التى يطلق
عليها الاسرائيليون الرسميون اسم حرب الاستقلال . وقد التحق بوظيفة
مدرس . فى مدرسة الاقباط الثانوية الكائنة حتى الآن فى حى شبرا
المزدهم بالسكان .

ان أشياء صغيرة فى هذا العالم . تترك أثارا بعيدة المدى فى مستقبل
الانسان . وأحيانا فى مستقبل شعب بأكمله . وهذا هو ما حدث
بالضبط . عندما البقى مدرس مدرسة الاقباط الشاب بمدرسة يهودية
بارعة الحسن . تدعى فورتينيه مدينه . وكانت « فورتينيه » رائعة
الشفقين ذات شعر أشقر وعينين توقدان فى النفس آلافا من ألسنة اللهب
العاتية . وفى لحظة خاطفة . تحول باروخ الى أسير ربطه الحب بقيد من
الصلب .

وتسببت «فورتينية» . التى جمعت بين الجمال والشقاوة والطموح .
فى نزوح اسرتها . ومعها أسرة خبيثا . الى أرض الميعاد . وتولى هو اقناع
شقيقته «ايفيت» .. وأمه «روجينا» بالرحيل الى اسرائيل . وصحبت
«فورتينية» شقيقتها معها فيكتورين واليجرا . ولتخذوا جميعا طريقهم
الى هناك .

كانت آمال باروخ لا يحدها حد . وهو يعبر البحر المتوسط الى
أثينا . أقرب مرفأ الى تل أبيب وكان يدغدغ مشاعره . ذلك الشعور
بالفروسية . الذى يتولد عندما يضخى الانسان باستقراره ومسقط رأسه .
فى سبيل فكرة تتطلب منه ركوب المشاق . ومن اجل امرأة فتنته فلم
يستطع منها فكاكا ولكنه عندما وصل الى اسرائيل . تلقى صدمة عمره .

ففى اسرائيل اكتشف باروخ . أن الجمال الاخاذ . يخفى احيانا نفسا
لئيمة لا تقيم وزنا للعواطف اذ صادفت فورتينية رجل اعمال اسرائيلى
ثرى يكبرها بثلاثين عاما . فأقامت معه علاقة جنسية محمومة وهجرت
باروخ الذى هاجر معها ومن اجلها . ثم ما لبثت ان تزوجت من
عشيقها . وليس لدينا أدنى شك . فى أن هذه الصدمة هزت كيان باروخ
بقسوة . وان كانت اعترافاته . التى كتبها بخط يده توضح انه مر مرورا
سريعا على هذه الحادثة . وقد برز أثر الصدمة فى زواجه من «مارجريت
ليقى» . التى التقى بها فى تل أبيب . وهى من اصل مصرى هى
الآخرى . وكانت تعمل فى سن المراهقة عاملة بيع فى محل العروسة
الصغيرة . الذى يقع فى شارع طلعت حرب فهذه الزوجة . التى تعجل فى
الارتباط بها . والتى انجبت له ولدين . كما كانت حاملا عندما وقع فى
الاسر . امرأة دميعة بارزة العظام أشبه بالشيطان !!

أما فيما يتعلق بالعمل . فقد اعترف باروخ أنه التحق . بمجرد
وصوله الى اسرائيل بالشرطة الاسرائيلية فى «رامات جان» . ثم نقل الى

الشرطة السرية سنة ١٩٦٥ وقضى ثلاث سنوات استدعى بعدها الى مكتب « ابراهامى » . وهو مكتب للمخابرات الاسرائيلية في شارع اللبنى في تل ابيب . ثم نقل الى منظمة مقاومة الجاسوسية « شين بيت » وفي أواخر ١٩٦٨ نقل الى المخابرات العامة « الموساد » ولانه سبق أن اعترف بحصوله على بكالوريوس العلوم التجارية . من جامعة القاهرة لم يكن من اللائق أن ينكر ، أنه ضابط في صلب تنظيم المخابرات الاسرائيلية فضلا عن أن نوعية الوظائف التي شغلها . توضح انه اعد اعدادا منطقيا اذ درس اثناء خدمة الشرطة . أنماط وعادات الاجناس البشرية المتعددة التي تعج بها اسرائيل . ثم تعلم في « الشين بيت » كيف يسقط الجواسيس . لكي يتحول في النهاية . الى جاسوس بارز ومحترف في منظمة الموساد !!

ومن المؤكد . أن هذا التدرج والتنوع . في اعداده للتجنس . أو لرئاسة مجموعة من الجواسيس قد أدى الى كفاءة كل عوامل النجاح . لعملية زرعه في الدول العربية . كتاجر مغربي . وقد برر سبب اختيار « غطاء » التجارة في مهمته . بأن المخابرات الاسرائيلية . استوعبت جيدا درس « ايلي كوهين » . وهو الجاسوس الاسرائيلي الشهير . الذي زرع بنجاح في سوريا أبان حكم أمين الحافظ . والذي افتضح أمره اثناء مراجعة روتينيه لصور اليهود الذين هاجروا من مصر لذلك كان بمقدور « باروخ » أن يمارس التجارة ، وأن يبتعد عن نشر صورهِ علنا .

ومع هذا الكم من المعلومات . تكشف ايضا حقيقة مهمته في اليمن . اذ اعترف بأنه جاء الى اليمن . ليلتقط صور ميناء الحديدة . وفي نفس الوقت . لتكون هذه الرحلة نقطة وثوب الى بلاد العالم العربي . باستثناء مصر والمغرب . مصر لانها تحتفظ بصور اليهود الذين يهاجرون منها والمغرب لان جواز سفرهِ منسوب الى حكومته .

وبالإضافة الى الصور والتأهب للوثوب الى العالم العربى . كان عليه أن يتعرف على قناصل الدول في المنطقة . وأن يحاول « تجنيد » من يراه صالحا . بشرط ألا يكشف عن هويته بهدف الحصول على جوازات سفر عربية . لتتمكن المخابرات الاسرائيلية . من استخدامها في دفع عملاء جدد . وأثناء شرح جهوده في هذه النقطة . قال باروخ انه نجح في الحصول على جواز سفر واحد . من احد الدبلوماسين الذى كان سفيراً لليمن في اثيوبيا . لقاء صندوق من زجاجات الوسكى . وأنه أرسل هذا الجواز الى اسرائيل .

وأبدى ضابط « المّوساد » الحاذق . أسفه العميق . لانه سقط ولأن سقوطه كان على أيدي اليمنيين . الذين وصفهم رؤساؤه له في تل أبيب بالتخلف والجهل وعدم الدراية بأعمال المخابرات وكان جزينا لانه تسرع بعرض رشوة ضخمة . على جندي الحراسة الذى قبض عليه . وبرر هذه البسطة التى ما كان يجب أن يقع فيها . بأن معلوماته عن اليمنيين أنهم قوم غلاظ القلوب قساة لا تأخذهم الرحمة . وخشى أن يقتاده الجندي الى « الامن الوطنى » وكانت هذه الرشوة . هى السبب في ارتياب السلطات اليمنية في حقيقة شخصيته .

استغرقت الاعترافات الجديدة . حوالى أربع وستين ساعة . أو أربعة أيام . بمعدل ستة عشر ساعة يوميا . من العاشرة الى الثانية من صباح اليوم التالى . وقد أفاض باروخ في سرد وقائق قصته منذ أن ولد . ولان تفاصيل حياته الشخصية لا تهم القارىء في شىء . عمدت الى اغفال ذكرها .

من الامور الموثوق بها تماما . أن الفهد أتخذ قرارا بنقل « باروخ » الى القاهرة . بمجرد أن اعترف بأنه كان ضابطا في المخابرات

الاسرائيلية ، ولكنه قرر في نفس الوقت ، أن يستخلص منه كل ما يمكن استخلاصه من معلومات ، تحوطا لأية ظروف قد تمنعه من نقله .

وكانت هذه واحدة من المرات النادرة في التاريخ ، التي وجد فيها أحد المحترفين ، ضابطا محترفا من الجانب الآخر في قبضته ، ولأن علم المخابرات يعتمد بالدرجة الاولى على الخبرة والتجربة فان التجارب الفريدة تستلزم قدرا كافيا من الابتكار ، والقدرة على التصرف . لادارة مباراة هدفها الاول والاساسي ، اقتناص معلومات موثوق بها ، دون أن تتعرض للاضرار التي تنجم في الاحوال العادية عن وسائل النقل .

وقد استمرت عملية استجواب باروخ . طوال الاسبوع الاول من يوليو . وفي نفس الوقت الذي اتسمت فيه هذه العملية بالسهولة . وكانت مفرطة في الصعوبة والتعقيد . وكان مرد السهولة الى أن كلا من الرجلين ، كان يعرف أنه يتحدث الى زميل من زملاء المهنة . مما أدى الى اخفاء الاعيب الهواة ومحاولات الخداع الساذجة . أما اخفاء الجوانب الحيوية ، والتي تهدد مصائر شعب بأسره . فكانت تتطلب جهدا مضنيا حتى لا يطفوا أبدا سر قاتل على السطح .

وعلى هذا الاساس . كان على باروخ أن يجيب . وبلا أى ابطاء . على طوفان من الاسئلة التي وجهها اليه الفهد . وكان عليه أيضا ، أن يضمن اجوبته . كل الجزئيات التي يعرف هو أنها ضرورية وأنه سيسأل عنها اذا تجاهلها . مما قد يعد في نظر الفهد . مضیعة مقیة ومؤسفة للوقت .

وطبقا للاولويات التي وضعها ضابط المخابرات المصري . الذي كان يرغب في استغلال الموقف حتى القطرة الاخيرة . لم تحظ الشرطة الاسرائيلية بأية عناية . أما منظمة مقاومة الجاسوسية في « شين بيت » ومنظمة المخابرات العامة « الموساد » فان أسئلته التي تتابعت حولها .

كانت تنقيا قاسيا وذكيا ، تماما كالتنقيب عن شىء ما ، في نخاع عظم انسان يتنفس .

وعلى سبيل المثال ، فان أسماء جميع الضباط ، الذين عملوا أو احتكوا بباروخ ، سواء كمؤوسين أو زملاء أو رؤساء ، كانت مطلوبة بحزم ، ولان خدمة « باروخ » في المخابرات الاسرائيلية كانت حوالى أربع سنوات ، ظهرت الى الوجود قائمة ثمينة بأسماء هؤلاء الضباط ، الكودية والحقيقية ، واقرن عديد من هذه الاسماء ، ببيانات مختلفة ، كالجنسية الاصلية ، ورقم التليفون ، وعنوان المسكن وأهم من ذلك كله ، التخصص والواجبات .

كان الاسرائيلى في مازق صعب لا يستطيع تقدير مرارته الا المحترفين ، وكان على بينه من أن المعلومات التى تنتزع منه ، لا يمكن تقديرها بثمان ، ومن المؤكد ، أن أى جهاز للمخابرات ، على استعداد لان يدفع مليوناً من الجنيهات ، لاي عميل يقدم له مثل هذه القائمة طواعية .

عندما لمست أسئلة الفهد مواطن حساسة للغاية ، حاول الاسرائيلى ان يساوم وتحدث باستفاضه عن استعداداه لمعاونة « المصريين » ، في مقابل كلمة من غريمه ، أو وعد بالمساعدة ، ولكن أوان المساومة كان قد فات ، وأصبح من المفروغ منه ، أنه سوف يدلى بكل مالدیه ، بدون أى مقابل على الاطلاق .

وشملت الاسئلة التى كانت تتوالى ببطء مصطنع ، والتى دارت حول المخابرات الاسرائيلية مجموعة من الاستفسارات التى بدت عفوية ، عن عناوين المقار السرية ، والاماكن الامنة ، والاعمال التجارية الزائفة التى تستخدم كواجهات ، ومراكز تلقى الرسائل ، التى يستخدمها الجهاز الاسرائيلى في اسرائيل ، وفي البلاد التى قام « باروخ » بزيارتها أيضا .

وكذلك أجاب باروخ عن عدد من الاسئلة غير المباشرة . وتناولت هذه الاسئلة . بعض الجوانب التي كانت خافية على المصريين . في بعض العمليات المحدودة . وكان عليه أن يتذكر بدقة مصير بعض العملاء الذين سقطوا وهم يتجسسون لحساب القاهرة في اسرائيل . وقد أفصح عن معلومات عظيمة النفع في هذا المجال .

ورغم التعب الذى تمكن من السجين الى حد مزعج . خلال أيام الاستجواب الاخيرة . لم يسمح الفهد بأى قسط اضافى من الراحة . وأضفى اعترافه بأنه ضابط ضمن تنظيم الجهاز الاسرائيلى . جوا من المودة طغى على الارهاق والانكسار . وكان واضحاً أن هذا الاستجواب المبدئى . ليس سوى مقدمة لاستجواب مدقق كان في انتظار السجين . مهما كانت الظروف . فقد كانت هناك آلاف التفاصيل المفرطة في الدقة . تنتظر اقامة اللثام عنها بأمانة . ودون أى قدر من المراوغة .

وكان من الطبيعى . أن تستحوذ نظم العمل . وطرق الاتصال . ومكونات اتخاذ القرار . في المخابرات الاسرائيلية . على اهتمام مكثف من جانب الضابط المصرى . وفيما يتعلق بالتدريب اضطر « باروخ » الى الاجابة عن كل الاسئلة . التى دارت حول تدريبه هو نفسه . قبل وأثناء التحاقه بخدمة المخابرات .

واتضح أن باروخ قد درب . على استخدام وحل الشفرة . متدرجا من الشفرة « الروزيكروشييه » التى تعتمد على أوضاع تقط معينه داخل مستطيلات متفق عليها . في مفتاح الشفرة الاصلى . الى شفرة « الزجاج » التى تستخدم الرسوم البيانية العادية . واعترف بأنه قام اثناء تدريبه على المراقبة بمتابعة رجل اعمال فرنسى في تل ابيب . كما ثبت ميكروفونا من نوع « المرسل المطلق » . في جهاز تليفون . في السفارة البريطانية في اسرائيل .

كذلك أقر بانغماس المنظمات الاسرائيلية ، في التصنت على معظم المكاتب التجارية . ومكاتب السلك الدبلوماسى . والمؤسسات التى يشترك في ادارتها اسرائيليون ، واتضح أن المخابرات الاسرائيلية تستخدم في تصنتها الدائب على الآخرين . اجهزة « الاوسيلوجراف » وهى اجهزة لرسم الذبذبات . يمكن بواسطتها تجميع رقم التليفون على لوحة المراقبة . بمجرد انتهاء الطالب من ادارة الرقم الاخير .

وكشف « باروخ » أثناء اعترافاته المذهلة ، عن نوع من « الطبقية » يميز امكانيات منظمة مقاومة التجسس عن منظمة « الموساد » فبينما تستخدم الاولى وسائل عتيقة نسبيا ، تحصل « الموساد » على معدات أكثر تطورا ، وعلى سبيل المثال ، فإن الموساد تستخدم الميكروفونات المرسلة ، ذات الحجم الصغير ، والتى لا تزيد أبعادها عن $8 \times 8 \times 6$ بوصة ، والتى يمكن اخفاؤها في كوب به شراب معتم ، ومد « الهوائى » في البوصة الماصة التى تستعمل في الشرب . بينما تستخدم « الشين بيت » ميكروفونات من النوع التقليدى ، القصير المدى الذى يتطلب قدرا كبيرا من الظروف المناسبة ، ليعمل بكفاءة .

كذلك كشف « باروخ » عن فوارق اساسية بين المنظميتين ، في حجم الاموال المسموح بها ، وفي مستويات اتخاذ القرار . واعترف . بأن الجنسية الاصلية لضابط المخابرات الاسرائيلى ، لاتحدد فقط موقعه في سلم الترقى ، بل تؤدى دائما الى نفوذ أعلى - أو أقل - من سلطة رتبته ولأن الجنسيات متداخلة في هيكل الاجهزة الاسرائيلية ، فان تحديد جنسية ضابط المخابرات في عملية ما ، يكون سهلا للغاية . بدراسة حجم النقود التى تدفع ، وبدراسة حركة القرارات وتوقيتاتها !!

ان الامور تتضح أكثر لو أننا بينهاها على النحو التالى . لو أن أحد العملاء المزدوجين . قدم تقريراً بأن الضابط الاسرائيلى . الذى يتولى

تشغيله . يسرف في استخدام المنطق . والافكار الايديولوجية في اقناعه . فلا بد أن تتوقع تقيدا في حجم المكافآت التي يدفعها لعميله . وفي الغالب . يمكن الاستنتاج مبدئيا . بأن هذا الضابط من يهود الكتلة الشرقية . أما اذا كانت المكافآت كبيرة الحجم مع دعوات مناسبة للمطاعم الفاخرة ودور اللهو . فان ذلك يقودنا على الفور . الى أن الضابط الاسرائيلي قادم من الغرب !!

وفي الحالات التي تكثر فيها الوعود . وتقل المكافآت عن المبالغ المتوقعة . فان هذا يعنى أن ضابطا من أصل غربي يعمل كمروء ضابط من الشرقيين . مما يؤدي الى تقلص المبالغ التي اقترحها الاول بمجرد عرض الموضوع على رئيسه . فإذا ما عادت الاموال الى الزيادة . كان معنى ذلك أن القضية قد عرضت على الرئيس الاعلى !!

كذلك تؤثر الجنسية . والجنسية الاصلية بالنسبة للضباط « السابرا » . في درجة تقدير المعلومات وفي أسلوب ووسائل الاقتراب . والقدرة على التصرف في الميدان . كما تؤثر تأثيرا ظاهرا . في سلوك ضابط المخابرات أثناء وجوده خارج اسرائيل . وقد أمكن في حالات خاصة . الاقتراب من ضباط المخابرات الاسرائيلية باستخدام الانتماء المزيف . الى جنسيتهم الاصلية !!

وللتثبت من أقوال باروخ . طلب منه الفهد أن يكتب قائمة بأسماء أصدقائه . في اسرائيل واتضح أن أقرب أصدقائه . كان ضابط شرطة رامات . دان اليعازر . وجاره في المسكن روجين مناحم بالاضافة الى فيكتور وهبه وهو يهودى من اصل مصرى ولانه عمل في « الشين بيت » في قسم مكافحة الشيوعية . أو النشاط المتزايد للشيوعية . طبقا لاسمه الرسمى . فقد ربطت أواصر الصداقه بينه وبين ضابط يدعى دافيد جهاخمان . ومن الامور التي تدعو للتأمل . أن مدير هذا القسم . حاييم

أولوفيتس يهودى بولندى ، أما مساعداه ، دافيد جلاخمان ويورام فينار فهما سابرا من أصل بولندى أيضا !!

وفي « الموساد » أقر باروخ أن رئيسه يتخذ الاسم الكودى « رامى » أما أسمه الحقيقى فهو أورى ثلمان ، أما زميله فكانا دافيد شمران ويتخذ الاسم الكودى « دافيد » وجاك لوكاس ويتخذ اسم زتشارد !!

وفي النهاية كان على باروخ أن يوضح عددا من العناوين ، عنوان مسكنه ومساكن أقاربه وأصدقائه وقيل له ، أن هذه العناوين ضرورية .

وبالتالى يجب أن تكون صادقة ، لكى يقوم جهاز المخابرات المصرى بأجراء التحريات اللازمة ، وكان باروخ بحكم كونه محترفا ، يعرف ان مثل هذه التحريات ليست سوى عمل روتينى ، لا يتضمن اية مخاطرة .

وقال باروخ أن اسرته تقيم في المنزل رقم ٩٨ بشارع ايلات في جولون ، أما شقيقته ايفيت ، فقد تزوجت من يهودى ايرانى يدعى كليمنت مزراحى ، وتقيم في نفس الشارع في المنزل رقم ٣٨ ، واتضح أن لباروخ شقيقا يدعى « ماير » ويعمل ميكانيكيا في جيش الدفاع وتزوج من عراقية تدعى « ايلين » ويقيم مع اسرته في البيت رقم ١ بشارع روشينا .

وانتهى الاستجواب الفورى للضابط الاسرائيلى الاسير في الساعة الثانية عشرة والرابع من صباح اليوم الثامن من يوليو ، وفي الصباح أبرق الفهد الى القاهرة ببرقية من كلمتين ، ضابط مخابرات !!

وصل النبأ الى القاهرة فأحدث رد فعل واسع النطاق ، وقالت منظمة مقاومة الجاسوسية في تقرير سرى للغاية ، أن جهاز المخابرات الاسرائيلى يعرف بالقطع أن ضابطه في اليمن ، وعلى ذلك بمجرد انقضاء الفترة المحددة للتراسل ، دون وصول أية رسائل ، فان الاسرائيليين سوف

يتحركون بأقصى سرعة لمنع اليمينيين من « استنزاف » معلوماته . حتى لو أدى الامر الى قتله !!

وفي الساعة العاشرة من صباح التاسع من يوليو عقد في مكتب المشير احمد اسماعيل اجتماع موسع حضره السنجاب . وفي هذا الاجتماع . استقر الرأي على أن أفضل اجراء يمكن اتخاذه لتحقيق اقصى فائدة . من هذه الحادثة الفريدة . هو العمل بكل الوسائل لكي تسلم القاهرة من صنعاء الجاسوس الذى قبض عليه في الحديدة . وقد يبدو غريبا . بعد أن قام الفهد باستجواب باروخ هناك في صنعاء . أن تعتمد المخابرات المصرية الى اجراء يهدف الى تسلم الأسير من الدولة التى أسرتة . ولكن هذه الغرابة تزول على الفور . اذا أوضحنا أن المعلومات التى أدلى بها باروخ لمستجوبه . رغم غزارتها . لا تمثل الا جزءا ضئيلا من المعلومات التى كان عليه أن يكشف عنها النقاب عندما يصل الى القاهرة !!

وكان أهم سؤال يحير الفهد في صنعاء . ويحير رؤساءه في جهاز المخابرات المصرى . هو ذلك السؤال الذى بقى على شكل استفسار مشوب بالدهشة وهو :

لماذا ترسل المخابرات الاسرائيلية . التى لا يجب الانتقاص من كفاءتها . ضابطا من ضباطها . في مهمة كان يستطيع أى عميل عادى . أن يقوم بها على خير وجه ؟!

وكانت الاجابة على هذا السؤال . بداية لمعركة ضارية لم يسبق أن شهد العالم السرى . معركة مثلها من قبل !!

الفصل الخامس

المتاعب تظهر في الأفق

قبل أن ينقضى نهار الأحد، التاسع من يوليو، كانت القاهرة قد اتخذت الاستعدادات الضرورية. لتقل ضابط المخابرات الاسرائيلي. من صنعاء. وكان الرأي السائد في رئاسة المخابرات، وفي منظمة مقاومة الجاسوسية، ان الوسائل الدبلوماسية. سوف تتكفل باقناع الحكومة اليمنية. بأهمية هذه الخطوة. على المستوى القومى.

وكان معروفا منذ بداية الأسبوع، ان مجلس الوزراء سوف يعقد اجتماعا في التاسع من يوليو، لذلك، اجرى مكتب المشير اسماعيل، اتصالا عن طريق التليفون بمقر رئاسة مجلس الوزراء، في تمام الثانية عشر ظهرا، واستفسر المتحدث عن وزير الخارجية. ولكن اتضح أن الاجتماع الذى كان مقررا عقده في ذلك الوقت، قد تأجل الى الثلاثاء الحادى عشر من يوليو، ولم يكن وزير الخارجية موجودا هناك. وبعد ذلك بثلاثين دقيقة، تمكنت المخابرات من الاتصال بوزير الخارجية،

وعندما أشرفت الساعة على الواحدة ، عقد اجتماع ضم الرجلين وحدهما ، وأفضى مدير المخابرات لضيغه بقصة جاسوس الحديدية ، وشرح باقتضاب أهمية نقله الى القاهرة . وطلب أن تبذل وزارة الخارجية أقصى ما تستطيع من جهد ، للحصول على موافقة الحكومة اليمنية في أقرب وقت ممكن . وكانت الحجة التى قدمتها المخابرات ، أن باروخ المولود في مصر يتمتع بالجنسية المصرية .

وفي نفس اليوم ، أبرقت منظمة مقاومة الجاسوسية ، لرجلها في صنعاء ، تطلب منه ان يوافيها على وجه السرعة ، بأربع صور مقاس ٦×٤ ، للاسرائيلى السجين ، واشترطت البرقية ان تلتقط الصور بالمواجهة وأن تظهر فيها أذناه !!

وكان « الفهد » قد ترك « باروخ » لتوه ، بعد ان أجرى معه جولة جديدة من الحوار لذلك دهش الاسرائيلى بشدة عندما فوجئ بغريمه وهو يأمره بأن يرتدى ثيابه ، ليلتقط له عددا من الصور التذكارية ، وبينما كان يدس قدميه في سرواله ، ابدى ملاحظة ذكية على سبيل الدعاية ، اذ أشار الى الساعة المربوطة في معصم الفهد ، وقال أنها التقطت له ما يكفى من الصور ، واضطر ضابط المخابرات المصرى الى الابتسام ، فقد كانت ساعته تحتوى بالفعل ، على كاميرا صغيرة من طراز « شتانيك ب » !!

كانت خطة المخابرات المصرية ، مبنية على اعتقاد مفرط في التفاؤل ، بأن الحكومة اليمنية سوف تسلم « باروخ » بهدوء للفهد . وكانت الصور المطلوبة ضرورية لاستخراج جواز سفر مصرى من مصلحة الجوازات . تحت زعم أن مواطنا من عملاء المخابرات وجد نفسه فجأة بدون جواز سفر ، وبمساعدة هذا الجواز ، كان من المقرر ان يصحب الفهد أسيره ، في رحلة طيران عادية الى القاهرة .

وبعد ثمان وأربعين ساعة . وصلت صور « باروخ » من صنعاء . وتم استخراج الجواز بالفعل . وكانت البيانات المثبتة فيه . توضح أن صاحبه يدعى موسى زكى سلامة . ومهنته تاجر ، أما عنوانه فهو : ٨ شارع خليل الطوباب بالظاهر !!

وفي اليوم التالى ، الاثنين العاشر من يوليو ، اتصلت السفارة المصرية في صنعاء ، بمكتب رئيس وزراء اليمن وكان في ذلك الوقت محسن العينى - وطلبت المتحدث تحديد موعد للسفير . لكى يسلم رئيس الوزراء رسالة عاجلة من الحكومة المصرية . وتمت المقابلة في الساعة الواحدة وثلاث عشر دقيقة . وفي هذه المقابلة . أشار رئيس الوزراء الى اقتناعه بوجهة النظر المصرية . ولكن أرجأ البت في الأمر . حتى يستطلع رأى وزير الداخلية . والمسؤولين عن الأمن . وواعد بأن يخطر السفير بالنتيجة على الفور .

وشهدت القاهرة مقابلة اخرى وان كانت مختلفة . فقد وافق المشير أحمد أسماعيل على الادلاء بحديث صحفى لجريدة الاخبار القاهرية . وكانت أهم فقرة في حديث المشير . الذى نشر صباح الاربعاء الثانى عشر من يوليو ، هى تلك التى قال فيها أن جهاز المخابرات العامة . قام مؤخراً بجهود مشرفة في مجال مقاومة الجاسوسية . وأن هذه الجهود . لم يحن وقت الاعلان عنها بعد ..

وفي مساء نفس اليوم الاثنين ، اتضح ان تفاؤلاً بالمخابرات المصرية . لم يكن له أى مبرر . فقد تلقت السفارة المصرية في صنعاء . جواب رئاسة الوزراء اليمينية على رسالة القاهرة ويتلخص هذا الجواب في ان وزارة الداخلية . لا ترى في القضية ما يدعو لتسليم « الجاسوس » للقاهرة . وخصوصاً وأنها على استعداد كامل . لان تضعه تحت تصرف المصريين .

في صنعاء ، حتى يتمكنوا من استخلاص المعلومات التي يريدون استخلاصها منه ..

وكان وزير الداخلية على سيف الخولاني مصرا على رأيه بعناد لا حد له ، وعندما أتصل به السفير ، في محاولة يائسة لاقناعه ، أشار الى أن قصة الجنسية المصرية التي يتمتع بها الجاسوس ، لا تلقى قبولا من جانبه ، وفي النهاية ، اضطر السفير ، صباح الثلاثاء الحادى عشر من يوليو ، الى الابراق برد الحكومة اليمنية ، الى وزارة الخارجية .

وعندما تلقت رئاسة المخابرات النبأ ، في الساعة الثالثة بعد الظهر ، طلبت مرة أخرى من وزارة الخارجية ، أن تخطر الوزير اليمنى ، بأن هذا الجاسوس ، مارس نشاطا ضارا بأمن مصر . وأن فحص الصور التي ضبطت معه ، أثبت أنه التقط صورة لوحدة بحرية مصرية . أثناء مرورها أمام الساحل اليمنى ، وان هذه الوحدة ، مازالت راسية في ميناء الحديدية .

ومن جديد جاء رد وزير الداخلية اليمنى مخيبا للآمال ، وكانت وجهة نظره منطقية الى أبعد مدى ، اذ أشار الى أنه يفضل محاكمة الجاسوس في صنعاء ، حتى يدرك الجميع ان الاراضى اليمنية ليست مباحة للأجهزة الباحثة عن المعلومات ، أما فيما يتعلق بالوحدة البحرية المصرية . فان الوزير يؤكد ، ان الجاسوس سوف يلقى عقابا رادعا . جزاء تجاسره على تصويرها .

وجدت المخابرات المصرية أنها في موقف لا تحسد عليه ، فبينما كانت تتلطف على نقل ضابط مخابرات معادى ساقه القدر الى قبضتها . كانت كل الظروف تتخذ اتجاها معاكسا ، ولم يكن من المقبول ، أن تعتمد الى الاساليب المعتادة في مثل هذه الحالات ، في عالم المخابرات .

فوجود الهدف في أرض دولة شقيقة كان يمنع مجرد التفكير في اختطافه .

كانت الظروف التي تمر بها مصر في ذلك الوقت غصيبة بدرجة لا تصدق . وكانت نوايا الرئيس التي لم يطلع عليها أى مخلوق ، والتي تركز كلها حول شن حرب بالغة الشراسة ضد اسرائيل ، تشغل تفكيره بقسوة . وكانت المخابرات قد ضبطت شبكة من عملاء المخابرات الاسرائيلية . وهم يوزعون منشورات مضادة تهدف الى تخريب نفسية الشعب الذى يتأهب للحرب . وأهم من ذلك كله ، كان قرار الرئيس بانهاء الوجود السوفيتى في مصر قد اتخذ بالفعل . وكان من المقرر ان يلتقى الرئيس بيانا أمام اللجنة المركزية يوم الثلاثاء الثامن عشر من يوليو .

— لماذا يوفدون ضابط مخابرات ؟ ... ان ذلك يبدو غريبا .

هكذا همس الرئيس السادات في مواجهة مدير مخابراته وهو يرسل بصره عبر الباب الزجاجى الذى يشرف على النهر ، وعندما أجاب المشير بأن كل الأمور سوف تتضح عندما يصل « باروخ » الى القاهرة . أوماً الرئيس برأسه واستغرق في تأملاته من جديد .

ساد الصمت الرهيب غرفة المكتب ، التى شهدت أخطر اجتماع في قصتنا كلها . ولم يتبدد هذا الصمت الا عندما بدا شعور بالارتياح على ملامح الرئيس السادات وقد التفت الى المشير ثم هتف :
اننى لا أحب أن أسبق الحوادث . ولكنى أعتقد أنهم يبحثون عن شىء هناك .. عند باب المندب !!

كالبرق الخاطف أضاءت عبارة باب المندب الأفق الذى كانت الظلمة تغمره ، وعلت الابتسامة وجه مدير المخابرات الذى قضى عمره جنديا محاربا . ولم يكن أحد في حاجة لأن يوضح أن « باب المندب »

ليس سوى طرف القصة الهوائية . الممتدة بعيدا . بطول البحر الأحمر كله الى ميناء ايلات .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أجرت رئاسة الجمهورية في القاهرة ، اتصالا تليفونيا بمكتب القاضى عبد الرحمن الايراني فى صنعاء ، وبعد ان تبادل الرئيسان حديثا وديا للغاية ، وعد رئيس الجمهورية اليمنية ، بأن يبذل قصارى جهده ، لكى توافق الحكومة على الطلب الذى تقدم به سفير مصر فى صنعاء .

كانت الاحداث تتتابع بسرعة رهيبة وسط جو مشحون بالقلق . ويبدو ان وزير الداخلية اليمنى ، الذى كان مقتنعا بافكاره الخاصة ، أراد ان يضع حدا للضغط التى تمارسها القاهرة ، فقد أسرع بمجرد ان اتصل به القاضى الايراني ، وعقد مؤتمرا صحفيا أعلن فيه باختصار ، أن جاسوسا اسرائيليا قد قبض عليه فى اليمن .

انتشر النبأ بسرعة البرق ، ونشرته صحف القاهرة فى صفحاتها الأولى ، صباح الخميس الثالث عشر من يوليو ، وأدرك ضباط المخابرات المصريون ، أن السر الذى تكتمونه قرابة شهر ، والذى كان يمثل فى نظرهم أهم عوامل النجاح فى خططهم التى كانت تمنى بالفشل تباعا ، أدركوا أن هذا السر قد أفتضح .

كانت الضربة أقوى من أن تمتص بسهولة ، وكان من المستحيل ، بالنسبة لأى مخلوق عاقل ، أن يتوقع مرور النبأ هذه المرة تحت أنف الاسرائيليين دون أن يلفت انتباههم . ولأنهم كانوا يعرفون بالتأكيد ، أن رجلهم فى اليمن ، تحركوا بسرعة تدعو الى الاعجاب ، وكان المصريون ، فى الجانب الآخر ، على يقين من ان المخابرات الاسرائيلية ، سوف تذهب الى نهاية الشوط ، فاذا ما فشلت فى استعادة رجلها ، فلا بد أن تلجأ الى « تصفيته » حتى لا يقع كنز من المعلومات فى يد العرب .

وهكذا ، وبينما كانت تعقد في القاهرة ، صباح الأحد السادس عشر من يوليو ، جلسة محاكمة للعملاء الذين ضبطوا وهم يوزعون المنشورات ، وصل الى صنعاء رجل يمتن المحاماة ، ويدعى صالح عبد القادر كبير ، وأعلن فور وصوله أنه موكل للدفاع عن الجاسوس المتهم ، وطلب أن يلتقى بموكله .

ورغم ان الفهد ، الذى كان يقطع الوقت بجلسات حوار طويلة مع الأسرائيلى ، أدرك ان المتاعب بدأت في الظهور ، الا انه لم يفقد هدوءه للحظة الواحدة ، ولانه لم يكن مغمض العينين ، رأى ان يلقى نظرة عن كئيب على ذلك المحامى الذى ظهر على المسرح فجأة .

كان المحامى رجلا إثيوبيا أسمر البشرة حاد التقاطيع يتأرجح في مشيته مثل دب ، وقد زعم ان علاقته بالمتهم قديمة ترجع الى سنوات مضت ، وكان من الطبيعى بالنسبة لرجل يحترف التجارة ولديه صلات متشعبة بشركات عديدة ، ان يكون لديه محامى مفوض ليدافع عن مصالحه .

ولكن الحياة ليست دائما كما تبدو عن قرب ، فهناك في أديس أبابا ، حيث يقوم مكتب استاذ القانون المولع بالدفاع عن المظلومين ، عشر ضابط مخابرات مصرى ، أوفد لتحرى الحقائق على عجل ، على عقد بين المحامى وبين من يدعى جاستون رين ، ونصت بنود العقد ، على أجر قدره خمسة آلاف دولار أثيوبى . اذا تمكن المحامى من اطلاق سراح المتهم .

ولأن الحركة السريعة تسفر في بعض الأحيان عن نتائج مرعبة ، اكتشف ضابط المخابرات المصرى في أديس أبابا ، ان السيد المبجل جاستون رين ، الذى يبدو أنه كان في عجلة من أمره ، قد جاء الى

اثيوبيا بجواز سفر اسرائيلى ، وأنه اتخذ من هيلتون أديس ابابا مقرا لاقامته .

وبمجرد وصول هذه المعلومات الى القاهرة - شكلت المخابرات المصرية مجموعات عمل ، زودت بكل الامكانيات الضرورية . للمهام الصعبة . وطارت أول مجموعة الى أديس ابابا ، صباح الثلاثاء الثامن عشر من يوليو . وكان على افراد المجموعة الثلاثة . ان يضعوا جاستون رين تحت الرقابة الدائمة . والرقابة تعنى في لغة المخابرات ، ان يظل تحت الملاحظة طوال الأربع والعشرين ساعة . التى تشكل الزمن المعروف لأى يوم .

وجاء من تل أبيب مؤشر بالغ الخطورة وان بدا عاديا . فقد أذاعت وكالة الأنباء الفرنسية نبأ يفيد بأن سلطات الامن الاسرائيلية . قررت ان تقدم للمحاكمة خلال شهرين ، ألفا وأربعمائة عربى . كانوا في السجون الاسرائيلية . دون ان توجه اليهم اتهامات محددة . وكان معنى هذا النبأ ، الذى ظيرته الوكالة الفرنسية في نفس اليوم ، الثلاثاء ، ان اسرائيل تجمع في السلة أكبر عدد من البيض . استعدادا للمساومة .

ولم تكن هذه الخطوة هى كل ما في جعبة المخابرات الاسرائيلية ، فهناك في اسرائيل يعيش ألوف من اليهود اليمينين . الذين لا يمكن تمييزهم عن أهل اليمن الاصيلين . والذين يجيدون اللغة العربية ، باعتبارها لغتهم الحقيقية ، ولأن الحدود اليمنية تمتد امتدادا هائلا . كما ان غالبية اجزائها تتميز بالوعورة . كان سهلا على المخابرات الاسرائيلية . ان تدفع هى الأخرى « جماعة عمل » يكون هدفها الأساسى الحيلولة بين الضابط الأسير وبين أى طرف يود ان يجبره على أن يفتح فمه . وكما يحدث دائما في مثل هذه الظروف التى يواجه فيها جهاز مخابرات قوى جهازا قويا آخر . أخذت النذر تتجمع وتنبئ

بتصاعد رهيب في حدة الصدام المرتقب ، وأفاد تقرير عاجل من أديس ابابا . بأن « جاستون رين » ، تلقى مساء الأربعاء التاسع من يوليو . مكالمة تليفونية أسرع على أثرها مغادرا الفندق . واستقل عربة أجرة هبط منها على مقربة من السفارة الاسرائيلية . وبعد أن تسكع في الشوارع بعض الوقت التقى برجل في حوالى الأربعين . يتميز بسحنة شرقية وقامة مديدة وبنية تدل على قوة الجسد . وبمتابعة هذا الرجل ، أكتشفت مجموعة المراقبة أنه التقى في نفس الليلة . بستة رجال ، كل على حده . وكان القاسم المشترك في صفات الرجال الستة ، السمات العربية والسلوك الشرقى الصرف .

ان المسافة بين الساحل الأثيوبى . وساحل اليمن . يمكن قطعها في تسع ساعات يزورق جيد نوعا ما . وكان معنى التقرير الأخير . ان المخابرات الاسرائيلية قد استعدت للجولة الحاسمة في المباراة . وكان المصريون يعرفون تماما . ان هذه الجولة . مسموح فيها بالضرب تحت الأحزمة .

وكان من الضرورى تحذير الفهد ، وقد تلقى برقية مفادها ان يتوقع وصول بعض عناصر الكومندوز الاسرائيليين الى اليمن . ولم يكن واجب ذلك الضابط الشجاع ان يتوخى الحرص ليدافع عن حياته فقط . بل كان عليه أن يمنع أى محاولة لقتل « باروخ » أيضا . ومن المفارقات التى تثير العجب . ان واجب الفهد كان يحتم عليه . في هذه المرحلة من العملية . ان ينقذ غريمه بأية وسيلة . حتى لو ضحى بحياته هو !! . وعندما حل يوم الاربعاء . التاسع عشر من يوليو . اكتشف المصريون أن « جاستون رين » . الذى لم يشك أحد في أنه ضابط مخابرات هرع لنجدة زميله . يتمتع بقدر مناسب من الثروة فقد عرض المحامى

الأثيوبي . ان يدفع مائة ألف من الجنيئات الاسترلينية على سبيل
« الكفالة » لاطلاق سراح السجين .

كانت الأمور تزداد تعقيدا كل لحظة . فبعد المائة ألف جنيه . عرض
المحامى ان يدفع عشرة ملايين جنيه استرلى . في مقابل نسيان المسألة
برمتها . ومن الغريب . ان هذا العرض كان سيجد قبولا من بعض
المسؤولين اليمينيين وكانوا يرون لافائدة في الاحتفاظ بهذا الجاسوس
الفاشل . كما ان الصفقة تبدو رابحة للغاية . وقد تمكني الفهد من
الاطلاع على كل تفاصيل هذه الصفقة . وأدرك ان الحجر قد أخذ في
التدحرج بعيدا عن سيطرته .

وقبل غروب شمس الاربعاء . تسلمت رئاسة المخابرات في القاهرة .
برقية من الفهد . وظن الضابط الذى فك رموزها . ان خطأ جسيما قد
حدث . فقد تضمنت هذه البرقية مطلبنا واحدا ان تضع المخابرات تحت
تصرفه عشرة ملايين جنيه استرلى نقدا .

كان تاريخ الفهد المشرف . يحملق بشدة في وجه كل من تصور ان
خطأ ما يرقد بين السطور فلم يحدث قط . طوال قرابة عشر سنوات .
ان أخطأ الفهد في حل أو تركيب شفره . كما ان تقديره اتسم بالصواب
في مواقف تثير الحيرة وربما أكثر تعقيدا من هذا الموقف .

وبينما كانت أجهزة الارسال . تبرق ببرقية عاجلة الى صنعاء .
لطلب مزيد من الايضاح . كان الشير اسماعيل يتلقى تقريرا عن آخر
التطورات في أهم قضية شغلت جهاز المخابرات المصرى في السنوات
الأخيرة . وعندما قال مدير منظمة مقاومة الجاسوسية للمشير ان الفهد
أرسل يطلب عشرة ملايين جنيه ضاقت عينا الرجل وقطب جبينه
بكدة . ولكن المدهش أنه أوما برأسه موافقا !!

وفي منتصف الليل ، أقدم ضابط المخابرات المصرى فى صنعاء على خطوة تعد - من وجهة النظر البروقراطية - خرق صريح لقواعد العمل ، اذ اتصل بصديقه فى السفارة المصرية ، وطلب منه أن يخطر السفير ، بأن الحكومة المصرية على استعداد لأن تدفع الملايين العشرة المطلوبة كغدية للجاسوس المتهم ، والح فى أن يبلغ السفير هذا القرار للمسؤولين قبل أن تشرق الشمس .

ومن أديس ابابا ، جاءت أنباء قاتمة تتسم بالكآبة ، فقد أبلغت جماعة المراقبة هناك أن « جاستون رين » ، الذى كان قابعا فى فندق هيلتون ، استقبل زائرا مشابها للزائر الذى التقى به من قبل فى شوارع المدينة ، وأن ستة أفراد آخرين ، قد وصلوا الى أديس ابابا ، ولكن فى هذه المرة ، تمكنت المراقبة من تحديد وجهتهم . ولم تكن هذه الوجهة سوى الشاطئ الأثيوبى ، وهناك استقلوا زورقا وأختفوا فى البحر .

وفى نفس الوقت ، أفادت تقارير متابعة نشاط الاسرائيليين الجوى ، فى صحراء سيناء ، عن زيادة غربية فى حجم الداوريات الجوية الاسرائيلية . واتضح ان لواء جويا كاملا قد نقل من مطارات المنطقة الوسطى ، فى اسرائيل ، الى مطارات سيناء فى الجنوب .

وفى ميناء ايلات ، المطل على خليج العقبة ، شاهد عملاء المخابرات المصرية ، ثلاث زوارق مسلحة بالصواريخ . وكشفت حركة هذه الزوارق ، عن نوع جديد من الداوريات ، وكان واضحا ان الاسرائيليين قد قرروا مراقبة البحر الأحمر ، من الجو والبحر ، ومن المؤكد أنهم شعروا ، بوسيلة أو بأخرى ، ان الأصابع المصرية تحاول هى الأخرى ان تصل الى « باروخ » .

كانت الاسلحة تشحن وهي تتأهب لمعركة حياة أو موت . وكان جهاز المخابرات المصري في القاهرة في حالة يقظة واستعداد قصوى . وكان جهاز المخابرات الاسرائيلي في تل أبيب يفتح عيونه على اتساعها . اما في صنعاء ، فكل أثنان من ضباط الجهازين يجريان حوارا هادئا يغمره الود ، وعندما كان الفهد يتغيب لبعض الوقت ، كان « باروخ » يبدى استياءه ويشعر بالوحشة !!

وفي صباح الخميس ، تدخل طرف ثالث لم يكن أحد يتوقع أن يتدخل بهذه السرعة ، فقد أبرقت لجنة حقوق الإنسان ، التابعة للأمم المتحدة ، من باريس ، تطلب ان تتاح للمتهم الفرصة لكي يدافع عن نفسه في محاكمة عادلة .

ووسط هذا الجو المشحون بعوامل الانفجار ، برزت على السطح بادرة طيبة للغاية ، اذ نقلت وكالات الأنباء تصريحاً مقتضباً لمحمد خميس ، مدير جهاز الأمن اليمني ، وكان نص التصريح أن الحكومة اليمنية سوف تسلم التجاسوس الاسرائيلي لمصر ، وقد أدلى محمد خميس ، وهو ضابط شاب يتدفق حماسا وحيوية ، بهذا التصريح لوكالة الأنباء العراقية . ونقلته الى العالم كله وكالة الأنباء الفرنسية .

وكان معنى هذا التصريح المقتضب ، الذي نشرته صحف القاهرة صباح الخميس العشرين من يوليو . ان آراء معارضة لموقف وزير الداخلية قد بدأت تبرز على سطح الأحداث .

وكان على المصريين ان يراقبوا الموقف بهدوء وان يتمنوا تغلب الآراء التي في صالحهم .

وكانت القاهرة تتحرك بسرعة في مواجهة تل أبيب ، وكان من السهل على المصريين أن يدفعوا أى مبلغ من المال ، في سبيل الحصول على

الفريسة التي كانت ترقد في شبكة متينة وان كانت بعيدة ، وفي يوم الخميس ، مضى الاسرائيليون قدما في محاولاتهم المستميتة ، اذ عرض المحامي الأثيوبي ، ان يقدم لليمن ، بالإضافة الى الملايين العشرة ، صفقة أسلحة صغيرة على سبيل الهدية وللتعبير عن نواياه الحميدة تجاه شعب اليمن .

ومن الغريب ، ان هذا المحامي النشيط ، لم يكف لحظة عن الاعلان ، عن أن كل هذه العروض ، سوف تحملها ثروة موكله التاجر الثرى ، ورغم ان جميع الأطراف كانوا يعرفون الحقيقة ، الا أن الكل كان يبتسم وهو يتظاهر بالتصديق ، وكانت الدلائل تشير الى أن اللعبة تتخذ مسارا مراوغا ، فان لم تنجح الجهود المبذولة للإفراج عن المتهم ، فان من المفيد كسب بعض الوقت ، حتى تتمكن المخابرات الاسرائيلية من التصرف .

وفي مساء الخميس ، وبينما كان الفهد يسرع في طريقه الى المقر ، الكائن على الطريق المؤدى الى وادى ظهر ، انطلق وابل من الرصاص على الرجل الذى لم يكن يملك سوى طبنجة صغيرة العيار ، وأصابته رصاصة نافذة السيارة اللاندروفر التى كان يقودها ، ومزقت رصاصة أخرى تحت ذقنه . وهى تحدث صفيرا مخيفا ، وضغط الضابط الجسور بقوة على مفتاح السرعة ، وفي نفس الوقت ، أدار عجلة القيادة بحدة الى اليمين ، واندفعت اللاندروفر وهى تزار الى تل رملى يشرف على الطريق . وبعد أن دار حول التل ، عاد بأقصى سرعة مخترقا الطريق الى الجانب الأيسر ، وبينما كان يبحث على ضوء مصابيح السيارة عن المهاجمين انطلق الرصاص من جديد .

كانت المخابرات الاسرائيلية قد وصلت الى الميدان .

الفصل السادس

القاهرة تنادى القرش !!!

أسوأ شيء في الكون ان تكون هدفا واضحا وعدوك مختفى عن الاعين . وسط لجة من الرصاص كان الفهد يفكر بسرعة . اللاندروفر تحولت الى نعش ظاهر والمهاجمون يصوبون على عجلة القيادة . لا امل في النجدة لأن صوت الرصاص ليس غريبا في أرض يحمل أهلها . حتى الاطفال . البنادق على اكتافهم . كل الوجوه مرقت في مخيلته كان ساحرا رهيبا يبدل الصور أمام عينيه . الزوجة والطفل وليالى الصيف الحاملة والمدير الذى ينتظره كما ينتظر الرجال دائما . بعد المدير رأى السنجاب يتسم كأنه يشجعه . في تلك اللحظة تمنى لو أن السنجاب كان معه .

وسط شريط الصور توقفت صورة واحدة لتثير الرعدة في بدنه . أحنى رأسه وغاص في مقعده وضغط بدال السرعة فأنطلقت اللاندروفر كيفما اتفق . كان يعرف أنه على يسار الطريق لذلك لوى عجلة القيادة الى

اليمن . وشعر كأنه يسير فوق حافة مستنه ومالت العربية بحدة ولكنه واصل الضغط بعنف . ارتفعت المقدمة وهوت فجأة واكتشف انه يغوص في رمال ناعمة . بدل السرعة وزار المحرك وراحت العجلات الخلفية تدور دون أن يتقدم . حاول من جديد ونبت العرق فوق جبهته . في النهاية نجح في أن يعاود السير . رفع رأسه يحذر والقي نظره . على مسافة ذراعين رأى الطريق المهد ورغم قسوة الموقف ابتسم . عندما لمست العجلة الأمامية سطح الأسفلت انتابه احساس كأحاساس الغريق عندما يضع قدمه فوق صخرة . كانت الصورة التي استفزت كل قدراته هي صورة « باروخ » .

انطلق ضابط المخابرات الذي كان هدفا لمجموعة من الاسرائيليين لا تجيد التصويب صوب المقر . كانت العربية مندفعة كطلقة رصاص كأن كل أبالسة الجحيم تجد في أثره . رغم الصدمة والوحدة لم ينس أن يترك العربية بعيدا عن البيت . وعندما وجده « باروخ » امامه دهش لهيئته التي تنم عن القلق . أمره أن يرتدى ثيابه وأن يستعد لمغادرة المكان بأقصى سرعة . كانت المشكلة الآن تتلخص في الحصول على موافقة السلطات اليمنية لكي ينقل الاسير الى مكان آمن بعيد . لذلك طلب الفهد من الحراس اليمنيين ان يفتحوا عيونهم جيدا . وانطلق الى اللاندروفر مرة أخرى .

مضت ساعة كاملة الى أن تمكن الفهد من الوصول الى قلب صنعاء . بدلا من الطريق المعتاد اتجه الى الصحراء ومر بجوار قصر الامام القديم ثم اندفع في ممر ضيق تملؤه الحفر في قلب وادي ظهر نفسه . وقطع مسافة وسط الرمال الى أن وصل الى طريق المطار . انحرف الى اليسار ودخل صنعاء من أبعد أطرافها عن مكمنه

كانت الساعة التاسعة والنصف من مساء الخميس عندما توقفت اللاندروفر امام السفارة المصرية . وكانت هذه أول مرة تطأ فيها قدم الفهد أرض سفارته . الى يمين الباب عثر على مكتب القنصل ولكنه استمر في التقدم . كان الرجل يعرف طريقه الى مكتب صديقه الدبلوماسى الذى يلجأ اليه كلما احتاج الى معاونة . صعد درجا مفروشا بسجاد كالج اللون ومضى الى اليسار طرق الباب وجاءه صوت مصرى بأن لا أحد هناك . المصريون هم المصريون في كل مكان . وبمجرد ان اكتشف حارس الليل في الطابق الثانى أنه مصرى دعاه الى كوب من الشاي ولكنه اعتذر . سأله عما اذا كان قد وفد الليلة الى اليمن فأجابه بايماءة من رأسه وطلب أن يتحدث في التليفون . اقتاده الحارس الى غرفة فسيحة الى اليمن بها مكتب أنيق وعدة مقاعد خضراء . لاحظ وهو يتحدث في التليفون علم مصر وصورة الرئيس . كان الفهد في مكتب السفير نفسه .

وفي العاشرة بالضبط وافاه صديقه الدبلوماسى وأبدى دهشته لوجوده في مبنى السفارة في هذا الوقت من الليل ، وبعد اتصالات محمومة أمرت وزارة الداخلية اليمنية بنقل « باروخ » على وجه السرعة من المقر . وقبل أن تشرق شمس الجمعة كان الرجلان قد استقرا في مكانين متباعدين . باروخ وحراسه الثلاثة في بيت متواضع على طريق « صعدة » . والفهد في شقة صغيرة في حي « باب اليمن » .

ولم يكن هذا الاجراء هو النتيجة الوحيدة لدوى الرصاص في تلك الليلة . فقد أدركت كل الاطراف ان اللعبة اتخذت مساراً حاداً هذه المرة . وشعر الجميع . اليمنيون والمصريون والاسرائيليون . بأن الموقف يتطلب مزيداً من الحذر بعد أن كشفت كل الأوراق على المائدة وكان

« باروخ » هو الثعلب الوحيد المستسلم وسط حشد من الثعالب وصل الى مكان الفخ .

وبينما كانت الأمور تتفاقم على هذا النحو في صنعاء ، كان جهاز المخابرات في القاهرة يشهد نشاطا واسع النطاق ، وكانت التقارير تندفق من أقسام المعلومات ، جداول للنشاط الجوى الاسرائيلى وخرائط لمسارات طائرات الاستطلاع وتوقيتات الداوريات البحرية في خليج العقبة ، مع بيانات وأفية لتحركات العملاء الاسرائيليين الموضوعين تحت المراقبة ، والسفارات الاسرائيلية في المنطقة الجنوبية من افريقيا ، وكان فرد واحد يحظى بأكبر قسط من الاهتمام . ولم يكن هذا الفرد سوى جاستون رين ، ضابط المخابرات الاسرائيلية المقيم في أديس بابا ، والمكلف بقيادة وتوجيه عمليات انتقاذ « باروخ » .

كانت القاهرة على استعداد لأن تدفع أى ثمن في مقابل الحصول على « باروخ » ، وكانت عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية معدة للطيران الى صنعاء بمجرد أن يشير القهد ، ومنذ أن أشار الرئيس السادات الى « باب المندب » ، والمشير احمد اسماعيل يستحث ضباطه لكى يسرعوا باحضار « باروخ » مهما كانت الظروف ، وكانت امكانيات مصر كلها ، وبلا حدود ، موضوعة تحت تصرف مدير المخابرات ، ولم يكن المدير يعرف أنه سيتولى بعد ذلك بأربعة عشر شهرا ، مسئولية الضغط على قصبة اسرائيل الهوائية ، الممتدة من ايلات الى باب المندب . وفي صباح الجمعة الواحد والعشرين من يوليو ، دعا المدير الى اجتماع ضم هذه المرة ضباطا من أقسام غير منظمة مقاومة الجاسوسية . بالاضافة الى مجموعة الضباط الذين تابعوا عملية « باروخ » منذ بدايتها ، وطرحوا على بساط البحث ، الاجراءات اللازمة لتوجيه الضربة الحاسمة في العملية كلها .

كانت المشكلة التي برزت أمام المجتمعين ناجمة عن صعوبة عملية النقل حتى لو وافقت السلطات اليمنية على تسليمه ، فالطريق الطبيعي لنقل هذه « الشحنة البشرية » ، من صنعاء الى القاهرة ، هي البحر او الجو ، اما الطريق البرى فلا يمكن استخدامه لطول المسافة من ناحية ، ولأن مصر يفصلها عن اليمن بحر ، وهذا البحر رغم أنه يبدو ضيقا على الخريطة ، الا أنه شاسع الطول في أقصى طرفه الشمالى خليج العقبة ، الذى تقوم عند رأسه المدينة اسرائيل .

وكان المجتمعون يعرفون أن اسرائيل سوف تعمل بكل ما لديها من امكانيات ، على التخلص من « باروخ » قبل أن يصل الى القاهرة ، وكان معنى ذلك باختصار ، أن أى وحدة بحرية ستتحرك من الحديدة الى السويس ، سوف تتعرض للهجوم مهما كانت العواقب . ولم يكن الوقت من وجهة نظر المصريين مناسباً للمعركة ، لذلك تركز البحث حول تنفيذ العملية عن طريق الجو .

.. واستبعدت من مجال البحث طائرات الركاب المدنية العزلاء ، وكانت الوسيلة الوحيدة الباقية هي طائرات توييلوف القاذفة الضخمة ، فهذه الطائرات العسكرية هي وحدها القادرة على قطع المسافة من مصر الى صنعاء والعودة ، ولكن الضابط المسئول عن « عمليات الجو » افاد باستحالة استخدام التوييلوف في المهمة ، لسبب بسيط وهو أن السلاح الجوى المصرى الذى لا يملك طائرات مقاتلة بعيدة المدى ، لن يستطيع توفير الحماية الجوية لطائرة النقل ، ولم يكن احد على استعداد للمغامرة بطائرة التوييلوف ، التى تشبه البطه السمينة ، وأهم من الطائرة التضحية بباروخ نفسه ، وفيما يتعلق بالطريق البحرى ، اجمع الضباط على استحالة استخدام الوحدات البحرية العائمة في نقل الاسير ، وكان البديل الوحيد هو استخدام غواصة على أن تتحرك الى الحديدة وسط أعقد

اجراءات للسرية ، وكانت أقرب غواصة مصرية الى ميدان العملية ، غواصة من طراز « رومييو » كانت في رحلة تدريب ، وكان من المقرر أن تدور هذه الغواصة حول رأس الرجاء الصالح ، وتعتبر مضيق جبل طارق ثم تخترق البحر الأبيض الى الاسكندرية ، وكانت الغواصة في ذلك الوقت تسبح شمال خط الاستواء .

كان المشير احمد اسماعيل ، يستمع صامتا الى اقتراحات ضباطه وهو جالس على رأس مائدة الاجتماع دون أن يتخذ قرارا علنياً ، وكان « السنجاب » ضابط مقاومة الجاسوسة القديم يجلس في مواجهته ، وقبل أن ينتهى الاجتماع ، طلب السنجاب من المدير أن يسمح له بالتوجه الى اليمن ، وقد رفع المشير حاجبيه باندھاش وحدث في وجه « السنجاب » الأحمر وبصوت هادئ النبرات شرح السنجاب مزايا هذا الاقتراح ، ورغم أن المشير أعلن موافقته ، الا أن السنجاب لم يقنع الى صضاء ، فقد كان من المقرر أن يطير صباح السبت الثانى والعشرين من يوليو ، الى باريس ، ففي باريس كانت أخطر جاسوسة لاسرائيل تعمل تحت مراقبة المصريين ، وكانت هذه الجاسوسة التى لم تنشر قصتها كاملة حتى هذه اللحظة ، تمد المخابرات الاسرائيلية بخرائط تفصيلية لمواقع بطاريات الصواريخ على جبهة القناة ، ولست أشك لحظة واحدة ، في أن المخابرات المصرية ، لو لم تكتشف جاسوسة الصواريخ ، لتغير وجه التاريخ .

كانت هبة عبد الرحمن سليم ، فتاة مصرية رائعة الجمال ذات سحر أخاذ وفتنة تخلب اللب ، وقد انتخبت بالفعل ملكة للجمال أثناء دراستها بجامعة القاهرة ، وعندما حصلت على منحة دراسية في جامعة السوربون ، طارت الى باريس وهناك تلقتها المخابرات الاسرائيلية .

وقد نجحت ملكة الجمال المثقفة في مضار الجاسوسية بشكل يندر أن يكون له مثيل في التاريخ . وأقامت شبكة لجمع المعلومات تحت سائر أنها تعمل في منظمة من أجل السلام . ونجحت في اجتذاب مهندس مصري كان يعمل في الانشاءات العسكرية ، وهكذا وجدت خرائط الصواريخ طريقها بهدوء من القاهرة الى تل اييب مروراً بباريس . وفي هذه الظروف ، كانت منظمة مقاومة الجاسوسية تعمل في اتجاهين متضادين ورئيسيين في آن واحد ، من باريس في الشمال الأوربي ، الى صنعاء في الجنوب الآسيوي ، وكان واجب السنجاب . منذ اكتشاف الصلة بين هبة سليم وبين الاسرائيليين ، أن يلقي نظرة من آن لآخر ، على الجاسوسة وضباط اتصالها الاسرائيليين . أما في القاهرة ، فكان يتابع المهندس الخائن وكانت المراقبة مفروضة حول العميلين ليل نهار .

وفيما بعد ، عندما تقرر انهاء عملية « الطاحونة الحمراء » وهذا هو الاسم الكودي الذي أطلقته المخابرات المصرية على شبكة الصواريخ ، كان السنجاب هو الذي تولى نقل الجاسوسة الحسنة من باريس الى القاهرة ، وكانت عملية النقل هذه واحدة من العمليات المفرطة في الاثارة ، ومن الغريب أن هذا الرجل تمكن من استدراج الفتاة بأسلوب معقد للغاية ، حتى ابتعدت بما فيه الكفاية عن الضباط الاسرائيليين ، ثم ضم مخالفه عليها ولم يهدأ الا عندما وصلت الى القاهرة ، وكان ذلك في السابع والعشرين من فبراير ١٩٧٣ . قبل الحرب بأكثر من سبعة أشهر ، وكانت هذه الأشهر السبعة ، كافية لأن تغير مصر مواقع صواريخها كلها ، دون أن تشعر اسرائيل .

تركت للسنجاب حرية الانتقال الى صنعاء . بعد أن يعود من باريس ، وكان من المقرر أن يصل الى باريس في الرابع والعشرين من

يوليو ، بعد جولة واسعة بهدف التضييل ، وكان هو يعرف ، أن مهمته في باريس لن تستغرق أكثر من يومين ، يجتمع خلالها بمجموعة المراقبة التي كانت مكلفة بعملية « الطاحونة الحمراء » .

وبعد أن انتهى الاجتماع ، استبقى المشير مدير منظمة مقاومة الجاسوسية وحده ، وليس بمقدور واحد أن يعرف ما دار بين الرجلين ، ولكن المؤكد ، أن المشير وضع أولويات محددة للعمل بمقتضاها فيما يختص بالعملية التي كان يوليها الأهمية القصوى وهى عملية نقل « باروخ » .

وفي الساعة الحادية عشر صباحا ، اتصل الرئيس السادات بمدير مخابراته عن طريق التليفون وفي الحادية عشرة والنصف استقل المشير عربة سوداء قادها بنفسه ، وغادر مبنى رئاسة المخابرات ، ولم يكن أحد يعرف أنه اتخذ طريقه الى بيت الرئيس .

وفي الثانية عشرة والثلث ، اتصل القصر الجمهورى في القاهرة بمقر القاضى عبد الرحمن الايربانى في صنعاء ، وعندما تحدث الرئيسان معا ، كان واضحا أن السادات الذى نجح في اقامة علاقات وثيقة مع كل الدول العربية يبذل جهودا مكثفة من أجل أن تتسلم المخابرات المصرية الضابط الاسرائيلى القايع بلا فائدة في صنعاء .

وفي الثانية بعد الظهر عاد المشير الى مكتبه في مبنى رئاسة المخابرات ، ورغم أن يوم الجمعة هو يوم العطلة في مصر ، الا أن رئاسة المخابرات كانت تموج بالحركة ، وفي الثانية وعشرة دقائق استدعى مدير منظمة مقاومة التجسس على عجل الى مكتب المدير . وهناك تسلم الأوامر التي كانت محصلة هذه الاجتماعات كلها .

وفي عصر نفس اليوم ، استدعى خير الصور البدين لمقابلة مدير منظمة مقاومة الجاسوسية ، وفي هذه المرة ، كلف البدين بمهمة لا تدخل

في نطاق اختصاصه . اذ أمر بأن يسافر بأقصى سرعة الى عدن ، وان يشتري عربة لاندروفر بيضاء ، وأن ينتظر معه عربته الى أن تصدر اليه الأوامر من جديد ...

وفي نفس الوقت ، كانت غواصة مصرية تابعة للسلاح البحري ، تسبح بهدوء في الأعماق شمال جزر اموانة فوق خط الاستواء . وكانت هذه الغواصة التي تحمل رقم ٦١٢ والتي يبلغ طولها مائتين وستة وأربعين قدما ، على مسافة ألف ومائتين وسبعين ميلا من دار السلام ، وعلى مسافة أربعمائة وخمسين ميلا من مضيق باب المندب . كان هدير المحركات التي تبلغ قوتها أربعة آلاف حصان يخلف همهمة مكتومة في جوف الغواصة ، وكان الصف ضابط المسئول عن اجهزة الاتصال اللاسلكي . وهو واحد من رجال البحر الأشداء ذا جبهة ضيقة وأنف مدبية يشبه سمكة الباراكودا ، مسترخيا بلا مبالاة بالقرب من جهاز الاستقبال ، وفي أقصى ركن من الغواصة ، وفي غرفة تعلو ستة أنايب تحوى في جوفها ستة طوربيدات من عيار ٥٣٣ ملم . كان القبطان مضطجعا على أريكة من الجلد البني اللون وبجواره جهاز للتليفون .

كان هذا القبطان واحدا من ضباط أعالي البحار المتمرسين ، وقد تسلم هذه الغواصة منذ أن انضمت للسلاح البحري ، في فبراير ١٩٦٩ ، وكانت هذه آخر رحلاته البحرية على الغواصة ٦١٢ ، اذ تسلم بعد ذلك غواصة من طراز « ويسكى » ، وكانت موجودة منذ عام مضى في لينجراد للإصلاح ، وأعيدت للاسكندرية في ديسمبر ١٩٧٢ .

كانت الساعة تقترب من الخامسة وأربعين دقيقة ، عندما نهض القبطان وتحدث في جهاز التليفون ، وقد أمر بأن يجرى مهندسو الآلات اختبارا للموتورات الكهربائية ، بينما كانت موتورات الديزل تعمل بكفاءة ، وكانت الغواصة على عمق ستين قدما تحت سطح البحر .

وكانت أجهزة رجع الصدى وشاشات الرادار توضح أن كل شيء على ما يرام .

وفي الساعة السادسة وعشر دقائق ، كان ضابط آخر يسرع الخطى ليستوثق من أن كل شيء على ما يرام قبل أن يقطع الى عدن . وكان البدن يتعجب وهو يتأهب للرحلة الغريبة التي كلفوه بها ، ولم يكن لديه أى مبرر مقنع ، لأن ينتزع من عطلته لكي يطير الى الجنوب ، وليشتري عربة اللاندروفر ، التي اشترطوا عليه أن تكون بيضاء .

وفي السادسة والربع ، كان الفهد هناك في صنعاء ، يترقب نهاية تلك القصة التي بدأها منذ شهر وثلاثة أيام . وكان يستعد لجولة طويلة سيرا على الأقدام ، ليصل في النهاية الى ذلك البيت المتواضع على طريق صعدة . حيث يقيم غريمه الذي ربطته به صداقة من نوع غريب ، كما طال بينهما النقاش .

فطوال الأيام الماضية ، ومنذ أن اعترف « باروخ » بحقيقة هويته ، لم يكن الحوار بين الرجلين ذا طبيعة محققة . بل كان نقاشا طويلا هدفه التعرف على أفكار الضابط الاسرائيلي السجين . كما كان بمثابة مضيفة مفيدة للوقت . الى أن تنتهى المخابرات المصرية من استعدادتها لنقله الى القاهرة .

وفيما كان الفهد ينقل قدميه في شوارع صنعاء ، كان « جاستون زين » قائد العملية على الجانب الاسرائيلي ، يستند بمرفق الى مائدة منزوية في بار هيلتون ، في أديس بابا وكان ينتظر على أحر من الجمر ، أنباء جماعة الكوماندوز التي أوفدها الى صنعاء ، والتي كانت أوامره- لها تتلخص في البحث عن مقر « باروخ » ، واغتيال حراسه والعودة به - بأى شكل - سالما ، وكانت جماعة الكوماندوز قد اكتشفت

وجود اللاندروفر . ويبدو أن الاسرائيليين قرروا التخلص من الفهد ، ثم بعد ذلك يمكن مهاجمة مقر « باروخ » .

وعلى مسافة ثلاثة أمتار من مائدة جاستون رين ، كان رجل فارغ الطول ، نحيف الجسم كما لو كان يعاني من مجاعة خاصة . يتحدث الى فتاة اثيوبية سمراء ينسدل شعرها على كتفها بنعومة غير مألوفة في افريقيا الجنوبية . ولم تلاحظ الفتاة أبدا . أن محدثها الذي يزعم أنه منتج سينمائي من أمريكا اللاتينية . يختلس النظر الى المائدة القريبة . وعلى باب هيلتون . كانت عربة صغيرة « فولكس واجن » . مؤجره من مكتب لتأجير السيارات . تقف بأنفها المقوسة وكأنها نائمة في سبات عميق . وعلى عجلة القيادة . كان أحد المصريين يقرأ في جريدة اثيوبية . رغم أنه لا يعرف من اللغة الأمهرية سوى اسمها .

وعلى مسافة بعيدة من اديس ابابا . وبحذاء الشاطئ الافريقي . كان ضباط الغواصة ٦١٢ يتأهبون لتناول طعام العشاء . وكان القبطان في غرفة القيادة أمام خريطة ملاحية للقرن الأفريقي ، وفي غرفة الماكينات سأل مهندس شاب زميله عن المسافة بين كيب تاون ونيويورك . ولما أجابه بأن المسافة ستة آلاف وثمانمائة ميلا بحريا . قطب جبينه وقال أنه يتمنى أن يذهب في رحلة سياحية الى الولايات المتحدة الأمريكية . وفي السادسة وخمسين دقيقة . أمر القبطان بأن تنحرف الغواصة عشرين درجة في اتجاه الشرق ، وكانت خطته أن يدور حول جزيرة مدغشقر حتى يتجنب المرور في بوغاز موزمبيق . وفي نفس الوقت ابطأت الغواصة وأشارت عدادات السرعة الى انها تسير بسرعة اثني عشر عقدة في الساعة . وعلى شاشة الرادار . ظهرت وحدة بحرية ضخمة على مسافة ميلين في اتجاه الشمال الغربي . ويبدو أن هذه الوحدة كانت في طريقها الى البوغاز .

وعندما اشرقت الساعة على الساعة السابعة والرابع ، غادر جاستون رين بار هيلتون وهو بادی الاكثاب وفي نفس الوقت قالت الحساء الاثيووية للمنتج السينمائي التحيل أنها تود أن تأكل شيئا ، ولدهشتها الشديدة ، اعتذر مضيفها بأدب وزعم أنه تذكر موعدا عاجلا ، وبينما كان يغادر المكان وهو يتأبط ذراعها ، ضغط على جيب سترته الأيمن وكأنه يستوثق من وجود علبة لفائقه ، وعلى الفور انبعث أزيز متقطع في « الفولكس فاجن » - ولاحظ السائق أن الضوء المنبعث من واجهة الهيلتون لا يكفي لكي يستمتع بقراءة الجريدة ، وما أن نحاها جانبا حتى ظهر « جاستون رين » على باب الفندق وأشار لمرربة التاكسي التي تقف في مقدمة عربات الانتظار . وفيما كانت عربة التاكسي المقلّة لضابط المخابرات الاسرائيلي ، في اديس ابابا ، تنطلق بسرعة صوب السفارة الاسرائيلية ، كانت الفولكس هي الأخرى تتابعها من بعيد ، وعندما هبط « جاستون رين » أمام السفارة ، لم يلاحظ ان شابا أسمر البشرة ، يرتدى زى عمال اصلاح السيارات يتسكع على الجانب الاخر من الشارع ، وكان منتج السينما المزيف ، وسائق الفولكس ، والميكانيكي المتعطل ، هم أهم ثلاثة أشخاص في جماعة العمل التي أوفدتها المخابرات المصرية الى اديس ابابا .

وفي صنعاء ، وبينما الفهد يتبادل احاديثه الممتعة مع « باروخ » ، كان رجلان آخران يتبادلان حديثا بالغ الحظورة ، فقد استدعى القاضي عبد الرحمن الابريري ، وزير داخلية ، وأبلغه أن الرئيس السادات قد اتصل به ، طالبا تسليم « الجاسوس » الاسرائيلي بسرعة الى مصر ، وفي هذه المقابلة ، قال على سيف الخولاني ، وزير داخلية اليمن ، أنه لا يمانع في تسليم « باروخ » ، ولكن بشرط أن يحاكم أولا في صنعاء .

وفي مبنى رئاسة اركان الجيش اليمنى ، كان ضابط شاب برتبة عقيد ، متوسط الطول متين البنية ذا عينين لامعتين تنمان عن خط هائل من الذكاء ، يناقش لأول مرة قضية « جاسوس » الحديدة ، وكان حادث اطلاق النار على عربة الفهد قد شد انتباهه بشكل جدى ، ولم يكن هذا الضابط الشاب ، سوى نائب قائد جيش اليمن ، الذى أصبح فيما بعد ، رئيس مجلس قيادة الثورة ابراهيم الحمدي .

وكان رأى الرئيس الحمدي أن الاحتفاظ بالجاسوس لن يفيد اليمن في شىء ، ورغم ما في محاكمته في صنعاء من مكاسب دعائية ، إلا أنه لم يوافق مطلقا على وجهة نظر وزير الداخلية ، ولأن « الحمدي » كان الرجل القوى في حكومة اليمن ، ازداد موقف أنصار تسليم الجاسوس لمصر ، في مواجهة المنادين بالاحتفاظ به ، قوة وبأسا شديدين .

وفي الساعة الثامنة والنصف من مساء نفس اليوم الجمعة ، أقدم « جاستون رين » على حماقة جديدة ، فقد أرسل رسالة بالشفرة ، عن طريق جهاز السفارة الاسرائيلية في أديس ابابا ، والتقطت أجهزة الاستماع في القاهرة ، ضمن برامج الاستماع العادية هذه الرسالة . ولدهشة الضباط الفنيين الشديدة ، اتضح أن ضابط المخابرات الاسرائيلي النابغة ، يستخدم نفس شفرة الخارجية الاسرائيلية ، ومن غير أن يكلف نفسه عناء اجراء أى تعديل عليها .

وبعد حل الشفرة ، عرض نص الرسالة على مدير منظمة مقاومة الجاسوسية ، وجاء هذا النص مطابقا لما لدى المدير من معلومات سابقة ، كما كان باعثا على الطمأنينة ، فقد أفاد « رين » تل أبيب بأن جماعة من الكوماندوز الأولى التى أقلعت من الشاطئ الآتيوبي مساء الأربعاء ، والجماعة الثانية التى أبحرت عند منتصف الليل ، لم تفيدا بأى نأ حتى الآن .

وكان معنى هذه الرسالة أن الكوماندوز الاسرائيليين ، الذين أرسلوا الى اليمن ، كانوا يملكون وسيلة للاتصال بأديس ابابا . واستنتج المصريون أن هذه الوسيلة لا بد أن تكون المحامي الاثيوبي الذى لم يكف عن المطالبة بالافراج عن السجين . والذى كان يتصل بمكتبه في أديس ابابا بمعدل يكاد أن يكون يوميا عن طريق التليفون .

وعلى الفور ، أرسلت الى القاهرة برقية الى « الفهد » . تطلب منه فيها أن يتولى بنفسه مراقبة المحامى صالح عبد القادر كبير . وكان عليه أن يتابع كل من يتصل بهذا المحامى بشكل سرى . وأن يتولى اخطار السلطات اليمنية لكى تتحقق من شخصيته . وبالفعل تمكنت اجهزة الأمن اليمنية ، من القبض على أحد اليهود اليمنيين الذى أرشد عن مخبأ سبعة من زملائه . وصدر بيان فيما بعد ، صباح السبت التاسع والعشرين من يوليو . بأن ثمانية من اليمنيين قد أعدموا . ولم يوضح البيان أية تفاصيل إضافية .

وقبل أن ينتصف ليل الجمعة ، حدث أمر لم تكن القاهرة تتوقعه في ذلك الوقت . فقد استدعت وزارة الداخلية اليمنية . السفير المصرى في صنعاء ، لمقابلة عاجلة مع الوزير . وفي هذه المقابلة . أعلن الوزير أن حكومته ، بعد أن بحثت قضية الجاسوس الاسرائيلى بحثا وافيا ، قررت تسليمه لمصر . ولهذا السبب ، فإن حكومة اليمن سوف تسلم الجاسوس لأى مندوب يرى السفير تكليفه بهذه المهمة .

كان هذا القرار مثيرا للارتباك بقدر ما كان باعثا على البهجة . فقد كان معنى تسليم مصر للجاسوس ، أن الحكومة اليمنية سوف تتخلى عن مهمة حراسته . وعندما ابلغ الفهد بالقرار في منتصف الليل ، انتابه شعور من يسبح في بحر متلاطم وهو يحمل على ظهره غريقا ثقيلا الوزن .



من هذه النقطه بالنسبة الى « باروخ » يلتقط صور الميناء

وهكذا ، جاء القرار الذى سعت من أجل صدوره السلطات في القاهرة . لكل ما لديها من طاقة . ليشكل عبئا مرهقا على الضابط المصرى الذى كان يخوض المعركة وحده في صنعاء .

وفي الساعة الثالثة صباح السبت ، الثانى والعشرين من يوليو . تمت عملية تسليم « باروخ » بهدوء ودون أية مراسم رسمية ، وقد وقع ضابط المخابرات المصرى ، الذى زودته السفارة المصرية بوثيقة اعتماد ، على ايصال باستلام « الجاسوس » ، وبعد ذلك بنصف ساعة ، اقتاد الفهد أسيره الى اللاندروفر . وفي هذه المرة ، اضطر الى اجراء غير ودى . فقد أمره أن يستدير ثم قيد يديه وراء ظهره .

وتسببت هذه الرحلة المبالغته ، في الظلام الدامس . في اصابة الاسرائيلى بالهلع ، وكان المسكين يعتقد أنه ساق الى حيث يلقي نهايته المحتومة جزاء الشرور التى ارتكبها . وعندما استقر في آخر المطاف في شقة الفهد الصغيرة عند باب اليمن طلب أن يشرب وقد جرع ثلاثة أكواب كبيرة من الماء المثلج ، وطبقا لقواعد المهنة ، لم يفصح له الفهد عن التطورات الجديدة التى طرأت على موقفه .

وفي الساعة الرابعة وعشرة دقائق كان « باروخ » يغط في نوم عميق ، بينما استرخى الفهد على مقعد من القماش في نفس الغرفة ، وكانت اللاندروفر في شارع جانبى ، على مسيرة خمسة دقائق من البيت . وفي هذا الوقت كان ضابط الصف المختص بالارسل اللاسلكى في الفواصة رقم ٦١٢ يغالب النعاس وهو يراقب اجهزته . وفتح الرجل عينيه على اتساعهما وهو لا يصدق نفسه ، فقد أضاءت في لوحة جهاز الطوارئ بقعة حمراء ، وأخذت ترسل وميضاً متقطعاً بينما انبعث أزيز حاد من مكبر الصوت ، وكان معنى هذا النشاط المفاجيء أن قيادة السلاح البحرى لديها رسالة عمليات ...

وفي الرابعة وإربعة عشر دقيقة ، التقط جهاز الإرسال نداء القاهرة .
الذى كان يتردد بانتظام ، ولأن الغواصة ٦١٢ ، كانت تحمل الاسم
الكودى « القرش » كان النداء اللاسلكى عبارة عن جملة مختصرة تتكون
من ثلاث كلمات ، القاهرة تنادى القرش ..

وفي غضون سبع دقائق ، كان ضابط الصف المذهول قد استقبل
الرسالة كاملة ، وكان عليه أن يعرضها كما هى على القبطان الذى
يحتفظ بمفتاح الشفرة . وعندما تسلل الرجل في جوف الغواصة ، وصعد
الدرج المؤدى الى غرفة القيادة ، كان القبطان يغط في النوم ..

استيقظ القبطان وهو بادى الضيق واخذ يفرك عينه ، ورمى ضابط
الصف بنظرة حائقة ولكنه انتبه عندما لاحظ في يده الرسالة اللاسلكية ،
وفيما كان ضابط الصف عائدا الى غرفة اللاسلكى ، دوى في أذنيه صوت
أجهزة الانذار الذى يشبه صوت الحية ذات الجرس . وعلى الفور استيقظ
جميع البحارة والضباط الذين كانوا في الراحة ووقف الجميع في حالة
تأهب انتظارا للأوامر .

وهكذا ، لحقت استعدادات المخابرات المصرية . بأخر مجموعة من
المصريين . يمكن أن يخطر على البال أنهم سيكلفون بأى دور . في
عملية باروخ . وكانت بداية الاحداث بالنسبة لهم . تلك البرقية
المقتضبة التى تسلمتها الغواصة عند خط الاستواء ، القاهرة تنادى
القرش

الفصل السابع

« حوار الثعالب »

أصدر القبطان أوامره فأنفتحت على الفور ثمانية عيون على كلا جانبي الغواصة ، واندفعت الى البحر خمسمائة طن من المياه على شكل ستة عشر شلال لتطفو الغواصة نحو السطح . وكانت الأوامر تتوالى عبر الميكروفونات المثبتة في الأسقف . لتدور الغواصة دورة كاملة ، ولتصل الى سرعتها القصوى ، سبعة عشر عقدة في الساعة ، فقد كانت برقية قيادة السلاح البحرى المصرى . تنص على أن يسرع القبطان بالعودة الى خليج عدن . وأن يواصل التقدم حتى ميناء الحديدية .

ان إلقاء الضوء على بعض ما يجرى ، في هذه الدنيا . في لحظة محددة ، ككفيل بأن يولد في النفس شعوراً مروعا بضالة أفق الإنسان العادى ، الإنسان البسيط المسالم الذى لا يرى من الحياة سوى القطاع الذى يحيا في بؤرته ، ففى تمام الساعة السابعة من صباح السبت الثانى والعشرين من يوليو وبينما كانت غواصة مصرية تشق الموج في اتجاه

جزيرة « سقطرى ». كان ضابط مخابرات بدين ينتظر في عدن ومعه
عربة لاندروفر بيضاء لا يعرف وجهتها ، وعلى الناحية الأخرى من
البحر الأحمر ، كان ضابط مخابرات اسرائيلى يحلق ذقنه في الحمام
الملحق بغرفته في فندق هيلتون أديس ابابا . وفي القاهرة كان ضابط
مخابرات يشبه السنجاب . قابعا في صالة السفر بمطار القاهرة الدولى .
قبل أن يقطع الى باريس . وفي باريس كانت فتاة جميلة وفاتنة . ترقد
في شقة وردية أهدتها لها المخابرات الاسرائيلية . أما في صنعاء . فكان
اثنان من ضباط المخابرات . أحدهما مصرى والآخر اسرائيلى . يتناولان
افطارا خفيفا وسط جو من الألفة . في شقة صغيرة عند باب اليمن .

كان الاسرائيلى ريزدرد طعامه ويرمق الفهد من آن لآخر بطرف
عينه . وكان الرجلان قد قضيا معا اثنى وثلاثين يوما . واستمر الحوار
بينهما متصلا لسته وعشرين يوما . وهذا الحوار يختلف عن جلسات
التحقيق التى أسفرت في النهاية عن اعتراف الاسرائيلى بأنه ضابط من
ضباط المخابرات . وليس لدى أى شك . في أن أجزاء كبيرة من هذا
الحوار . لن تنشر تحت أية ظروف على الرأى العام .

واذا ما صرفنا النظر عن الأجزاء التى تتضمن معلومات مفرطة في
السرية . فأننا نستطيع أن نتعرض بحرية كبيرة للنقاش السياسى
والعسكرى بين الضابطين . واعتقد أن هذا الحوار كان أول حوار يجرى
بين مصر واسرائيل . اذا تجاوزنا عن الظروف الصعبة التى كان فيها
ممثل اسرائيل وقت اجراء الحوار .

ورغم أن القلق الغامر كان يسيطر على الرجلين . الا أنهما حرصا على
أن يقتربا من بعضهما الى أقصى حد ممكن . وقد كان الاسرائيلى يعتقد
اعتقاداً راسخاً بأنه سيلقى نهاية محزنة على يد اليمنيين . وكان طوق
النجاة الوحيد يتمثل أمام عينيه في شخصية الفهد . وكان الفهد قلقا أيما

قلق خوفا من أن يفلت الصيد الدسم من بين أصابعه .وعندما كانت الأمور تتعقد لأي سبب . كان يخفى الحقيقة عن « باروخ » . وفي بعض الأحيان . وعندما كان التجهم يبدو واضحا على ملامحه . كان « باروخ » يطيب خاطره بمودة صادقة . ويتحدث عن متاعب « المهنة » . دون أن يتجاسر على توجيه أية أسئلة .

وليس غريبا . أن أيام « باروخ » الأخيرة في صنعاء . شهدت أطول جلسات للحوار كما كانت أكثرها ثراء . فعندما وجد الرجلان أنهما مجبران على البقاء معا في شقة « باب اليمن » الصغيرة . اضطرا الى أن يتعايث معا دون اثاره أية متاعب . وكان الفهد كريما الى حد لا يصدق مع غريمه . فقد سمح له أن يتحرك بحرية . وأشركه في اعداد الطعام . وقد حدث ذات ليلة ان ارتفعت حرارة « باروخ » بشكل خطر . فقام الفهد برعايته على خير وجه . وسهر بجوار عدوه المريض حتى مشرق الشمس .

ومن المؤكد . ان ضابط المخابرات المصرى . استخدم في استدراج زميله الاسرائيلى . ثلاثة أوتار عزف عليها ببراعة فائقة . اذ استغل عقدة « باروخ » التى أورثتها له الصدمة النفسية التى تخلفت عن تجربة الرفض . تلك التجربة القاسية التى ذاق مرارتها مع « فورتينيه » . كما أذكى في نفس غريمه الشعور بالهوان بوصفه واحدا من يهود الشرق . وفي النهاية . دفعه الى أن يفتح له قلبه . كنتيجة حتمية للمعاملة الإنسانية المبينة على الاحترام التى أسرت الأسير بصورة مذهلة .

كانت بداية الحوار بين الضابطين . بعد أن انتهى استجواب « باروخ » يوم السبت الثامن من يوليو . على أثر ملاحظة أباها « باروخ » عن جدوى الصراع بين مصر واسرائيل وبعد ذلك استطرد الى القول « بأن أى ثمن في مقابل السلام » لن يكون مبالغا فيه وأشار الى

أنه يفضل لو سمحت له الظروف بالبقاء الى جوار زوجته الحامل .
وولديه . وأضاف أنه واثق من أنه « السيد » - وهذا هو الأسم الذى ظل
ينادى به الفهد - لديه في القاهرة ما هو أمتع من مواصلة القتال .
خصوصا وان هذا القتال . لن يجد نصيبه من الاطراء العلنى .

وقال ضابط المخابرات المصرى . أنه يفضل هو الآخر دون أدنى قدر
من الجدل الحياة الهادئة بعيداً عن متاعب الحرب « سواء كانت علنية
أو سرية » ولكنه أضاف أن المفاضلة بين السلام والحرب قائمة على
مغالطة مفرطة في السذاجة فلا بد من القضاء أولاً على مسببات العداء
وبعد ذلك لن يكون أى من الجانبين في حاجة الى مجرد اقناع الطرف
الأخر . بالفوائد الكامنة في السلام .

وعلى الفور أجاب « باروخ » بأنه يقتنع تماما بمنطق محدثه الا أنه
هناك حقيقة يجب أن توضع في الاعتبار . وتتلخص تلك الحقيقة في أن
الشعوب هى التى تدفع وتحمل أعباء الحرب بينما القدرة على ازالة
مسببات العداء مقصورة على الصفوة الحاكمة سواء في مصر أو اسرائيل
« وأنه يرى » استناداً الى تلك الحقيقة ان خطوات السلام الأولى لا بد وأن
تترك انطباعاً لدى أى طرف من الطرفين بأنه قدم تنازلات جوهرية
وعلق ضابط المخابرات المصرى « بأن هذا القول ينطبق على اسرائيل
وحدها » أما في مصر فان الأمور تتخذ وضعاً عكسياً . اذ ان الصفوة
الحاكمة . تجد نفسها مضطرة في أحيان كثيرة الى التشدد تحت ضغط
الرأى العام وحتى عندما تكون الحسابات المجردة في صالح المرونة
السياسية . وينطبق ذلك على كل الدول العربية وبرر الشعور بالكراهية
الذى يسود الشعوب العربية تجاه اسرائيل . بأنه وليد الشعور بالظلم من
ناحية . ومن ناحية أخرى بسبب الاعتقاد بان دعاوى السلام ليست
صادقة .

وقال ضابط المخابرات الاسرائيلي « أن الجانبين تقاتلا بالاسلحة البيضاء سنة ١٩٤٨ » وفي سنة ١٩٥٦ استخدم السلاح الجوي والدبابات ، وفي سنة ١٩٦٧ تطورت الاسلحة تطوراً مخيفاً ، وتساءل عما اذا كان من المفيد ان ننتظر الى ان يتقاتل الطرفان بالاسلحة النووية وأجاب ضابط المخابرات المصرى . بأن ذلك لا يشكل أى تهديد للشعب العربى « لاننا لن نكون الطرف الذى سيفنى في هذه الحالة » وأضاف ان مأساة اسرائيل تكمن في أنها لم تتحمس لدعوى السلام الا عندما فشلت في تحقيق أهدافها عن طريق الحرب .

وقال الاسرائيلي أنه يتعجب للموقف المصرى المفرق في المثالية وسأل عما اذا كان في الإمكان تحمل النتائج التى تنجم عن تحالف مصر واسرائيل في منطقة غنية بشكل خرافى وأجاب المصرى بأن المشكلة تنحصر في اختلاف نظرة الجانبين الى الأمور ومرد ذلك الى طبيعة الشخصية اليهودية التى تختلف اختلافاً بيناً عن الشخصية المصرية . وأضاف ان الاسرائيلي يشعر بالقلق ويتوجس خيفة من المستقبل رغم أنه انتصر في ثلاث حروب وسأل . هل تعتقد ان شعباً تعاني غالبية العظمى من الأحاساس بالتخلف . ازاء اقلية وفدت من الغرب . يمكن أن يقيم علاقات متزنة مع جيرانه .

وأقر باروخ بأن يهود الشرق يلاقون معاملة من الدرجة الثانية بالفعل . ولكنه قال ان هذه التفرقة سوف تذوب بمرور الوقت . عندما يصبح كل الاسرائيليين « سابرا » . وعندما يصبح الوطن الأصلى مجرد ذكرى تحتفظ بها الأسرة . وقال ان العرب ينظرون الى اسرائيل كما لو كانت كلها بن جوريون وشاريت . مع ان جيلا فتيا قد حل محل « الحرس القديم » ولدى هذا الجيل مفاهيم تختلف تماماً عن المفاهيم التى كانت سائدة وقت حرب سنة ١٩٤٨ .

وقال « الفهد » ان الجيل الذى خلف « الحرس القديم » يضر العدا للعرب ربما أكثر من القدامى « الست تقصد دايان واللون وييريز . يجب ان يخفى هؤلاء أولا من فوق المسرح ويجب أن يتصرف من يأتى بعدهم بشكل مغاير ، لقد تبنا نظرية تهدف الى ابادة الشعب الفلسطينى « لكى يقفوا ويصرخوا في وجه العالم . اذا كان علينا ان نعيد الأراضى ، فلن نفيدنا ؟! وعلى من يحل محلهم ان يعى سقوط هذه النظرية ، وان يكون على استعداد للتعايش مع الفلسطينيين داخل الدولة ، ومع العرب في المنطقة كلها .

وقال « باروخ » أنه يقصد الجيل الجديد في الشارع قبل الحكومة . وان الشبان والشابات في الكيبوتز وفي المستوطنة وعلى الجدود يريدون ان يعيشوا في سلام . يريدون ان يتزوجوا كما فعلنا نحن . اننى اعتقد أنك متزوج ايها السيد ، ان مستقبل هؤلاء بما فيهم ولدى يبدو كئيبا .

وقال « الفهد » أن اغرب تناقض يكمن في مثل هذا القول . فأنتم الذين بدأتكم بصرف النظر عن مدى عدالة مطلبكم في إقامة الدولة . شئ منفر ان تبدأ بالقدوم الى المنطقة ليس بدعاوى السلام كما تفعلون الآن . ولكن بعصابات منظمة لقد انتصرتكم ومع ذلك تشككون في المستقبل ، هل تعرف معنى ذلك ؟ معناه ان الانتصار لم يكن محصلة قدراتكم وحدكم . ثم انكم جلبتم الاستقطاب الى هذه المنطقة .

وقال « باروخ » ان اسرائيل بطبيعتها ليست من انصار الاستقطاب ، وأنها وجدت نتيجة جهود الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة معا . اننا نختلف عن مصر ايها السيد فنحن في حاجة الى الولايات المتحدة من أجل السلاح والمال . هناك سندات لليهود الامريكيين ايضا . ونحن في حاجة الى الاتحاد السوفيتى لان المخزون البشرى فيه هو امل اسرائيل . ان أكبر جاليتين يهوديتين تعيشان في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

وهؤلاء الذين استقروا في الولايات المتحدة لن يهاجروا ابدا الى اسرائيل .
هناك يتمتعون بمستوى لا نستطيع ان نحققه لهم ، ولا يبقى لنا سوى
الذين يعيشون في الدول الاشتراكية .

وقال ضابط المخابرات المصري . أليست الشخصية اليهودية بطبيعتها
التي تتميز بانعدام التراث الحضارى . والانتهازية الشديدة ، هى المسؤولة
عن ان اسرائيل منحازة الآن للولايات المتحدة ، دعنا ننظر الى القادة في
اسرائيل لنكتشف هويتهم الاصلية . بن جوريون وهوروتيز وشايرا
ولافون وساير وجاليلي وييريز جاءوا من بولندا ، كابلان وشاريت
واشكول ومائير وآران جاءوا من روسيا ، حتى الذين ولدوا في اسرائيل
معظمهم من أصل روسى ، ايجال آللون جاء أبوه روفين بيكوفيتش من
روسيا . ودايان جاء أبوه شموايل دايان من روسيا أيضا
وقال « باروخ » مقاطعا ، أنه لم يكن يعتقد ان شيمون بيريز
بولندى . بل كان يظنه مسابرا ، فهو يتحدث العبرية بطلاقة كما أنه
نجح في اقامة علاقات وثيقة مع فرنسا .

وقال الفهد ان بيريز ولد في بلدة « فولوزن » بروسيا البيضاء سنة
١٩٢٢ وأن اجادته العبرية ترجع إلى ألف أسرة يهودية كانت تعيش في
مسقط رأسه وكانت تتحدث العبرية كما أنه وصل الى اسرائيل في سن
مبكر اذ كان في العاشرة من عمره .

وابدى « باروخ » دهشته لان أحد المصريين يعرف مثل هذه
التفاصيل عن حياة رجل من الصف الثانى في اسرائيل ، وبعد ذلك قال
ان اسرائيل كانت تخنقها ازمة اقتصادية سنة ١٩٥٠ فطلبت عون اصدقائها
السوفييت . ولكنهم تباطؤوا ثم رفضوا في النهاية . كان موقفهم مشيرا
للفزع فقد امدونا بالاسلحة التى مكنتنا من النصر في حرب سنة ١٩٤٨ .
وكانت نواة سلاحنا الجوى من تشيكوسلوفاكيا ومع ذلك رفضوا ان

ينقذونا وقت الشدة ، ولذلك اتجهنا الى الولايات المتحدة . وفيما بعد تمكن بيريز من تغيير موقف الفرنسيين . ان فرنسا اتخذت موقفا غير ودي أثناء مناقشات سنة ١٩٤٧ في الأمم المتحدة ، ومع ذلك ، نجح بيريز في أن يحصل على السلاح الفرنسي لمدة اثنتى عشر سنة . ومن المؤسف ان ديجول عاد الى معاداة اسرائيل سنة ١٩٦٧ .

وقال ضابط المخابرات المصرى ان الاعتماد على الولايات المتحدة مرهون بمصالح الولايات المتحدة نفسها . « لقد كنتم الورقة الرابعة عندما كان المد الشيوعى يزحف في آسيا ، ولكننا نعتقد أن الموقف سوف يتغير بخدة ، فقد وصل الشيوعيون الى نوع من التوازن في آسيا وهذه القارة محصورة بين الصين والاتحاد السوفيتى . بالإضافة الى ثورة اللاعنف التى قادتها الهند ولاشك أن قارات العالم معروفة لى ولك . فما هو ميدان نشاطهم القبل ؟! لقد وصلوا الى نوع من التوازن ايضا في أوربا وجربوا الاقتراب من امريكا اللاتينية ولكن الأمريكيين واجهوا الموقف بشى من التهور ، لم يبق أمامهم سوى أفريقيا ، وعندما يبدأ الزحف الشيوعى على أفريقيا لن تكون اسرائيل - باى حال - هى الورقة الرابعة !! » .

وعلق « باروخ » بأنه يوافق تماما على هذا التحليل . مع ما يحمله في طياته من تنبؤ بالمستقبل . وفي نفس الوقت كشف سرا كان طوى الكتمان فقد اضاف ان المخابرات الاسرائيلية ، أجرت بحثا مستفيضا عن التغيرات المحتملة في المنطقة بمجرد ان تولى السادات زمام الأمور في مصر وأن هذا البحث اسفر عن الاقتناع بأن السادات سوف يشن حربا شرسة ضد اسرائيل وأن هذا الاقتناع بنى على دراسة شخصية السادات منذ أن كان ضابطا في الجيش ، ولكنه أضاف ان تقدير الباحثين يؤكد ان مصر لن تستطيع الهجوم قبل عشر سنوات ، وتساءل « باروخ » اننا نخشى -

بل اننا نرتجف - من مجرد التفكير في تصور الموقف لو ان مصر . وهى أقوى دولة عربية عسكريا تحالفت مع السعودية صاحبة أقوى مركز بترولى ليس في العالم العربى فقط بل في العالم كله أيضا .

ويسأل ضابط المخابرات المصرى هل تعتقد ان اسرائيل تستطيع تحمل هزيمة عسكرية ؟! وأجاب « باروخ » بأن اسرائيل تستطيع تحمل الهزيمة اذا وقفت معها دولة كبرى لقد وجدنا من العدم وبإمكانهم ان يعيدوا الدولة الى الوجود مهما كان حجم الهزيمة . وعلق الفهد على هذه الإجابة بأنها أشبه بأحلام اليقظة ان الهزيمة الأولى لن تكون سوى مقدمة . ألم تقرأ ما كتبه أنبياؤكم - أقصد زعماءكم الذين يدعون أنهم ملهمون - لقد أكدوا جميعا ان نهاية اسرائيل تكمن في أول انتصار محدود يحرزه العرب .

وسأل « باروخ » عن حجم اطلاع « السيد » على ما يكتبه القادة في اسرائيل . واجاب ضابط المخابرات المصرى - في محاولة لابهار خصمه على ما اعتقد - بأنه قرأ كتابين لليفى اشكول أحدهما بعنوان « على الطريق » والآخر بعنوان « آلام الاستيطان » وقرأ لهووتيز كتاب « اقتصاديات اسرائيل » وقرأ لشاريف كتاب « أيام ثلاثة » الذى يعد بمثابة تقرير مفصل عن المرحلة السابقة لاعلان الاستقلال . وقرأ لديان « يوميات سيناء » و« الخريطة الجديدة » و« علاقات أخرى » وقرأ لايان كتاب صوت اسرائيل وكتاب « تيار القومية ثم شعبى » قصة اليهود . وقرأ ليادين كتاب « الماسادا بين الماضى والحاضر » . وقرأ لآللون « ستار من الرمال » و« درع داوود » وقرأ لبيريز كتاب « المرحلة القادمة » .

وقال « باروخ » ان اعجابه لاحد له لسعة اطلاع « السيد » . وسأل عن الشخصية التى تركت كتاباتها اثرا طيبا في نفسه . واجاب الفهد

بأنهم جميعا متساويين من حيث النظرة العنصرية والتعصب والعداء
السافر للعرب . ثم سأل اذا حدث وحلت الهزيمة بإسرائيل فمن الذى
سيقفز الى السلطة ؟!

وأجاب « باروخ » أن هزيمة واحدة لا تكفى للإطاحة بمائير أو
دايان . الا اذا دخل الجيش المصرى تل أبيب . وأشار الى ان عبد الناصر
هزم مرتين في سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ومع ذلك بقى على رأس الدولة .
وقال الفهد أنه يعتقد ان بيريز اوراين لا بد ان يخلفا دايان ومائير . ان
بيريز هو أقرب الاسرائيليين الى دايان كما أنهم أصدقاء . ومع ذلك فان
دايان اختار زفى تسور بدلا من بيريز عندما تقلد وزارة الدفاع أما
رايين فتربطه أوثق العرى بالولايات المتحدة . لذلك سيكون منطقيا ان
يجيء به الاسرائيليون الى السلطة . ولكن المشكلة أننا لا نثق في
الاثنتين .

والتقط ضابطا المخابرات الاسرائيلي الخيط وسأل باقتضاب : بمن
تثقون اذن ؟!

وأجاب ضابط المخابرات المصرى وهو يتسم : بالطرف الذى سيأس
من الحرب .

وقال « باروخ » أنه يعتقد ان أى حرب قادمة ستسفر عن آلام اشد
قسوة من أية آلام سابقة وأضاف أنه يعتقد ان اسلوب السادات يختلف
اختلافا جوهريا عن اسلوب عبد الناصر . لأنه من النوع الذى يقاتل بعد
ان يتأكد من ان ذيل عدوه في فمه !

وسأل الفهد باندھاش عن معنى عبارة « باروخ » الأخيرة فأجابه
بأن شخصية السادات وقدرته الفائقة على المناورة . ستفرض على اسرائيل
مشقة التنبؤ بخطوته المقبلة « لقد اغلق عبد الناصر خليج العقبة سنة

١٩٦٧ ووضع جيشه كله في الصحراء . ولكن السادات سيتصرف بأسلوب
مغاير » .

وقال ضابط المخابرات المصرى . ان اغلاق خليج العقبة جاء في
اعقاب الحشود الاسرائيلية على الحدود السورية وعلق « باروخ » بأن
الاتحاد السوفيتى هو الذى جر عبد الناصر الى معركة خاسرة !! وكشف
سرا جديدا عندما قال ان ايجال آللون زار موسكو قبل حرب سنة ١٩٦٧
وبقى هناك الى ان التقى بكوسيجين . وانه عاد من موسكو في اول يونيو
وذهب مباشرة الى فندق الملك داوود . وهناك التقى بأشكول . وأبلغه
بضرورة شن الحرب !!

وقال « باروخ » أنه يعتقد ان الاتحاد السوفيتى كان يأمل في هزيمة
عبد الناصر - ليربط مصر بعجلة السياسة السوفيتية من ناحية . وليقضى
على أى أمل في الوحدة العربية من ناحية أخرى وسأل عما اذا كان
« السيد » قد قرأ لينين ثم استطرد لقد قال لينين ان الشيوعيين عندما
يصبحون قوة فان أى نزاع محلى ينشب بين دولتين صغيرتين سوف
يؤدى الى ان تلجأ الأمة المقهورة الى الشيوعيين طلبا للمساعدة وان على
الشيوعيين ألا يناصروا الأمة المقهورة ضد الأمة القاهرة . لان النزاع بين
الدولتين ليس سوى نزاع بين البرجوازية في كل منهما على الأسواق
ويجب ان يكون واجب الشيوعيين ان ينصروا « البروليتاريا » في
الدولتين . لتستولى على السلطة من يد البورجوازية الحاكمة !!

وقال « باروخ » أنه سمع القصص التى تردت بعد الحرب والتى
تدور كلها حول ان الاتحاد السوفيتى ارتضى هزيمة مصر في مقابل
الحصول على صور التقدم الذرى وصناعة الصواريخ الصينية وقال الفهد ان
من الصعب تصور شكل الحرب القادمة بين مصر واسرائيل فرد
« باروخ » بأنه يعتقد ان السادات سوف يعمل على زيادة قواته الجوية

بأى ثمن . وإن هذه الزيادة ستقترن بزيادة مماثلة في حجم قواته الخاصة . ولأنه يملك سلاحا بحريا متفوقا ، فإن من المتوقع ان يهاجم ساحل سيناء الشمالى بعد ان يلقى وراء خط التحصينات الاسرائيلى بأكبر عدد من قوات المظلات .

وسأله الفهد عما اذا كان هذا التصور وليد الاستنتاج الشخصى . أو نتيجة لفكرة تعتنقها المخابرات الاسرائيلية فأجاب « باروخ » : الأثنين معا .

وسئل « باروخ » عما اذا كان يعتقد بأن مواقف الدول الكبرى ستغير في حالة نشوب حرب جديدة . فأجاب بأنه يتوقع مثل هذا التغيير لأن السادات تربطه صداقات حميمة بفرنسا وألمانيا وهو محبوب في أفريقيا . وقد تمكن من اقامة روابط وثيقة مع الدول العربية ذات التأثير . وليس بمقدور أى من الدول الكبرى . سواء الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى أو الصين ان يتجاهلوا زعيما له مثل هذا الوزن ، وفي نفس الوقت . فان التشدد الاسرائيلى ونعمة احتضان العالم التى بدأت تتردد بشكل علنى لابد وان تسفر عن فتور في حماس أصدقائنا التقليديين .

وقال « باروخ » ان المشكلة الوحيدة التى تبعث الأمل في قلوب الاسرائيليين . والتى تواجه السادات بحده . هى مشكلة الأسلحة « لأن الاتحاد السوفيتى ينظر اليه بارتياح . كما أن الغرب لن يقدم له الأسلحة ليبيد اسرائيل » . وعن علاقة الولايات المتحدة باسرائيل قال « باروخ » أنها كانت مثبطة للآمال في الاربعينات ، ولكن الرئيس ترومان بدأ في التحول تحت ضغط أحد أصدقائه اليهود .

قال الفهد مقاطعا : أيدى جاكسون - لقد كان زميلا سابقا لترومان من كنساس سيثى وقد ألح عليه ان يلتقى بوايزمان وعندما اجتمعا في

ربيع سنة ١٩٤٨ تمكن وايزمان من اقناع ثرومان باقامة الدولة اليهودية . ومنذ ذلك التاريخ بدأت جماعات الضغط اليهودية تعمل في الولايات المتحدة لعرقلة سياسة وزارة الخارجية الامريكية الموالية للعرب . وقد حصلت على أول قرض من الولايات المتحدة سنة ١٩٤٩ وكان مائة مليون دولار . وفي يناير سنة ١٩٥١ حصلنا على قرض قيمته ٣٥ مليون دولار . وفي يونيو سنة ١٩٥١ و يونيو ١٩٥٢ حصلنا على منحتين الأولى قيمتها ٦٣,٥ مليون دولار والثانية ٧٠ مليون دولار . وقال « باروخ » ان الجهود الاسرائيلية لم تنجح رغم مساندة اليهود الامريكيين في الحصول على الاسلحة طوال الخمسينات من الولايات المتحدة . كما فشلت كل الضغوط التى بذلك لتستخدم الولايات المتحدة نفوذها لضمان حرية مرور السفن الاسرائيلية في قناة السويس .

وقال « باروخ » ان الضغط اليهودى يتخذ شكل احتجاجات واجتماعات ومظاهرات وبيانات في الصحف الكبرى . وبالإضافة الى رسائل الى أعضاء الكونجرس . كما أننا نحرص على وضع البيت الأبيض تحت أعنف تيار ممكن من الدعاية !

واعترف « باروخ » بأن التأثير اليهودى قد تقلص بشكل فعال في ظل حكومة نيكسون . وقال ان المظاهرات الضخمة التى قامت بها المنظمات الصهيونية في امريكا أثناء زيارة ديجول سنة ١٩٧٠ لم تمنع الرئيس نيكسون من اتخاذ قرار بارجاء صفقة طائرات كانت اسرائيل تلح من أجل عقدها .

وقال « باروخ » ان نيكسون سلم البيان الخاص بارجاء الصفقة الى « ماكس فيش » احد الدعاة الاقوياء لصالح اسرائيل ، وطلب منه ان يشرح الأسباب التى حدثت به - أى نيكسون - الى اتخاذ هذا القرار . للاصدقاء الاسرائيليين وتساءل « باروخ » عن العواقب الوخيمة التى قد

تنجم عن تحول سياسة الولايات المتحدة لأي سبب . وقال ان اسرائيل سوف تجد نفسها في موقف لا تحسد عليه . وردد ضابط المخابرات الإسرائيلي قوله موسى دايان الشهيرة : « ان مفتاح الحرب في يد الاتحاد السوفيتي . أما مفتاح السلام ففي يد الولايات المتحدة الامريكية !
وسئل « باروخ » سؤالاً مباشراً عما اذا كان قد زار جبهة القناة فأجاب بالإيجاب . وقال أن مشكلة اسرائيل الرئيسية تكمن في خط بارليف لقد تحولنا من الهجوم الى الدفاع الثابت . ورغم أننا نثق ثقة كاملة في قوة تحصيناتنا الا أننا نعتقد ان من المستحيل مواجهة المصريين في مواقع ثابتة . واذا نشبت الحرب من جديد فلا بد ان نهجم بقوة .

وفي اجابته على سؤال مباشر عن الحالة المعنوية لجنود الجيش الاسرائيلي في تحصينات سيناء قال « باروخ » : « أنك لا تستطيع أن تأمر الجيش بالبقاء الى الابد على حافة الصحراء . كما ان وضع هذه الصحراء متميع للغاية . فنحن لا نستطيع أن نقول لهم هذه ارضكم . وفي نفس الوقت لا نستطيع التقليل من أهميتها . لذلك تنحصر جهود الجيش من الناحية السيكلوجية في مطالبة الجنود بالدفاع بقوة عن مواقعهم .

وفي فقرات الحوار التي تناولت شخص « باروخ » قال أنه يتوقع أن تجرى محاكمته في اليمن وان كان يعتقد أنكم سوف تعملون على نقله الى القاهرة فهناك يمكن المساومة به . كما ان استجوابي سوف يكون مفيداً .

وقال « باروخ » ان المخابرات الاسرائيلية سوف تسلك بكل السبل لاطلاق سراحه أما اذا فشلت . فإنه يتوقع أن تلجأ الى المساومة . وسأله الفهد : الا تتوقع أن يحاولوا التخلص منك ؟! وأجاب بأن ذلك ليس

مستبعدا وان كان مجرد احتمال خصوصا وأنهم لا يعرفون اين هو بالتحديد .

وأبدى « باروخ » في مواضع عدة أسفه البالغ لأنه سقط على أيدي اليمينين ، وأضاف أن حادثته تحمل في طياتها دلالة بالغة الخطورة على صدق النظرية التى تقول ان العرب سوف تتوفر لهم المعرفة وإن تفوقهم البشرى سوف يكون في هذه الحالة كفيلا بالقضاء على اسرائيل .
وأثناء جلسات الحوار أفصح « باروخ » عن قلقه البالغ على أسرته ، وكان ملهوبا على معرفة أنباء زوجته الحامل . وفي بعض المواضع : توضح فقرات الحوار أنه كان على استعداد لأن يقدم أى مقابل في سبيل السماح له بأرسال خطاب لزوجته .

وفي الأيام الثلاثة التى مرض فيها « باروخ » وارتفعت حرارته بشكل ملحوظ . كان الحوار كله حول متاعب المهنة . وحجم التعويضات التى تدفعها المخابرات الاسرائيلية في مثل هذه الحالات . وبمجرد تماثله للشفاء عاد الحوار بين الرجلين من جديد ، وتكشف يوميات العهد عن تدفق مثير في معلومات « باروخ » .

وكانت أهم فقرة في هذه المعلومات خاصة بمهمة « باروخ » الحقيقة في اليمن . وقد نفى بشدة أن تكون المخابرات الاسرائيلية قد أوفدته الى اليمن لمجرد القيام بعمل تافه يستطيع أى عميل أن يقوم به . وبعد مزيد من الحوار اعترف بأنه زار الجزر التى تقع عند مدخل البحر الأحمر . وسأل العهد ضابط المخابرات الاسرائيلي الذى كان منهارا بشكل لا يوصف عن فائدة جمع المعلومات عن مثل هذه الجزر . فأجاب بأن المخابرات الاسرائيلية تعتقد ان المصريين سوف يغلقون خليج العقبة

من أبعد نقطة في البحر الأحمر عند باب المندب في حالة نشوب حرب
جديدة .

وكان هذا أول اعتراف صريح من باروخ بأهمية باب المندب . وفي
نفس الوقت . كان هذا هو آخر جزء من أجزاء الحوار الذي دار بين
الرجلين طوال المدة التي قضياها في اليمن معا . فالذي حدث بعد ذلك
ان السنجاب ضابط مقاومة الجاسوسية العتيد . ظهر فجأة في صنعاء .

« الفصل الثامن »

« السنجاب يقفز فوق المسرح »

كان وصول السنجاب الى صنعاء . بمثابة مفاجأة مذهلة . لكل الأطراف بلا أى استثناء . فمتذ أن حصل ذلك الضابط المتمرس على موافقة المشير أحمد اسماعيل . بأن يتوجه الى اليمن . وضباط رئاسة المخابرات والرؤساء في منظمة مقاومة الجاسوسية . يتوقعون أن يعود السنجاب من باريس . يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من يوليو . ثم يقلع بعد ذلك نحو الجنوب .

ولكن ما أقدم عليه السنجاب كان عملاً فريداً بكل المقاييس . فقد تصرف الرجل وفق تقديره الشخصي . ودون أن يرجع الى رئاسته . ومن وجهة نظره . كانت « حالة » باريس لا تستحق أى تعجل . لذلك اكتفى بقضاء ساعة واحدة في العاصمة الفرنسية . ثم استقل الطائرة في رحلة طويلة . مروراً بلندن . الى أن هبط في صنعاء .

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء الأحد الثالث والعشرين من يوليو . عندما طرق السنجاب باب الشقة التي كان يقيم فيها ضابط

المخابرات المصرية . ومعه أسيره . في حى باب اليمن . وكان الانسان الوحيد في هذا العالم . الذى يعرف الطريق الى هذه الشقة . هو الدبلوماسى المصرى الذى كان همزة الوصل بين الفهد والسفارة المصرية في صنعاء . ولم يكن الفهد يتوقع صديقه في ذلك الوقت . لذلك أمر « باروخ » بأن يختفى في المطبخ . ثم فتح الباب ويده فوق مسدسه . وأمام الباب . كان السنجاب يقف بوداعة . وهو يتسم . وكانت ملامحه تنم عن توقع اندهاش تلميذه الذكى . وعلى الأرض . كانت ترقد « هاندباچ » صغيرة هى كل ما جاء به معه من متاع . وتزاحمت كلمات الترحيب على شفتى الفهد وهو يدعو معلمه القديم الى الدخول . كان السنجاب يرتدى فائلة رمادية فوق . بنطلون أزرق . ورغم أنه تجاوز الخمسين . إلا أنه . كان يبدو كشاب عائد لتوه من أحد الأندية الرياضية . وقد انحنى برشاقة وحمل حقيبتيه ثم دخل الى الصالة بخطوات تنم عن الثقة المفرطة بالنفس . وبظرة خاطفة مسح المكان بعينه . ثم رمق مضيفة بنظرة تساؤل صامته .

وليس ثمة شك في أن الفهد . كان يقطر سعادة وهو يستقبل السنجاب . فقد كان يعرف قبل أى مخلوق آخر مغزى قدومه الى صنعاء . وبينما كان السنجاب يلقي حقيبتيه فوق مائدة تتوسط الصالة . أشار الفهد بذقنه في اتجاه باب المطبخ . حيث كان يختفى ضابط المخابرات الاسرائيلى . وعلى الفور . أصدر السنجاب أمرا قصيرا . وبصوت هامس . لكى يحضر الفهد أسيره .

ومن المؤكد أن « باروخ » . كان أشد من الفهد احساسا بالدهشة . لظهور السنجاب فقد كانت هذه أول مرة . يسمح له فيها بأن يرى زائرا . ومنذ اللحظة الأولى للقاء . وتصرفات الضابط الاسرائيلى تكشف عن ادراكه . لحقيقة ان هذا الكهل . الاحمر الوجه الهادئ الملامح . ليس

سوى ضابط مخابرات لا يمكن تجاهل خطورته . ولعل هذا هو سبب ارتبائه في البداية . وان كان قد تمكن من أن يتمالك نفسه بسرعة . وأحنى رأسه بالتحية .

أجاب السنجاب بإيماءة خفيفة وازدادت ابتسامة اتساعا . وسأل الأسير عن أحواله على سبيل المجاملة . ولأن المائدة لم يكن بجوارها سوى مقعدين . احتل هو أحدهما . فقد أمر « باروخ » أن يجلس على المقعد الخالي . وبقي الفهد واقفا !!

كان المشهد رهيبا بدرجة غير عادية . وقد شد « باروخ » نفسه بأدب جم فوق طرف مقعده . بينما كان السنجاب يفحصه بعينه اللامعتين من وراء عدسات نظارته . أما الفهد فقد ظل جامدا للحظات ثم دخل الى غرفة وعاد بمقعد من الصاج . وجلس هو الآخر بين الرجلين .

ولأن « باروخ » كان يرتدى « بيجامة » واحدة . منذ أكثر من عشرة أيام . كما أن لحيته كانت نابته . سأل السنجاب الفهد عن سبب عدم العناية بمظهر أسيره . وأجاب الفهد بأنه أمره منذ أن جاء الى الشقة بأن يغسل ثيابه . وأنه غسلها بالفعل . ولكنها لم تجف بعد . أما ذقنه . فقد أعلن أنه يفضل تركها دون حلاقة . ولم يجد الفهد ضرورة لأن يجبره على شيء لا يروق له .

- لقد جئتكم بأنباء سارة .

هكذا هتف السنجاب وهو ينزع نظارته من فوق عينيه . ورغم أن هذه العبارة كانت موجهة « لباروخ » . الا أنه لم يعلق بل أرسل بصره الى الفهد . فواصل السنجاب حديثه - كانت زوجتك في « ايخيلوف » .

اخترقت كلمة « ايخيلوف » سمع « باروخ » فانتبه . ومرت ثوانى بدا عليه خلالها انطباعه يوحى بالارتياح . ثم تقلصت سحته كما لو أن

تيارا كهرييا سرى فى جسده بقوة . بعد ذلك تدلت شفته السفلى ببلاهة
وأسرع صوت تنفّسه ثم سأل بصوت متحرج :

- هل تعنى زوجتى يا سيدى ؟!

- زوجة من اذن . نعم زوجتك .

- هل رأيتها يا سيدى ؟!

لم يكن من المقبول أن يوجه « باروخ » الأسئلة . لذلك أشاح
السنجاب بوجهه ثم واصل الحديث . وعرف « الأسير » أن زوجته أجرت
بعض التحاليل الطبية فى مستشفى ايخيليوف وأن ولديه بصحة جيدة .
وقال السنجاب أن الاطباء يتوقعون أن تلد « مارجريت » - زوجة
« باروخ » - فى الأيام الأولى من أغسطس .

كذلك ذكر السنجاب أن أخت « باروخ » وأخاه فى حالة طيبة . وأن
غيابه كل هذا الوقت قد أثار قلق الاسرة . ولكن المخابرات الاسرائيلية
اتصلت بالاسرة وطمأنتهم . وكانت كلمات السنجاب تكشف عن الدقة
النهائقة التى كانت أجهزة المعلومات تقدم بها المعلومات الخاصة بأقارب
الضابط الأسير .

- أن ذراعك طويلة أيها السيد .

ابتسم السنجاب وهو يستمع الى تقرير طخمه . وبهدوء قائل
استرسل فى سرد ما لديه من أنباء دون أن يبدو عليه أى شعور بالزهو .
وقال السنجاب أن اسحق ابن « باروخ » يبدو وكأنه لم يفتقد والده أما
شير فكان مكثنا الى أن طمأنته أمه .

- هل تستدعى هذه المعلومات ذراعا طويلة يا بنى .

هكذا سأل السنجاب باستنكار وكأنه يسأل واحدا من تلاميذه .
التلميذ هذه المرة من معسكر العدو ولكنه مجرد ضابط مبتدئ . عندما

يجمع جهاز للمخابرات معلومات عن المدنيين . في أى بقعة في العالم .
فان ذلك ليس عملا صعبا كما لا يعد باعثا على الفخر .

وعندما جاء دور الفهد لكى يتكلم قال أن « باروخ » تعاون معه
بشكل فعال وعدد المعلومات التى أفضى بها . ولما ذكر أسماء الضباط
التى أولى بها التفات السنجاب نحو « باروخ » وهو يتسم . ولكنه أطرق
برأسه فجأة وأخذ يحك أنفه بياطن يده مثل أى سنجاب حقيقى .
- ولكنه لم يذكر شيئا عن يونس ؟!

همس السنجاب بهذه الكلمات ولكن الغضب كان واضحا في نبراته .
ورغم أنه كان يوجه الحديث الى الفهد الا أن « باروخ » كان يرتجف .
وبعد أن تقل بصره أكثر من مرة بين الرجلين سأل بصوت مرتعش :
- يونس ؟! من يونس ؟!

- يونا بندمان ... !!

نسقت الكلمة الاخيرة كالقذيفة وأحدثت دويا مكتوما فوق المائدة .
فضابط المخابرات الثلاثة . الجالسون في مواجهة بعضهم . يعرفون أن
يونا بندمان - ويونا تعنى يونس في اللغة العبرية - هو المسئول عن
النشاط المصرى في المخابرات الاسرائيلية . ولم يكن « باروخ » قد أشار
اليه من قريب أو بعيد .

لم أتعمد اخفاء اسمه أيها السيد ... يجب أن تصدقنى .

خرجت الكلمات من جوف « باروخ » وكأنها تنبعث من قاع بئر .
وكان وجهه ممتعا بشكل ملحوظ . وكان ينظر الى السنجاب بتوسل .
ولكن ضابط مقاومة الجاسوسية الصلب ظل جامدا . وكان وجهه قد
اكتسى بقناع بارد ترتسم عليه مشاعر الاختقار والإشمئزاز والغضب .
ولكنه عاد الى الابتسامه بهدوء واستطرد :
- ودافيد جيداليا ؟!

وبدلاً من أن يرتعد ماروخ أبتسم . وأعلن أنه لم يسمع هذا الاسم من قبل . ولكن السنجاب ظل يتأمله بتشكك . فأقسم « باروخ » أن هذه أول مرة يسمع فيها إسم دافيد الملعون هذا . واتجه نحو الفهد وكأنه يستنجد به .

وفي هذه اللحظة مال الفهد برأسه نحو السنجاب . ودار بين الرجلين حديث هامس لم يسمع منه « باروخ » الذي كانت أذنه على مسافة سنتمترات . حرفاً واحداً منه . وانتشع الغضب غن ملامح السنجاب وحل محله شعور بالارتياح . وكان الفهد قد أسر إليه بأن دافيد جيداليا هو المسؤول عن الجبهة الجنوبية في المخابرات العسكرية . وأن « باروخ » لم يكن على صلة به .

وأدرك الضابط الاسرائيلي أن الفهد تدخل لصالحه فبدت في عينه نظره امتنان عميقة . وسأله السنجاب عن توقعاته بالنسبة للمستقبل فأجاب بأنه في موقفه لا يشجع على التنبؤ . وإن كان يعتقد انه سوف يلقي جزاء قاسياً على يد اليمنين . ومن هذه الاجابة . ادرك الضابطان المصريان أن الاسرائيلي ما زال يعتقد أنه في قبضة السلطات اليمنية . وعلى الفور . بدأ الفهد في الشكوى :

- لقد جئت لأقدم لهم المشورة . ولكنهم أجبروني على البقاء معه دون أن يوضحوا لي أفكارهم . وقلت لهم أكثر من مرة أنني أرغب في العودة الى مصر . ولكنهم لجأوا الى التسويف . وعندما زاد إلحاحي لم يعيرونى أى التفات وقد سئمت البقاء هنا أيها الرئيس .. !!

عرض الفهد موقفة بنبرات صادقة ولهجة تكشف عن السخط . وكانت هذه أول مرة يقال فيها « باروخ » أن الفهد كان مقيداً بالحركة

في صنعاء . ولم يتصور أن الثعلبين المراوغين قد بدأ المباراة . أما السنجاب فكان يستمع وهو يبتسم .

- يجب أن نخرج من هنا ... !!

أن يحدث زلزال أو أن ينهار سقف الصالة أهون من وقع هذه العبارة التى تفوه بها السنجاب . فقد اكتشف الاسرائيلى بغتة أنه مع هذين المصريين فى جانب واحد . وفى نفس الوقت . فهم الفهد أن السنجاب يبدأ واحد من الاعيبه التى اشتهر بها .
- ولكنهم يحرسون المبنى .

كانت هذه ملاحظة « باروخ » . وقد أبداها وأسند ظهره على مسند معقده . كان يمارس حقة فى تقرير مصير المجموعة التى أصبح واحدا منها . وعلق الفهد بأن الحراس ليسوا منتبهين طول الوقت . وأنهم لن يعترضوا الا على خروج « باروخ » واقترح ان يتم تهريبه فى وقت متأخر من الليل .

- كم عدد الحراس ؟!

وجه السنجاب هذا السؤال بلهجة تتم عن اللامبالاة . وأجاب الفهد بأنهم ثلاثة جنود يتناوبون الحراسة عند مدخل المبنى . فرد كل ساعتين . كما أن هناك ضابط صف ينام على الدرج . وبينما كان الفهد يشرح نظام الحراسة . كان السنجاب يواصل الابتسام بسعادة حقيقية . وسرى الأمل الى نفس « باروخ » ولم يكن يعرف أنه ضحية خديعة محكمة النسيج . وأن ابتسامه السنجاب ليس لها من سبب سوى أن تلميذه كان يكذب ببراعة فائقة . فلم تكن هناك أية حراسة ظاهرة على الإطلاق !!

وقال « باروخ » أن اليمينين لو ضبطوه فلا بد أن يسرعوا باعدامه . وأنه يعتقد أن من الأفضل البقاء الى أن تتضح الأمور . بدلا من ضياع الأمل الوحيد فى أن يستحوذ على عطفهم . وأجاب السنجاب بأن من السخف التفكير فى هذا الاحتمال . لأن عملية التسلل من المبنى لن

تستغرق سوى دقائق . وأضاف أن من المستحيل ضبط « باروخ » مادام على استعداد لتنفيذ الأوامر دون إبطاء .

وأمام اللهجة الواثقة التى كان يتحدث بها السنجاب ، لم يجد « باروخ » مناصا فأعلن موافقته . ولكنه سأل عما إذا كان سيقدم الى المحاكمة في مصر .

وقال السنجاب بأن الموقف سوف يتغير بمجرد وصولهم الى القاهرة . لأن القرار لن يكون في يد أى منهما . ولكنه نصح « باروخ » بأن يتعاون باخلاص مع جهاز المخابرات المصرى وفي هذه الحالة . فإنه سوف يتلقى مساعدة ما .

وعاد « باروخ » الى الاستفسار عما إذا كان من المحتمل اطلاق سراحه . اذا أفرغ كل ما في جمجمته من معلومات . وأجاب السنجاب بأن الافراج عنه ليس سوى ضرب من المستحيل . ولكن المؤكد أنه سوف يقضى « بعض الوقت » في السجن . وأضاف أن ذلك أفضل كثير من الموت شقيا ..

هل هذا وعد يا سيدى ؟ !

وجه « باروخ » سؤاله بصوت مبحوح وتعلقت عيناه بشفتى السنجاب الذى أطرق برأسه وبدا مستغرقا في التفكير . وكان « باروخ » يحكم كونه ضابط مخابرات محترف ، يعرف أن أجهزة المخابرات لديها أساليبها الخاصة . التى تمكنها من التصرف رغم كل القوانين المعمول بها في أنحاء الأرض . فحتى لو أصدرت المحكمة حكمها بإعدامه فإن المخابرات المصرية تستطيع إنقاذه . وهناك تعريف عالمى سائد للمخابرات . ضمن كثير من التعاريف التى تتردد في العالم السرى . وهذا التعريف ينص على أن المخابرات هى تنفيذ القوانين عن طريق خرقها !!

وقبل أن يجيب « السنجاب » على سؤال « باروخ » تدخل الفهد قائلاً . أن « باروخ » حاول جاهدا أن يخدعه . وقال أنه رغم اقتناعه بأن هذا لا يثير غضبه . لأن واجب « باروخ » يحتم عليه أن يكتم ما لديه . إلا أنه يعتقد . أن من الأفضل ترك مصير « باروخ » . ليقدره الرؤساء في القاهرة . بعد أن تتضح حقيقة نواياه . وبعد أن يثبت إخلاصه وصدقه أو العكس .

نعم ... هذا وعد يا بنى .

ورغم خطورة هذه الكلمات إلا أن السنجاب همس بها دون أى قدر من التحفظ . ورفع الفهد عينيه إلى أستاذه القديم وبدأ عليه احساس بالضيق ثم هز رأسه . أما « باروخ » فقد تهللت أساريره وتدفقت من فمه عبارات الشكر وهو يتأرجح في مقعده مثل طفل .

وكان من الضروري أن يتبع الوعد تحذير له نفس الخطورة . فقد قال السنجاب أن عملية الخروج من اليمن ليست نزهة . فهناك مصاعب جمة تعترض الطريق . وأن أى محاولة من جانب « باروخ » لاثارة المتاعب . سوف تواجه على الفور بسرعة وحزم . وقال أنه يتصرف في مثل هذه المواقف بقسوة . وقد يضطر الى أن ينزع جلد الاسرائيلى . خلية خلية .

ورغم ما في تصور سلخ جلده بهذه الطريقة من بشاعة . الا أن « باروخ » ظل متلهلاً . وقد تذكر فجأة « أنهما » لم يقدموا شيئاً « للضيف » . فأسرع الى المطبخ من غير استئذان . ولكنه ما لبث أن عاد بشكل مضحك ليسأل السنجاب عما اذا كان يفضل الشاي أو القهوة . وقال السنجاب أنه تعود أن يتناول الشاي مع شئ من الجبن لأنه يشعر بالجوع . وبينما كان « باروخ » يتقهقر نحو المطبخ . رفق السنجاب الفهد بنظرة اعجاب . وكأنه يمتدح قدرته على ترويض ضابط

مخابرات معادى الى حد أنه يعتبر نفسه صاحب البيت !!

وأثناء انشغال « باروخ » بأعداد الطعام . دار حديث هامس بين الضابطين المصريين . واطلع السنجاب الفهد على الموقف بدقة . وعرف الفهد لأول مرة . أن غواصة مصرية سوف تتولى نقلهم الى ميناء الغردقة على ساحل البحر الأحمر . وبعد أن استمع الى تفاصيل الحصار الجوى الذى فرضته اسرائيل . وافق على أن الغواصة هى الوسيلة الوحيدة المأمونة للوصول الى مصر . ولكنه أبدى تخوفه من الرحلة البرية من صنعاء الى الحديد .

كانت المشكلة أمام الضابطين تكمن في أن المخابرات الاسرائيلية قد عرفت بسقوط رجلها . وأنها توقعت أن تسعى القاهرة للحصول عليه . وكان حادث اطلاق النار على الفهد في صنعاء . دليلا لا يقبل الجدل على ضراوة المعركة . وكان من المستحيل على أى طائرة أن تقترب من السماء المصرية دون أن تتعرض لها المقاتلات الاسرائيلية . كما أن الكوماندوز كانوا يرابطون على الشاطئ الاثيوبى استعدادا للحظة الحاسمة .

وكانت خطة السنجاب تعتمد على التضليل بشكل أساسى . كان يرى أن يتحرك الثلاثة نحو الحديدية بمنتهى السرية . وهناك يستأجرون قاربا ليلحقوا بالغواصة في عرض البحر . وفي هذه الحالة . تستطيع الغواصة أن تقذفهم على الشاطئ المصرى دون التقيد بميناء محدد . وقد أوضح أن أية مشقة . تهون أمام أهمية القصوى التى يعلقها المشير أحمد اسماعيل على العملية . كما أن المخابرات الاسرائيلية سوف تمنى بهزيمة منكرة . لا يجب أن تفلت منها .

وكانت ركيزة السنجاب في تضليل الاسرائيلية تنحصر في خدعتين . الأولى أن يتحرك الوحدة البحرية الراسية في ميناء الحديد متجهة

جنوباً . لتدور حول رأس الرجاء الصالح . حتى يظن الاسرائيليون أن الأسير قد نقل على ظهرها . والثانية أن تذيع القاهرة أن « باروخ » قد وصل إليها .

وفي منتصف الليل أعد « باروخ » مائدة العشاء . وقد جاء بيض مقلى تفوح منه رائحة الزيد . وبعض المشهيات . وعندما جلس الضباط الثلاثة ليأكلوا معا . أعلن السنجاب أنه يكتفى عادة بالجبن . وقد أخرج من حقيبته علبة جبن مصرية تناول منها قطعة وفك غلافها المفضض بأظافره . ولاحظ الفهد أن أسيره يأكل بشية لأول مرة . ولم يكن أحد في الدنيا يتصور . أن جهاز المخابرات الاسرائيلي . وجهاز المخابرات المصري . يتناولان الطعام معا في صنعاء !!

اتضح بعد أن فرغ السنجاب من طعامه . أن « باروخ » يدرك أنه أقدمهم وأعلامهم من حيث الرتبة . كما أنه يحتل موقعا يمكنه من اتخاذ القرارات المتعلقة بمصيره فقد أسرع وراءه الى الحمام . ووقف ينتظره الى أن يفرغ من غسل يديه وفوق ذراعه مشقة نظيفة . ورغم أنه اسرائيلي . الا أن السنجاب شعر بالحرج وهو يرى أحد الضباط يسلك سلوكا مهينا . وبينما كان يجفف يديه . أطلق دعاية مرحة . اذ قال أن الحياة تبدو جميلة في هذه الشقة . ولأول مرة سمح « باروخ » لنفسه بأن يضحك بصوت مرتفع . ولكنه توقف عن الضحك فجأة وبدا عليه شعور بالخجل .

وبعد العشاء جلس الرجال الثلاثة ودار بينهم حديث ممتع أشبه بأحاديث الأصدقاء . وكان واضحا بعد الوعد الذى قطعه السنجاب على نفسه . أن باروخ اختار الجانب الذى يكفل له السلامة الشخصية . وقد سأله السنجاب عن نظم الترقى في المخابرات الاسرائيلية . وحجم المكافآت والتعويضات التى تصرف للضباط . والتسهيلات التى تقدم لهم عند

تكليفهم بالمهام . ومستويات اتخاذ القرار في الحالات المختلفة . ومن الدهش . أن « باروخ » أجاب بصدق على كل هذه الأسئلة !!
وتنتجة لجو الالفة التي غمرت المجتمعين . سأل « باروخ » بأدب عما اذا كان الضباط المصريين يعانون من البيروقراطية . « مثلما نعانى نحن في الموسادا » . وأجاب السنجاب بأن البيروقراطية تنشأ دائما مادام هناك ورق ومذكرات وتقارير تعرض على الرئاسات الأعلى . وأضاف أنه يؤمن بإمكانية التغلب على البيروقراطية . والحد من تفشيها . عن طريق عدم السماح بالعمل المكتبي الا لفترات محددة . كما أن كل ضابط يجب أن يتحمل المسؤولية كاملة . وأن يكون قادرا على اتخاذ القرارات في الميدان .

ولما أشار الفهد الى أن « باروخ » كشف له عن سر اهتمام المخابرات الاسرائيلية . بمضيق باب المنذب . ضاقت عينا السنجاب واستغرق في تأمل علبة سجائرة ثم رفع رأسه وحقق في وجه « باروخ » وسأله ان كان هذا الزعم صحيحا فأجاب بالايجاب . وعندئذ قال السنجاب بلهجة ساخرة . أن هذه واحدة من الأفكار الخاطئة التي أدت الى جهود عقيمة وعرضت حياة ضابط « مبرر » للخطر دون أى بدر . وفي النهاية سأل . كيف يمكن اغلاق المضيق دون أن تحتل مصر الشواطىء المطلة عليه ؟!
وأجاب « باروخ » بأن الممر الملاحي لا يزيد عرضه على تسعة كيلو مترات . وأن بمقدور مدمرة مصرية واحدة أن تمنع المرور في الاتجاهين . ولكن السنجاب قال أن غواصة واحدة تستطيع اغراق المدمرة . كما أن متاعب سياسية كثيرة سوف تنجم عن اغلاق المضيق . لأن العالم يفضل أن تبقى الممرات البحرية آسنة .

وعاد « باروخ » الى شرح وجهة نظر جهاز المخابرات الاسرائيلي . فقال أن اغلاق المضيق يمكن أن يتم بحراسة طرفه الجنوبي أو الشمالي .

مع وضع عدد مناسب من الألغام . البحرية في المجرى الذى يقع بين الجزر وبين الشاطئ الاثيوبى ، وفي هذه الحالة ستمنع السفن الاسرائيلية وحدها من المرور . مما يجنب مصر أية تعقيدات سياسية ولكن السنجاب هز رأسه مخادعا . وقال أن الأفضل لمصر . اذا أرادت أن تخوض معركة بحرية مع اسرائيل . أن تنشأ هذه المعركة بالقرب من شواطئها .

وللرد على وجهة نظر السنجاب . قال « باروخ » أن المضيق بعيد عن مدى الطائرات الاسرائيلية . مما يحرم اسرائيل من ميزة التفوق الجوى التى تتمتع بها . وقال أن اغلاق المضيق سوف يخنق اسرائيل التى لا تستطيع أن تتحمل طويلا . قطع الشريان الوحيد الذى يربطها بنصف العالم . وأضاف أن اسرائيل أخطأت خطأ فادحا عندما سمحت لمصر بأن تتفوق عليها في القوة البحرية . « لاننا وان كنا نظير في سماء واحدة الا اننا نطل على نفس البحرين » .

ولم يصل النفاش حول باب المندب الى نتيجة حاسمة . وكان واضحا أن السنجاب غير مقتنع بفاعلية حصار المضيق . بل وبقدرة مصر على احكام هذا الحصار . وفي النهاية أشار الى أن الاجراء الأسهل هو تدمير ميناء ايلات نفسه . وذكر أن المخابرات البحرية المصرية هاجمت ايلات قبل ذلك بثلاث سنوات . وأن باستطاعتنا اختراق الميناء من جديد .

وفي الساعة الثالثة صباحا . قال السنجاب وهو يتشاءب أنه يشعر بالتعب ، وسأل الرجلين عن الكيفية التى ينامان بها . وأجاب الفهد انهما يكتفیان باغفاءات متقطعة فوق مقعديهما نظرا لحرارة الجو . ولكن السنجاب أمر بأن يكون هناك نظام صارم للراحة واقترح أن ينام باروخ في الغرفة الداخلية . وأن ينام هو في الغرفة المؤدية الى الصالة أما الفهد فكان سريره المفضل . مقعد وراء باب الشقة مباشرة وهكذا نام الضباط الثلاثة بينما كانت هناك أعين ساهرة .

قبل أن يخلد الرجال الثلاثة للنوم.. كانت الغواصة ٦١٢ قد وصلت الى مسافة مائتين وستة عشر ميلا من ميناء الحديدية . وعندما عبرت بالقرب من جزيرة سقطرى أفادت بأنها تشاهد حاملة طائرات تتجه هى الأخرى بسرعة نحو خليج عدن . وبعد ساعتين . شاهدت الغواصة سفينة روسية من حاملات الصواريخ الموجهة . وبعد خمس دقائق . ظهرت على نفس مسار حاملة الصواريخ سفينة ورشة .

وفي الساعة الرابعة صباحا أجرى جهاز المخابرات في القاهرة . اتصالا تليفونيا بضابط المخابرات البدين في عدن . وقيل للبدين : الذى قضى بضعة أيام في حالة بطالة دائمة . أن يقود العربة اللاندروفر ويتجه بأقصى سرعة الى صنعاء . وهناك . كان عليه أن يقدم نفسه للفهد . وأن يضع نفسه تحت تصرفه .

وفي نفس الوقت أرسلت مجموعة المراقبة من أديس أبابا . برقية عاجلة . تقول فيها أن ثلاثة طيارين إسرائيليين وصلوا الى أديس أبابا . وبعد أربعين دقيقة . أبرقت المجموعة ببرقية عاجلة أخرى . وفي هذه المرة . قالت أن جماعة من الكوماندوز . قد وصلوا أيضا الى أديس أبابا .

وبينما كان التوتر يتصاعد بحدة في البحر والجو . كان الرئيس المصرى أنور السادات . يدرس النتائج التى استخلصها بنفسه من المناورة العسكرية التى حضرها في الصحراء . والتى استمرت طوال نهار الأحد . وحتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت المناورة قد اشتملت على عمليات اسقاط بالمظلات . وابرار جوى ضخم . ولم يكن أحد يعرف أن هذه

المنافرة الواسعة النطاق . لم تكن سوى استعراض للقوة . في مواجهة
احتمال قائم بالحرب .
وفي صباح الاثنين . الرابع والعشرين من يوليو . نشرت صحيفة
الأهرام القاهرية في ذيل صفحتها الاولى : نبأ يقول أن اليمن سلمت
« الجاسوس الاسرائيلي » لمصر . وأن هذا « الجاسوس » قد وصل بالفعل
الى القاهرة .

وكان هذا النبأ كاذبا .

« الفصل التاسع » « الهروب نحو البحر الأحمر »

بعد أن نشرت صحيفة الأهرام . على صفحتها الأولى ، صباح الاثنين الرابع والعشرين من يوليو ، نبأ وصول « باروخ » إلى القاهرة . كان من المؤكد ، وفق تقدير المخابرات المصرية ، أن الاسرائيليين سوف يقرءون هذا النبأ قبل غروب شمس نفس اليوم . وقد بنى هذا التقدير على المعلومات التى لا يرقى إليها شك . عن أسلوب الاسرائيليين فى نقل الصحف المصرية من القاهرة الى تل أبيب عبر مراكز محددة على ساحل أوروبا الجنوبي .

فمن الأنشطة التى لم تعد سرا . فى عالم المخابرات ، أن كل طرف يضع نظاما دقيقا ومحكما ، ليكفل تدفق مطبوعات الطرف الآخر العلنية . بطرق ملتوية . الى المختصين بدراسة « العدو » والى الحاسبات الالكترونية التى تحتزن فى ذاكرتها المعقدة ، كل شذرة من المعلومات . حتى لو كانت معلومات تافهة !! ولما عانا فى الخداع ، كان نشر النبأ فى

صحيفة واحدة من الصحف اليومية الثلاث التى تصدر فى مصر . محاولة ذكية للإيحاء بأن هذا النبأ لم يوزع رسميا كما يحدث عادة . وإنما حصلت عليه الأهرام بوسائلها الخاصة . وهى الصحيفة التى تمتعت بشهرة عريضة لسنين طويلة . بأنها وثيقة الصلة بأعلى مستويات القيادة فى مصر . كما أنها واسعة الاطلاع .

وكانت منظمة مقاومة الجاسوسية فى القاهرة . تأمل فى أن تنطلى هذه الخدعة على الاسرائيليين . وعلى هذا الأساس واعتبارا من بعد ظهر الاثنين . كانت أذان المخابرات المصرية تتصت بأقصى ما لديها من طاقة . لعلها تتلقى ما يفيد أن الاسرائيليين قد نفضوا يدهم من مسألة ضابطهم الأسير . وكان هذا الاحتمال . يداعب بقوة خيال رجال المخابرات المصريين .

وبينما كانت أعداد صحيفة الأهرام تتكدس فى الطائرات المتجهة الى عواصم العالم . كان ضابط المخابرات البدین ينطلق بسرعة محمولة من عدن الى تعز . ورغم أنه كان وحده هذه المرة . إلا أنه لم يسمح لنفسه بلحظة راحة . وعند مدينة « إب » كان الأرهاق قد تملك منه وانتابه إحساس قاهر بالجوع . فقرر أن يتوقف ليتناول شيئا من الطعام .

كان البدین يرتدى بنطلونا كالحا يتهدل فوقه قميص مفتوح . وقد انتعل حذاء متواضعا من القماش . ولأنه كان يضع على عينيه نظارة شمس رخيصة . بدا كما لو كان أحد سائقى الشاحنات . أو عربات الأجرة . وقد أوقف اللاندروفر على جانب الطريق . وتدرج منها كالكرة . وما أن عثر على مطعم صغير حتى دخل من الباب . وألقى نفسه على أقرب مقعد وطلب من أول إنسان وقع عليه بصره أن يأتيه بشيء يأكله . كان المطعم اليمنى قد فرغ من تقديم وجبة الطعام لزبائنه . وقيل للبدین أن الطبق الوحيد الذى يمكن تقديمه له . طبق

يدعى « زوريان » . وقبل أن يشرح له الخادم مكونات هذا الطبق . طلب أن يقدموه له على وجه السرعة . وأضاف . أنه لا بد أن يأكله حتى لو كان خلاصة الثعابين !! .

وأوضح أن « الزوريان » ليس سوى أرز مطبوخ بصلصة الطماطم . مع لحم محفوظ . والتهم البدين كمية من هذا الأرز تكفى أسرة كبيرة . وجرع جالونا من الماء البارد . وملا زمزميته ثم قفز الى اللاندروفر من جديد .

كان البدين يتصب عرقا من كل ثنية في جلده المكتنز . ومن آن لآخر . كان يتناول زمزميته ويرفعها الى فمه . ولم يكن يضايقه سوى مقعد اللاندروفر الصلب . وحرارة الجو الخاتقة . وعندما مرق أمام علامة الكيلو ١٥٥ ابتسم ابتسامة شاحبة . ففى هذه البقعة من العالم . كان من المحتمل أن يذهب الى الآخرة . وهو يفظ في النوم .

وفي النهاية وصل البدين الى صنعاء . ولأنه لم يكن يعرف عنوان شقة حى باب اليمن . اتجه الى السفارة المصرية . وهناك بذل جهده لاقتناع الدبلوماسى الذى كان على صلة بالفهد . بأنه مكلف بلقائه . وفي البداية . لم يصدق الدبلوماسى الأنيق أن هذا الرجل البدين . المتسخ الثياب . بهيئة الزرية وعينيه المحمرتين من أثر التعب . يمكن أن يكون مكلفا بعمل ما .

وفي الساعة الحادية عشرة مساء الثلاثاء الخامس والعشرين من يوليو . طرق البدين باب الشقة . ومضت ستة دقائق قبل أن يفتح الباب بحذر شديد . وفي الداخل . كان « باروخ » فى موقعه المعتاد عند الطوارئ . وراء باب المطبخ . وكان الفهد ممسكا بقبضة مسدسه . أما السنجاب فكان جالسا الى المائدة بلا اكتراث . وأحدث ظهور البدين

عاصفة هوجاء في الصالة . فقد احتضن الضابطان زميلهما الذي حذرهما وهو يضحك من لزوجة جلده بسبب العرق والغبار ومشقة السفر . وجلس الضباط الثلاثة حول المائدة . وسأل الفهد عما اذا كان البدين يود أن يأكل شيئا . فأجاب بأنه سوف يختصر الطريق ويذهب بنفسه إلى المطبخ . ولكن السنجاب أشار بيده معترضا ، فلم يكن هناك أى مبرر . لكى يرى « باروخ » مزيدا من الضباط المصريين .

وأثناء إعداد طعام العشاء . كان البدين يجلس وحده أمام السنجاب . بعد أن اغتسل وبذل ثيابه . وبينما كان السنجاب يتحدث إليه بصوت هامس . لاحظ أنه كان يكتفى بإيماءة خفيفة من أن لآخر . ولما عاد الفهد من المطبخ بأطباق الطعام ، انفجر الضابطان بالضحك . فقد اكتشفا أن البدين استغرق في نوم عميق !!

لم يشعر البدين بأى حرج عندما أيقظه الفهد . بل سارع بمجرد أن فتح عينيه الى ازدياء الطعام وكأنه منخرط في مطاردة . وبعد أن ملأ معدته . قال السنجاب أنه يستطيع أن يحتل سريره في الغرفة الداخلية . وفور إغلاق باب هذه الغرفة على البدين . هرع الفهد الى المطبخ ليطلق سراح « باروخ » الذى قضى هناك ساعتين كاملتين . وفي الساعة الواحدة صباحا . وبينما كان الضباط الثلاثة يتأهبون للنوم . عاد الطرق على باب الشقة من جديد . وتسلسل « باروخ » بسرعة الى المطبخ دون أن يأمره أحد . وعندئذ فتح الفهد الباب . ولدهشته الشديدة . وجد صديقه الدبلوماسى واقفا وقد بدا عليه الاجهاد . وفي يده اليمنى رسالة مكتوبة بالشفرة .

ودعا الضابطان صديقهم ليدخل . لكنه رفض بأدب وقال أنه في عجلة من أمره . ولم يكن من اللائق . أن يعود الرجل . الذى تحمل

عناء كثيرا لا يدخل في نطاق مهنته . من أمام الباب كسعاة البريد . لذلك أصر الفهد أن يدخل . وأجاب الدبلوماسى بأن لديه بعض الأعمال الهامة . ولكن السنجاب ابتسم وألقى نظرة على ساعة يده . وسأل عن الأعمال العاجلة في هذا الوقت المتأخر من الليل . فهمس الدبلوماسى للضابطين بمفاجأة جديدة . اذ قال أنه محمود رياض أمين عام الجامعة العربية قد وصل الليلة الى صنعاء .. !!

وبعد انصراف الدبلوماسى . قام الفهد بحل شفرة الرسالة . واتضح أنها ذات أهمية قصوى . فقد تضمنت الأوامر في عملية نقل « باروخ » . وكان ملخصها . أن يصحب الضابطان الأسير من صنعاء الى الحديدة . على أن يصلا الى الميناء قبل الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء السادس والعشرين من يوليو . وأن يحصلا بأى شكل على قارب يتسع لثلاثتهم . وبعد الغروب . يتجهان بالقارب نحو الشمال . مسافة خمسة كيلومترات . ثم ينحرفان غربا . فمنذ الغروب وحتى الساعة العاشرة والنصف . وفي نقطة محددة على مسافة ثمانية كيلومترات من الشاطئ . كانت الغواصة ٦١٢ تنتظر لتحملهم معها الى مصر . أما البدين . فقد قالت الرسالة أن عليه مغادرة صنعاء بأقصى سرعة . قاصدا ديس أبابا . وأن يبقى هناك . في العاصمة الاثيوبية . الى أن يتلقى أوامر جديدة . !!

وفي غضون ساعة كان الضابطان قد درسا الوقت دراسة مستفيضة . واستقر رأيهما على أن يبدأ الحركة في الخامسة صباحا ليصلا الى الحديدة قبل الموعد المحدد في الرسالة . وكان رأي السنجاب أن « باروخ » مقتنع الآن بأن من مصلحته الخروج من اليمن . لذلك اقترح أن يركب معهما في اللاندروفر كأى مسافر عادى . ولكن الفهد كانت له وجهة نظر مختلفة . اذ كان مصرا على أن « باروخ » . رغم كل بوادر حسن النية

التي أظهرها . ليس سوى اسرائيلي مراوغ . واقترح تقييده أثناء الرحلة .
الا أن رأى السنجاب كان الأعلى . بحكم رتبته .

وفي الثانية صباحا أحدث البدن صخباً عاليا عندما أيقظه الفهد .
ولكن ثورته هدأت بمجرد أن وقع بصره على السنجاب . الذي كان
يتأمل بهينين قاسيتين . واعتذر البدن بأنه قضى ثمان وأربعين ساعة
دون نوم .

وفي ظلمة الليل هبط الفهد الدرج يتبعه البدن . وقام الفهد بنزع
اللوح المعدنية . الأمامية من عربته وثبتها في مقدمة اللاندروفر التي جاء
بها البدن . ثم قاد إحدى العربتين ودس أنفها تحت جدار البيت . أما
الثانية فكانت تقف أما الباب استعدادا للرحيل . وهكذا . كانت عربتان
لاندروفر . لونهما ابيض . تحملان رقما واحدا !! . ولم يكن هناك أى
اختلاف بين العربتين باستثناء ثقب طلاقات الرصاص التي كانت تزين
عربة الفهد .

وكان لابد من دراسة تفاصيل الرحلة المرتقبة . لذلك قضى الضباط
الساعات الباقية على موعد الرحيل ساهرين . واتفقوا على أن يهبط الفهد
والسنجاب أولا . بدعوى جذب الحارس بعيدا عن المبنى . وبعد ذلك
يقتاد البدن « باروخ » بسرعة الى الخارج . وكان على البدن أن
يقضى وقته بعد رحيل اللاندروفر . ثم يغلّق الشقة ويسلم المفتاح
للدبلوماسى المصرى . وفي النهاية يقطع الى الحبشة !!

كان البدن يغالب النعاس وهو يستمع الى توجيهات السنجاب .
ولانه لم يكن يعرف شيئا عن الحصار الاسرائيلي المفروض حول
« باروخ » . كانت ملامحه تحمل مشاعر الاستخفاف . بهذه المغالاه
المفرطة في المبالغة . التي تميز خطوات جهاز المخابرات المصرى . عندما
يتعلق الأمر بالأمن !!

وفي الخامسة إلا خمس دقائق حمل الضابطان حقائبهما وهبطا الى الشارع . وبعد خمسة دقائق . عاد الفهد ليققاد باروخ ؛ وكان الفهد منغيطا من هذا الجاسوس الذى تسبب في كل هذه المتاعب . لذلك لاحظ « باروخ » أنه ينظر اليه شذرا ، مما أجبره على إطاعة أوامره كأفضل ما تكون الطاعة العمياء .

وفي الخامسة ودقيقتين بالضبط انطلقت اللاندروفر . الفهد على عجلة القيادة . وخلفه « باروخ » والى جواره السنجاب . ولاحظ الفهد أن اصفرارا مخيفا يكسو وجه الأسير . فسأله وهو ينظر في المرآة الداخلية عما اذا كان بخير ، وأجاب « باروخ » أنه على ما يرام . ومن المؤكد . أن الاسرائيلى كان يشعر بالخوف . وهو في قبضة ضابطين من ضباط العدو . لا يعرف نواياهما على وجه الدقة !!

وقبل أن تخرج العرببة من صنعاء . قال « باروخ » أنه يشعر بالظما . فدار الفهد في شوارع المدينة بحثا عن متجر يبيع أية مشروبات . وبعد جولة سريعة توقفت العرببة أمام فندق المخا . وهبط الفهد ليملأ زمزميته بالماء البارد . كما اشترى بعض المعلبات التى تحتوى على عصير الفاكهة . وفي هذه الأثناء . قال « باروخ » أنه نزل في هذا الفندق . قبل أن يسقط . وأضاف أنه لم يفكر لحظة واحدة في المصير الأسود الذى قاده اليه . القدر . ولاحظ السنجاب أن الدموع تترقرق في عيني الاسرائيلى . فأشاح بوجهه بعيدا ولزم الصمت .

وعند مشارف صنعاء ، وعلى أول طريق الحديدة . صادفت المجموعة عقبة لم تكن في الحساب . فقد لاحظ الفهد أن أربعة براميل حمراء تعترض الطريق . فلفت نظر السنجاب ، ولم تكن أربعة براميل لتعترض طريق ضابطين من ضباط المخابرات . ولكن لأنهما في أرض صديقة . أمره السنجاب بالتوقف .

كانت سداة الطريق خاصة بنقطة شرطة عسكرية يمنية . وبمجرد أن توقفت اللاندروفر تقدم منها جندي يمني يحمل في يده رشاشا قصيرا . بينما وقف جنديان آخران بسلاحهما على جانب الطريق . وبعد أن دار الجندي حول العربية . توقف أمام النافذة التي يجلس الى جوارها السنجاب . الذي أدرك أن وجهه الأحمر . قد أثار ريبة الحارس اليمني بقوة .

تهللت أساير جندي الشرطة العسكرية اليمني . بمجرد أن قال له السنجاب أنهم مصريون . ولكن عبارات الترحيب التي تتابعت على شفثيه لم تمنعه من أن يطلب الأطلاع على جوازات السفر . وبدأت على وجه الفهد الذي كان يراقب الموقف من فوق كتفه . أمارات التحفز . ومد السنجاب يده الى الفهد . فناوله جواز سفره . وفي نفس الوقت . دس السنجاب يده في جيبه الخلفى وأخرج جوازين . ثم سلم الجوازات الثلاثة للشرطي .

أخذ اليمني في مراجعة الجوازات واحدا بعد الآخر . فكان يطلع على الصورة والبيانات ثم يرفع رأسه الى صاحب الجواز ويسلمه له . وعندما جاء دور « باروخ » . دهش بشدة وهو يرى صورته في جواز سفر مصرى . ولما أعيدت الجوازات الى أصحابها . مد السنجاب يده الى « باروخ » واستعاد جوازه بهدوء . وما أن استأنفت اللاندروفر في السير حتى همس « باروخ » قائلا أن السيد لا ينسى شيئا . وكان يقصد جواز السفر المزيف . واكتفى السنجاب بالابتسام . أما الفهد فقد علق قائلا أن أجهزة المخابرات القوية . لا يجب أن تغفل أى احتمال . وأضاف . أن جهاز المخابرات الاسرائيلى . لو لم يغفل احتمال سقوطه « باروخ » لأى سبب . لما كان بمقدور أحد أن يكتشف حقيقته . ولم يحاول « باروخ » أن يرد على ملاحظة الفهد المهينة . بل أرسل بصره من النافذة وعزق في تأملاته الخاصة .

كان النهار حارا ودرجة الحرارة ترتفع كلما أوغلوا في الطريق . وكانت مقاعد اللاندروف الصلبة . تسبب للركاب الثلاثة مضايقة شديدة . وفي المناطق الشديدة الخطورة . التي يلتوى فيها الطريق بجدة . وتبدو على جانبه الأعماق السحيقة . كان « باروخ » يمد عنقه وهو يتوجس شرا . أما افهد فكان يندفع بمهارة كأنه غفريت من الجن . تنكر في شكل آدمى . واحترف قيادة العربات !!

وفوق هضبة مرتفعة تدعى « بوعان » . اقترح « باروخ » أن يتوقفوا قليلا بقصد الراحة . ولكن أحدا لم يرد على الاقتراح . لذلك أعلن أنه شرب كمية كبيرة من السوائل وأن لن يستطيع الاحتفاظ بهذه السوائل في جوفه طول الوقت . وعلى الفور . أوقف الفهد العربية على جانب الطريق . وسمح « لباروخ » بأن يهبط وحده . وعندما عاد بعد دقائق . استأنف الفهد اندفاعه دون إبطاء .

وفي العاشرة وخمسة وعشرين دقيقة . كانت اللاندروف قد أمضت خمس ساعات ونصف دون توقف . باستثناء الدقائق التي ضاعت في « بوعان » . وللمرة الثانية . طلب « باروخ » أن يسمح له بالهبوط . ولكن السنجاب زمجر بوحشية . وسأل الاسرائيلي عما اذا كان قد تعود من قبل المشاق . وبعد ذلك ألقى نظرة على ساعة يده . وهتف بارتياح وهو يوجه الحديث للفهد . أن الساعة الآن العاشرة والنصف !!

كانت اللحظات بالغة الخطورة رغم أنها كانت تبدو عادية . ففي هذا الوقت بالضبط . برقت في سماء القنطرة طائرة ميغ ٢١ . تابعة لسلاح الجو السوري . واندفعت هذه الطائرة بسرعة البرق في دائرة واسعة فوق المستعمرات الاسرائيلية . وبعد عشر ثوان . ظهرت في الجو طائرتان

اتخذنا نفس مسار الطائرة الأولى ، وأرسل الاسرائيليون طائراتهم المقاتلة لاعتراض الطائرات المغيرة . وفي نفس اليوم قدمت اسرائيل شكوى لمنظمة الرقابة على الهدنة في القدس .

وبالطبع . لم يكن معروفا على نطاق واسع . أن الغارة السورية المفاجئة . كانت ضمن الخطط المشتركة التي وضعها السوريون مع المصريين . وكان الهدف من الغارة . هو التعرف على حجم دفاع اسرائيل الجوى . في المنطقتين الوسطى والشمالية . وقد أيقنت القاهرة في ذلك اليوم . وبناء على تقارير الطيارين السوريين . أن أعدادا كبيرة من التشكيلات المقاتلة الاسرائيلية . قد نقلت الى مطارات سيناء بالفعل . وأنها مازالت هناك .

وبعد نصف ساعة وصلت اللاندروفر الى نقطة على طريق الحديدية . كان من المحتم التوقف فيها . ففي هذه البقعة . صنعت الطبيعة ما يشبه « الرست هاوس » . بئر عذب تتدفق منه المياه الباردة بشكل خلاب . وتنساب مياه البئر الى جوار الطريق مسافة عشر كيلومترات . وقد صنعت لنفسها واديا صغيرا يتزايد فيه الاخضرار . وعلى مسافة كيلو مترين من البئر . تنحدر الصخور بشكل مفاجيء . فتتدفق المياه على شكل شلال . وعلى جانبيه تقف صخرتان بركانيتان . لذلك يبدو المكان أشبه بغرفة تتدفق المياه من سقفها . أما أرضيتها . فعبارة عن صخرة ملساء ناصعة البياض . مما يغرى أى انسان بأن يستحم في بطن الطبيعة بعيدا عن الأعين .

هبط الضباط الثلاثة وجلسوا متباعدين فوق الصخور . وقد اختار السنجاب مرتفعا صخريا واضطجع على مرفقه . وانهمك الفهد في ملء زمزميته المياه . أما باروخ فأخذ يتجول في المنطقة . وهو يبدى دهشة لبروعة الطبيعة . كان واضحا أنه يتتبع مجرى الماء وفجأة فر هاربا !!

قطب الفهد جبينه وتحفرت كل خلاياه وبدا القلق على ملامحه .
ولكن السنجاب لم يكن قلقا . إذ كان يعتقد أن « الأسير » . اذا كان
يفكر في الهرب . فإنه لن يستطيع الذهاب بعيدا . وبعد أن تبادل
الصياح بصوت عال . اقترح السنجاب أن يضغط الفهد تغير السيارة .
ولكن حتى صوت بوق اللاندروفر المزعج . لم يسفر عن أية نتيجة !!
لأن الوادى محصور بين الطريق ومرتفع جبلى وعرا . ألقى السنجاب

نظرة على الجبل وقال أن « باروخ » لابد أن يكون مختفيا في الوادى .
وقد بحث الضابطان بعناية وسط أغصان الأشجار المتشابكة . ووراء
الصخور البركانية المتناثرة . والنتوءات الضخمة . ولكن الهارب لم يظهر
له أى أثر .

وعلى الفور . انطلق الفهد الى اللاندروفر وقادها بسرعة الى أن وصل
الى أقصى نقطة يمكن أن يكون « باروخ » قد وصل إليها على قدميه .
بعد ذلك ترجل وقفز الى الوادى واتخذ طريقه في الاتجاه العكسى .

كانت خطواته تتعثر فوق الجحارة الزلقة المغطاه بالطحالب . ولكنه
واصل التقدم وعيناه تلمعان بجدة . وعندما انزلقت قدمه اليمنى
وانحشرت في شق ضيق وسط كتلة من الحجر الصلب . انتزعها بقسوة
وطفح الغضب فوق ملامحه . وكان واثقا من أنه سيعثر على الاسرائيلى
الذى نكص بكل الجهود التى قطعها على نفسه . ولكنه كان قلقا خوفا
من أن يفوته اللحاق بالغواصة التى يعرف أنها لن تنتظره الى الأبد .
وبين أغصان وغل كثيف من الشوك . لمح الفهد ثعبانا أسود ينسل
بيعيذا عن طريقه . ولكنه لم يعره التفاتا . فقد كان هدفه « باروخ » .
ودار بخلده أن يحطم رأسه بمجرد أن يعثر عليه . ولكنه كتم غيظه
وهز رأسه نفيا وكأنه يحدث نفسه . وجرحته يده اليمنى عندما أراد أن

يزيح شجرة شوك كانت تسد الطريق . فمال نحو جدول المياه المنحدر تحت قدمه وغسل الجرح ثم قفز بخفة وهو يرتجف من الحقد .
وردت جنبايات الوادى صدى صوت السنجاب وهو ينادى عليه .
وأجاب بنداء ممدود أشبه بنداءات الرعاة . وسمع بالقرب منه هدير المياه فألقى نظرة . وهناك وراء صخرة . بالقرب من شلال المياه . عثر على « باروخ » .

كان الموقف مربعا يشد الانقباس . فقد تضاءل « باروخ » وانكشف مثل أرنب . وكان ظل الفهد على الصخرة قصيرا ولكنه يوحى بالقوة . وقد تلاحقت أنفاسه بتأثير الجهد الذى بذله . الجهد الممزوج بالقلق . ولاحظ الاسرائيلي امارات الغضب العارم على وجه غريمه فغاصت رأسه بين كتفيه . وفجأة هب واقفا ولاذ بالفرار في اتجاه البئر !!

وفوق المرتفع المجاور للبئر كان السنجاب يبتسم وهو يرى « باروخ » مندفعاً في اتجاهه والفهد يجد في أثره . وبمجرد أن وصل « باروخ » الى مكانه ألقى بنفسه عند قدميه طالبا الحماية . ولكن الفهد التقطه بسرعة البرق وضربه بقسوة في معدته . وانحنى الاسرائيلي وهو يتلوى من الألم . وسدد الفهد لكمة مكتوبة الى فك غريمه . فتحطمت أسنانه واندفع الدم من فمه . أما السنجاب فقد قفز محاولا أن يمنع الفهد من قتل الأسير . وطارت نظارته وهوت بعيدا وسط الحشائش . وفي تلك اللحظة صرخ السنجاب بأعلى صوته . وانبه الفهد فوقف منتصبا كتمثال من الحجر .

ولست أعتقد أن هناك انسانا أصيب بالذعر مثل « باروخ » . فقد كان الاسرائيلي ملقى على الأرض والدماء تنزف منه بغزارة . ومن بين أقدام الضابطین كان بمقدوره أن يراها وقد وقفا في مواجهة بعضهما . كان وجه السنجاب الأحمر قد اكتسب بزرقة قاتمة وعيناه تقدح

بالشر . أما الفهد . فكان صدره يعلو ويهبط بعنف وهو يحاول جاهدا أن يكبت مشاعره . وعندما تكلم السنجاب لجاء صوته قويا وكأنه ينبعث من مكبر صوت . وقد قال أن هذا « الجبان » لابد أن يصل حيا الى القاهرة . وأن هذه هي مسؤولية الفهد . قبل أي انسان آخر .

وتتمتم الفهد معتذرا لأستاذه الذي استشاط غضبا . وقال أن الاسرائيلي لم يحترم المعاملة الحسنة التي عومل بها . وأنه ضابط بلا شرف . وفي النهاية فإن كل القوانين تبيح قتله جزاء هروبه . وبعد أن هدأت ثورة السنجاب . قفز الفهد بخفة نحو النظارة الطبية التي كانت تلمع وسط الحشائش في ضوء الشمس . أما الاسرائيلي فكان على يقين من أن أيامه المقبلة أصبحت سوداء .

وتحرك الضابط الثلاثة نحو اللاندروفر في هيئة « طايور » السنجاب في المقدمة ووراءه الاسرائيلي وبعده الفهد . وبعد أن جلس في مقعده . ذهب الفهد الى مؤخرة اللاندروفر وعاد بقطعة من السلك الرفيع . وكان واضحا أنه ينوى تقييد الاسرائيلي حتى لا يكرر فعلته الشائنة مرة أخرى . ولكن السنجاب أمره أن يتركه حرا . وعلق ضاحكا أن لن يستطيع الهرب الا بعد أن يراه الطبيب !!

وطوال الطريق كان الاسرائيلي مطرقا بمذلة وهو يتحسس فكه . ولم يكن يجرؤ على رفع بصره الى السنجاب الذي كان يجلس بجواره . كذلك لم يحاول النظر في المرأة التي كانت تظهر جبهة الفهد وعيناه . وعندما كان الفهد يتناول علب العصير كان يكتفى بتقديم واحدة للسنجاب ثم يرمق الاسرائيلي بنظرة حانقة . فقد إنتهى العهد الذي كان يعد فيه زميل رغم أنه عدو .

وتسببت الأورام التي كانت أصابت فكه . والآلام القاتلة

التي كانت تنتاب معدته . في شعور الاسرائيلي بالظنأ . وقد تمت بصوت خاشع بدون أن يرفع رأسه طالبا جرعة ماء . ويبدو أن السنجاب لم يسمع لذلك سأله عما يريد . وكرر الاسرائيلي طلب الماء بصوت متقطع . وكانت الزمزية ترقد جوار الفهد على المقعد الأمامي . وفي اللحظة التي مد فيها السنجاب يده اليها . كان الفهد يتاولها له . وحاول « باروخ » أن يشرب دون أن تلمس فوهة الزمزية فمه . الا أن يده كانت ترتعش وانساب الماء فوق ذقنه وصدره . فتاوله الفهد عليه عصير فارغة ليستعملها بدلا من الكوب .

وجاء أول اعتذار من « باروخ » عند أول السهل الصحراوي الذي يمتد بعد مدينة « مناخة » وحتى ساحل البحر . وهو سهل فسيح قاحل يرسل شواظ من اللهب في الصيف . ففي أول هذا السهل ينساب جدول من الماء يشبه الجدول الذي جاويل من قبل . ان يختفى عنده . وكان منظر الماء وهو يتفرق بين الصخور مغريا بشكل لا يقاوم . وكان الجلوس لفترة طويلة مع وعورة الطريق قد سبب له ألما في مؤخرته . ويبدو أنه كان يأمل في استراحة قصيرة .

ورغم أن كلمات الاعتذار التي نطق بها كانت تعبر عن شعوره العميق بالندم . إلا أن أيا من الضابطين المصريين لم يرد . واسترسل هو بصوت واهن شارحا موقفه . وعزا سوء تصرفه إلى الارهاق العصبي الذي سببه له الحبس لمدة تقارب الشهرين . وأجاب الفهد بأن أمره أن يكف عن الكلام .

وقبل أن يصل الركب الى مدينة الحديدية أوقف الفهد العربية ثم استدار في مقعده . كان وجهه يكاد يلامس وجه « باروخ » الذي توجس شرا فتراجع دفعة واحدة إلى الوراء . وقال الفهد موجها حديثه للأسير .

أن أحدا لن ينقذه من يده إذا فكر في إثارة المتاعب . وقال السنجاب أنه
يتعهد بعدم التدخل في المرة القادمة .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعشرين دقيقة عندما مرقت
اللاندروفر في شارع صنعاء . وعندما ظهر الميناء من بعيد همس السنجاب
بأن تصوير الموانئ ليس لعبة يقدم عليها « الأولاد » . وقبل مدخل الميناء
انحرف الفهد بشدة وانطلق بحذاء البحر . وفي نقطة منعزلة على
الشاطئ أوقف العربته وهبط منها بسرعة . وبعد أن تبادل حديثا سريعا
مع السنجاب . هبط هو الآخر واحتل الفهد مقعده . وبخطى وثيده
مضى السنجاب في شارع ضيق من شوارع المؤدية إلى الطريق المحاذي
للشاطئ وأصبح « باروخ » وحده إلى جوار الفهد .

كان وجه الفهد يحمل علامات الحنق ولكنه ظل صامتا . وكان
الاسرائيلي ينظر إليه باستجداء وهو يرتعد . وبعد فترة صمت قصيرة
مرت ثقيلة . تمتم الاسرائيلي محاولا استرضاء أسيره . ولكن الفهد رمقه
بنظرة ساخرة وقال له أن أفضل ما يمكن عمله هو أن يبقى لسانه في
فمه . ولم يكن في وسع « باروخ » سوى أن يطيع دون مناقشة . فعلى
مسافة سنتيمترات من مكانه . كانت قبضة الفهد اليسرى تمسك بسند
المقعد الأمامي . وكان « باروخ » خيرا من يعرف وقع هذه القبضة جيدا .

غاب السنجاب في المدينة زهاء ساعة وعاد محملا بالأطعمة . ورغم
أن أسنان الاسرائيلي كانت تؤلمه إلا أنه التهم طعامه بسرعة . وقد حرص
السنجاب على أن يجلب خبزا طريا وجبنا ومربى لكي تكون سهلة
البلع . ولم يعترض الفهد مطلقا على اشراك الاسرائيلي في الطعام . ولكنه
علق قائلا أن من المؤسف أن يأكل هذا المخلوق طعاما يدفع ثمنه دافعي
الضرائب في مصر !!

وبعد أن فرغ الثلاثة من تناول طعامهم انصرف السنجاب مرة أخرى ، ولم يكن في حاجة إلى أن ينبه على ضرورة عدم إلحاق الأذى بالأسير ، وفي هذه المرة غاب السنجاب إلى أن حل الظلام ، وعندما عاد صاحب الفهد بعيدا عن الغربة ووفقا على الشاطئ الرملى ، وكان بمقدور « باروخ » أن يراها أما فلما فلم يغب لحظة عن عيونهما التي كانت تومض في الظلام .

وبعد مشاورات قصيرة عاد المصريان إلى اللاندروفر ، وانطلقا بها نحو الميناء . حتى إذا ماتجاوزاه عبروا منطقة تملؤها أكواخ من القش على النمط الحبشى ، وبعد دقائق توقفت اللاندروفر وأمر « باروخ » بأن يهبط بسرعة ، ولدهشته الشديدة اكتشف وجود قارب مستطيل أجرب اللون تحت قدمية .

وفي سرعة وحذق دفع السنجاب والفهد القارب إلى الماء ، وقفز الضابطان وهما يدفعان « باروخ » كغرارة من الأسمنت . وقبل أن تحل الساعة العاشرة كان القارب قد توغل في البحر حتى النقطة التي حددتها رسالة القاهرة . وأخرج السنجاب مصباحا كهربائيا من جيبه وأخذ يرسل إشارات متقطعة ، ومضت عشرون دقيقة دون أن يظهر في الموج أى أثر للغواصة ، واضطر الفهد الذى كان يمسك بمجداف ضخى إلى أن يدور دورة كاملة وهو يحرق في كل اتجاه . وعندما حلت الساعة الحادية عشرة كانت يدها قد أصيبتا بالسلخ . وفي الحادية عشرة والرابع أصدر السنجاب أمره بالعودة ، فالغواصة المصرية لم تكن هناك .

« الفصل العاشر »

« حادث في منتصف الليل »

وسط الموج المتلاطم كان الزورق الذى يقل ضباط المخابرات الثلاثة يبدو كنقطة معتمة لا وزن لها ولا تساوى شيئا ، وفوق الذيل ، كان الفهد يقف منتصب القامة عارى الصدر رغم أنه كان منهكا ، وكانت أصابعه تؤلمه وقد تورم جلد كفيه بعد أن أجبر على الدوران في البحر زهاء ساعتين . وكان الاسرائيلى مكوما في القاع كأنه قنفذ أحاط به الخطر ، أما السنجاب ، فكان يجلس هادئا عند المقدمة وهو يحدق في السماء وكأنه راهب بوذى استغرق في التأمل .

كان عقل السنجاب قد تحول إلى ما يشبه ماكينة صهر الصلب ، فمذ عشرين سنة ، لم يحدث أن رؤساءه - أخلفوا موعدا ، كما أنه حرص على أن يكون موجودا في المكان والوقت الذى يحدده لمؤوسيه . وفي مرات كثيرة ، كانت مهام اللقاء أشد صعوبة . يكتنفها الخطر . ومع ذلك ، لم يحدث قط أن ترك أحد الرجال لشأنه .

مرات كثيرة انتظرت الطائرات الرجال وراء خطوط العدو . وطافت سفن الصيد بالقرب من الشواطىء المهجورة تبحث دون هوادة عن المسافرين المجهولين الذين لا يحملون سوى عبارات التعارف وحتى عندما لا يكون هناك موعد ، وكان أحد الرجال يجد نفسه في موقف لا يحسد عليه . كانت ذراع المخابرات تصل إليه . في اللحظة التى يكاد فيها أن يستسلم لليأس .

كان الزورق يقترب ببطء في اتجاه الشاطىء . وكانت ثياب الضباط الثلاثة مبللة . وكان الفهد يحدق في الظلام محاولا التعرف على البقعة التى نزلوا منها إلى البحر . ولم يكن الظلام والاجهاد والبلل سبب شعور المصريين بقسوة الموقف . وإنما كانت المأساة تتلخص في الإجابة على سؤال واحد هو ، ما الذى حدث ؟!

أما الاسرائيلي فكانت مشكلته مختلفة . فلأنه لم يطلع على أية تفاصيل اعتقد التمس أنه تسبب . عندما حاول الهرب . في تأخير المجموعة وأن عبء فشل الرحلة كلها يقع فوق رأسه وحده . وكان عقله يعمل جاهدا في محاولة التنبؤ بالجزء الذى سوف يواجهه . وعندما كانت قمم الموج الرغوية البيضاء تعلو حافة الزورق . كان جسده ينكمش بقوة وهو يرتجف من الذعر .

كان الصمت يخيم فوق رؤوس الأشباح الثلاثة وهدير البحر يختلط بضربات المجداف المتتالية على الجانبين . وبالقرب من الشاطىء . انزلق الزورق فوق بقعة هائلة من الزيت . المتخلف عن محركات السفن . ولمح الفهد في الأفق الأسود ضوءا هزىلا فأشار بيده . وألقت السنجاب ولكنه لم ينطق وفي تلك اللحظة . رفع « باروخ » رأسه ليلقى نظره . وارتفعت مقدمة الزورق فحجبت الشاطىء عن عينيه . ولما استدار إلى الفهد اكتشف أنه يبتسم . نفس الابتسامة الواسعة التى تكشف عن أنيابه

وتنذر بالشر . وبدا الفهد في عينه . بقامته المديدة . ووجهه المطموس
الملاح . وزراعيه القويتين . وكأنه مارد أسطوري يتربص به ويضمر له
أشد العدا . وفجأة وقف « باروخ » واختل توازنه ثم صرخ : أيها
القتله ... يجب أن ينتهى هذا كله !!

كان الاسرائيلي قد فقد أعصابه وأفلت منه الزمام نهائيا . وبعد عدة
قفزات عشوائية في بطن الزورق وضع قدمه فوق حاجز خشبي وهم
بالقفز إلى البحر . ولكن الفهد عاجله بضربة من مجدافه فسقط ونو
يتلوى . وكان السنجاب يراقب الموقف وقد كسا الامتعاض ملامحه . فلم
يعد هناك مجال لمزيد من المشاكل . وعندما انساب بخفه نحو الاسرائيلي
الذى كان راقدا في القاع . وجد أنه يخفى وجهه يديه ويتأوه بقوة .

كان نبض « باروخ » أسرع من المعتاد . وقد علا الزبد شفتيه . وكان
جسده يتقلص ويتمدد في موجات متتالية كأن به مسا من الجن .
وكانت التأوهات تنبعث من جوفه على شكل حشجة غير منتظمة .
وعندما انحنى السنجاب فوقه وأخذ رأسه بين راحتيه . هتف الفهد .
الذى كان يعتقد أن هذا الاسرائيلي خلق ليراوغ . مستفسرا بسخرية عما
إذا كان السنجاب سيقراً آيات القرآن في أذنيه !!؟

ومن جديد ظهرت الشخصيات الثلاثة على طبيعتها . الحكمة في
مواجهة الحماس الزائد وبينهما التخاذل والضعف مجسدا في « باروخ » .
فبكل حكمة الشيوخ همس السنجاب بأن الأسير غاب عن الوعي
بالفعل . وارتفعت ضحكة مكتومة من الفهد وقال أنه يقترح . طبقا
لقانون البحار . لقاء الجثة للأسماك . وعندئذ . هدا « باروخ » واختفت
التأوهات التي كان يطلقها بقوة . واحتك قاع الزورق باليااسة .

ترك الفهد المجداف وقفز إلى الماء وأخذ يدفع الزورق أمامه . وأراد
السنجاب أن ينضم إليه ولكنه رفض بحزم . وحتى عندما طفا الزورق

فوق منطقة عميقة نسبيا لم يحاول أن يستنجد بالسنباب ، وكان يغوص في الماء إلى أن تلمس قدماه الأرض ثم يقفز كالضفدع . وفي أعماقه ، كان السنباب يشعر بالفخر لأن هذا الضابط الجسور ليس سوى واحد من ضباطه .

وعندما استقر الزورق على الشاطئ وجد الفهد أن السنباب قد شغل بالاسرائيلي فهمس أن دعه لي . ولم يكن الوقت يسمح بالتباطؤ . لذلك جذب « باروخ » بشدة وأوقفه على قدميه . ورغم أن الاسرائيلي كان زائع البصر الا أن وجه الفهد الجامد كان حافزا قويا لأن يتقدم .

وعلى الشاطئ المفتر تحركت الأشباح الثلاثة نحو اللاندروفر . وكان الزورق قد أخطأ مكانها بحوالى ألف متر . وقال السنباب وهو ينقل قدميه بصعوبة أن الفهد ملاح ردىء . وأجاب الفهد ضاحكا أن ذلك أفضل مما لو أنه خرج بهم على شاطئ الحبشة . وعندما وصلوا إلى اللاندروفر وجدوا زجاجها مغطى بالريذاز وقد غاصت عجلاتها في الرمال الرطبة . وفي غضون دقائق تحولت العربة الشقية إلى سجن صغير . فبعد أن حشو « باروخ » في المقعد الخلفى أغلقت الأبواب وابتعد الضابطان حتى حافة المياه ليتشاورا فيما بينهما . وكان منظر السنباب مضحكا والماء يقطر من ثيابه وسراويله ملتصقة بساقيه . وكانت نظارته التى غطتها الأبخرة تحجب الرؤية بدلا من أن توضحها . وفي العربة . كان « باروخ » يحدق من وراء النافذة وهو يحاول عبثا أن يستشف مضمون النقاش من حركات الأيدي وإيماءات الرأسين . وغدا وعندما عاد الضابطان إلى العربة اكتشف « باروخ » أن الفهد يتسم في حين كان السنباب مقطبيا . فانخرط في البكاء بحرقة .

تحركت اللاندروفر صوب المدينة النائمة ببطء . وحاول السنباب أن يهدئ من روع الاسرائيلي بعبارات تحمل معنى الاشتمزاز أكثر من

العطف . أما الفهد فكان مشغولا بمتابعة الطريق في الظلام الدامس . اذ كان حريصا على ألا يضيء مصابيح العربات الأمامية . حتى لا يلفت الأنظار إليها .

لاحظ « باروخ » أن العربات . بعد أن اخترقت المدينة . مضت بحذاء الشاطئ صوب الصحراء . وبمجرد أن اختفت أضواء الميناء . انحرف الفهد إلى اليسار وأوغل في منطقة رملية شديدة الوعورة . وفي منخفض تحيط به الكثبان الرملية . توقف الفهد وأطفأ المحرك ثم استدار إلى الاسرائيلي وأمره أن يهبط إلى الأرض .

كانت الحوادث منذ محاولة الهروب عند البئر . قد ولدت في نفس « باروخ » انطبعا ترسخ باطراد . بأن الفهد قد قرر التخلص منه . لذلك ظن أن نهايته قد حلت . عندما أمره الفهد بأن يتقدم أمامه في الصحراء . وأثناء ارتقاء تل رملي صغير . تعثرت قدما « باروخ » وسقط وأمره الفهد بصوت خافت أن يتماسك كرجل . ولكنه مالبث أن تهاوى بمجرد أن نهض . وبصعوبة بالغة تمكن « باروخ » من الوصول إلى الناحية الأخرى من التل ، وقد أمره الفهد أن يرقد !!

كان ضابط المخابرات المصري يحتل قمة المرتفع . وكان بمقدوره أن يراقب اللاندروفر . بينما رقد الاسرائيلي على مسافة أمتار من قدميه . وكانت أنفاسه تتلاحق بعنف بتأثير الاجهاد والسهر والخوف . وعندما ألقى نظره من مكانه . وجد حذاء الفهد وبراءه كفيه البريزين . ولما أمعن البصر ، اكتشف أن المصري ينظف مسدسه . الذي أصابه البلبل من مياه البحر !!

زحف الاسرائيلي فوق الرمال والدموع تنهمر من عينيه . وانتهى الضابط المصري عندما لمس وجه « باروخ » حذاءه . وكان الأخير يتوسل بتوجيه وبكلمات مضغمة غير مفهومة . وأدرك المصري أن أسيره يعتقد أنه

سوف يقضى عليه . ورغم أنه أطلق قهقهة عالية ، إلا أنه شعر بالرتاء
لتهاك هذا الضابط . الذى ينتمى إلى جهاز مخبرات . واضطر إلى أن
يطيب خاطره . ثم أمره أن يخلد للنوم .

كان الضباط الثلاثة قد قضوا أكثر من أربع وعشرين ساعة دون نوم .
وقد اتفق المصريان على أن يتناوبا النوم حتى الحادية عشر صباحا .
لكى يحصلوا على قسط من الراحة . ولكى يقطعوا النهار فى رحلة العودة
الى صنعاء . وبذلك يصلوا إلى العاصمة اليمنية بعد غروب الشمس .

وفى الثانية صباحا . يوم الخميس السابع والعشرين من يوليو . جاء
دور السنجاب فى حراسة الأسير . وكان « باروخ » مستغرقا فى النوم .
ولكنه كان يفزع من حين لآخر كما لو كان تحت وطأة كابوس مخيف .
وكان السنجاب يعانى من رشح أصاب أنفه بتأثير الليلة القاسية التى
قضّاها فى البحر . ولكن هذا الرجل . كان محتفظا برباطة جأشه وكأنه
يقضى نزهة خلوية فى يوم عطلة .

وقبل أن تبدأ اللاندروفر رحلة العودة . أخرج الفهد من مواخيرتها
حقييته وناول السنجاب قميصا نظيفا . ودهش « باروخ » عندما بدأ
الضابطان فى حلالة ذئبيهما دون استخدام معجون الحلالة . وبعد أن
تبادلا صب الماء وغسلا رأسيهما . أمرا الأسير أن يحذو خذوهما . وكانت
هذه أول مرة يخلق فيها « باروخ » ذقنه . منذ أن قبض عليه .

وفى العربة . وزع الفهد وجبة طعام جافة . وحاول « باروخ » فى
البداية أن يمتنع عن تناول نصيبه . ولكن السنجاب سأله عما اذا كان
يفكر فى الاضراب عن الطعام . وفى نفس الوقت . كشر الفهد عن أنيابه
وهو يزمجر . فأسرع « باروخ » إلى تناول طعامه وهو مغمض العينين .

وطوال المسافة بين « الحديدية » ومدينة « مناخة » كان « باروخ »
هادئا . وقد استغرق فى تأملاته الخاصة . ولكن حدث أثناء تزويد

اللاندروفر بالوقود . أنه بدأ في الارتعاد وأطبق أسنانه . ثم أخذ في الصراخ بأعلى صوته . وبعد خمسة عشر دقيقة عاد الهدوء من جديد . وأدرك الضابطان المصريان أن الأسير سوف يتسبب في مزيد من المتاعب . وكان كل منهما ينظر إلى ما يجري نظرة مختلفة .

كان السنجاب يعتقد أن « باروخ » يعاني من نوبا عصبية حادة . نتيجة فقدانه الثقة بنفسه . ولخوفه من المجهول الذي يساق إليه . بعد فترة حبس طويلة . وكان الفهد تقفعا بأن « باروخ » يمثل مسرحية هو بطلها الوحيد . وأنه وإن كان مريضا بالفعل إلا أنه يغالى في إظهار الخلل الذى أصاب أعصابه .

ونوقشت مسألة مرض الأسير لأول مرة . عندما توقفت العربية في نفس المنطقة التى حاول فيها « باروخ » أن يهرب . فبعد أن اغتسل الضابطان أمرا الأسير أن يجلس على مرمى حجر من مكانهما . وأخذا في الحديث همسا . وقال الفهد أنه يعرف « باروخ » أكثر من نفسه . وحذر بشدة من مغبة تركه ليسترسل في أداء الدور الذى يمثله .

وفجأة . استدعى السنجاب الأسير . وأمره أن يجلس أمامه . وبعد أن تقرس في وجهه قال له بصوت هادئ التبرات . أن مشكلة مهيئة قد طرأت على الموقف . وأن عملية نقله الى القاهرة قد اكتنفتها المضاعف . كما أنه أصبح مصدراً للقلق نتيجة لمرضه الذى سوف يؤدى إلى افتضاح أمرهم . لذلك استقر الرأى على التخلص منه !!!

انتبهت حواس الأسيرائلى وفتح عينيه على اتساعهما . وكان وجه ضابط المخابرات المحنك الجالس في مواجهته . ينم عن صدق كل كلمة تقوه بها . وبعد فترة صمت ساد خلالها جو من الحزن . المشوب بالانتقباض . قال السنجاب أن زميله هو صاحب القرار . وأنه حاول

جاهدا أن ينقذ رأس المسكين الذى يشترك معها في نفس الحرقه . رغم أنه في صفوف العدو . ولكن جهوده ضاعت هباء !!

نقل « باروخ » بصره بين السنجاب والفهد . الذى كان يرمقه بنظرات عدائية تثير الرعب . ويبدو أنه فكر في مواصلة دوره . إذا ارتفعت شفته السفلى واختلجت عضلات عنقه . ولكن الدموع انهمرت بغزارة من عينيه . وقال بصوت واهن أنه يتعهد ألا يثير أية مشاكل بعد الآن . وأنه على استعداد لأن يفعل أى شىء مقابل الابقاء على حياته .

وعلى الفور . انضم السنجاب إلى « باروخ » . وقال أنه يضمن تنفيذ هذا التعهد وأفاض في وصف حالة الأسير النفسية . وأشار الى أن له أسرة تنتظر عودته . وأن كونه ضابط مخابرات يمنحه الحق في أن يعامل معاملة خاصة وأضاف « باروخ » أنه تعاون باخلاص وأنه أدلى بمعلومات لا تقدر بثمن ولكن الفهد كان يبدو وكأنه لا يسمع !!

كانت الشمس تغيب وراء قمم الجبال الشاهقة . وكان « باروخ » جالس القرفصاء . ووراءه نفس المنحدر الأخضر الذى اختفى فيه من قبل . وكان صوت تفرق الماء من البئر أشبه بموسيقى تصويرية لمشهد جبائزى بشع . وازداد المشهد بشاعة عندما قال الفهد وهو يضغط الكلمات بقسوة . وأن الخيار الوحيد المطروح الآن . هو طريقه إنهاء المسألة بهدوء . ومن غير مزيد من الألم !!

اندفع الاسرائيلي في موجة بكاء غارمة . وكان نشيجه يعبر عن مدى الرعب الذى سيطر عليه ولكنه واصل التوسل . وأقسم بالتوراة . وحاول أن يقبل قدمى الضابط المصرى الذى كان ينظر إليه بسخرية مريرة . والذى كان دراية تامة بالأعباء . وفي النهاية . اتجه بتوسلاته الى

السنباب ، الذى كان يبدو متعاطفا معه . كما كانت ملامحه تنم عن أن قلبه يتمزق !!

وأمام ضغوط السنباب ، وتوسلات الاسرائيلى ، ارتضى الفهد أن يتخذ قراره بالعمو . ولكنه اشترط أن يعترف « باروخ » بأن أعصابه على ما يرام . وأن يمتنع عن عرض مسرحيته الهزلية مستقبلا . وحذر بحزم من أن أية مراوغة قادمة ، سوف تكون الأخيرة .

واعترف « باروخ » صراحة أنه لجأ إلى هذه التصرفات ليستدر العطف . ولكنه أصر على أن الضعف قد بدأ يزحف إلى عقله بالتدرج . وادعى أنه يعاني من صداع حاد في مؤخرة رأسه . وعندئذ ، أمره الفهد أن يتجه الى العربدة وأن ينتظر هناك .

وقف المصريان معا فوق صخرة على حافة البئر . وهنا السنباب تلميذه بحراره . وقال الفهد أن الاسرائيلى رغم كل هذه الدموع سوف يلجأ في أول فرصة الى الخداع . وكان السنباب يتعجل الوصول الى صنعاء . ليعرف السر في فشل رحلة الغواصة . وليتصل بالقاهرة لينسق معها خططه . وبجوار اللاندروفر كان « باروخ » ينتظر هذا القرار . الذى كان بالنسبة له ، مسألة حياة أو موت . دون أى قدر من المبالغة . وبانتهاء المشاورات نادى الفهد على « باروخ » . فأسرع إليه ووقف أمامه وقفة عسكرية . وأعلن الفهد بصوت تشوبه نبرة أسف أنه قرر الإبقاء على حياته . وقال أن هذا القرار اتخذ تقديرا لظروفه الشخصية . ومن جديد ، انهمرت دموع الاسرائيلى وتمتم بكلمات الشكر . وتحرك الضباط الثلاثة إلى العربدة .

ساد جو من المودة بعد هذه المحاكمة السريعة ، التى كانت صورية بالطبع ، ودار حديث ضاحك بين السنباب وباروخ . أما الفهد فكان يتطلع إلى المرأة من آن لآخر ويبتسم . وعلى الجانبين ، كان الرعاة

اليمنيون يظهرن بين الصخور وهم يدفعون قطعانهم . صاعدين في
الممرات الجبلية الوعرة . نحو القرى المبنية فوق السحب .

ومع انسداد ظلمة الليل . ضغط الفهد زر الراديو ، وبحث عن صوت
مصر . وتوقف المؤشر أمام محطة « كول كاهير » وهى إذاعة باللغة
العبرية بثها القاهرة . وقال « باروخ » ضاحكا أنه كان يفضل الاستماع
إلى هذه الاذاعة ، ولكن المصريين لم يعلقا ، وعندما جاء صوت إذاعة
القاهرة . كان المذيع يقرأ نشرة أخبار . ودعش الضباط الثلاثة . عندما
قال المذيع . أن أمين الجامعة العربية . محمود رياض قد قطع زيارته
لصنعاء فجأة . وعاد إلى القاهرة !!

وبعد إغلاق الراديو ساد الصمت جو العربة . التى كانت مندفعة
بأقصى سرعتها على الطريق . وكانت أنوارها الأمامية ترسم في المنحنيات
ظلالا وحشية لمعالم الأرض . وكان السنجاب يدخن ويتأمل وميض
سيجارتته في الزجاج . وبعد منطقة موحشة ترقد فيها دبابة محطمة في
منخفض على يمين الطريق مباشرة . شاهد الفهد عربة صغيرة تقف إلى
اليسار وثمة رجل يلوح بمنديل أبيض . أحدث صرير فرامل اللاندروفر
دويا عاليا وسط سكون الجبال . وأفاق السنجاب وهرش في مؤخرة
رأسه ، أما « باروخ » الذى كان نائما . فقد دعر بشدة وكاد أن يرتطم
بمسند الفهد . وسأله عما يجرى ولكن الفهد لم يرد بل فتح باب
اللاندروفر وقفز إلى الأرض .

اتضح أن العربة المعطلة تقل أسرة عذنية . وقد تطوع الفهد لمساعدة
رب الأسرة الذى راح يثرثر مستفسرا عن سبب وجود مصريين على هذا
الطريق في وقت متأخر من الليل . وقال الفهد أنه وزميلين من التجار
وأنهم استطعوا أسواق الجديدة وسوف يقضون أسبوعا في صنعاء .

واكتشف الفهد أن العربية ليس فيها وقود فعاد إلى اللاندروفر وأحضر وعاء وسأل العدنى عما إذا كان لديه « خرطوم » فأجاب بالنفى . واضطر ضابط المخابرات المصرى إلى فك ماسورة البنزين في اللاندروفر وبعد أن امتص بفمه كمية مناسبة من السائل اللاذع ، تذق البنزين بقوة :

انتهر السنجاب فرصة التوقف وتسلق مرتفعا صخوريا ثم أختفى وراءه . وبعد دقائق عاد وهو يمسح رأسه بمنديله وقال « باروخ » أنه يود أن يهبط ليتخلص من فضلات جسده : فأذن له السنجاب . وعندما عاد الفهد إلى اللاندروفر سأل بلهفة عن « باروخ » وقبل أن ينطلق بحثا عنه ظهر شبحه فوق قمة المرتفع .

ومن المؤكد أن « باروخ » عانى من آلام نفسية مروعة . بعد تلك الحادثة . فقد اكتشف أن المصريين يضمن جوانحها على مشاعر إنسانية نبيلة . كذلك كانت اللحظات التى انهار فيها وظهر ضعفه بشكل قبيح . توتره وترك في نفسه إحساسا بالصفة . وكان وجوده مع اثنين من الضابط المصريين . قد ولد لديه شعورا طاغيا بضالة قدراته . كان قرما يتجول مع اثنين من العمالقة .

فبعد مضى ساعة من هذه الحادثة . لاحظ السنجاب أن « باروخ » أطلق آهة مكتومة . وعندما ألقى نظرة . وجد جاره متكئا على النافذة وقد طرح رأسه على مسند مقعده . فسأله عما إذا كان بخير ولم يتلق أية إجابة . وعندئذ مد يده وأدار ذقن الأسير بحدة . وفي تلك اللحظة رأى سيالا من الدم ينساب فوق قميص . فصاح طالبا من الفهد أن يتوقف ويضئ أنوار العربية الداخلية .

توقفت اللاندروفر واكتشف الضابطان أن « باروخ » قطع شرايين يده اليسرى . مستخدما قطعة معدنية رقيقة من النوع الذى ينتزع من

سطح علب العصير لفتحها . وكانت الدماء تتدفق بشكل مخيف من معصمه . واضطر الفهد إلى إيقاف التزيف بوضع شريط لاصق - من الأشرطة التي تستخدم في لحام الأسلاك الكهربائية - ثم ربط المعصم بقطعة من القماش .

كان تلك الاسرائيلي في شبه غيبوبة بعد أن نزف كمية كبيرة من الدم . ولم تكن محاولة الانتحار تدخل ضمن تعدياته بالأثير المتاعب . ومن الغريب أن قلب الفهد رق له بعد أنتحاره . فقد كان هذا هو أمل عمل يتسم بالشجاعة . يقدم عليه الاسرائيلي منذ أن التقي معا .

من الغريب أيضا أن « باروخ » اعتذر بمجرد أن أفاق من غيبوبته عن هذه الفعلة التكرار ، وقال له الفهد أنه ليس غاضبا عليه ، لأن هذا هو التصرف الأمثل عندما يسقط ضابط المخابرات . ولكنه شفع هذا الاطراء بقوله . بأن مشكلة « باروخ » أنه لم ينتحر منذ أو لحظة سقط فيها . لأن انتحاره الآن . لن يجدى شيئا وحرص السجبان من جانبن على تغذية « باروخ » . فزادت جرعات عصير الفواكه التي كان يتلها . وسمح له بالهبوط من العربة أكثر من مرة . ليستلقى على الأرض . عندما كان يشعر بضيق في نفسه . بل ان السجبان تخلى له عن المقعد الخلفي . وجلس بجوار الفهد .

وخلال ساعتين كان « الاسرائيلي » قد تمالك نفسه . ولكنه كان يبكى بحرارة ويتأمل ذراعه المخضبة بالدماء ورسغه المربوط . وقد اعترف بأنه يشعر بجرم كبير بسبب خداعه المتواصل للمضربين . الذين كانا كريمين معه للغاية وقال أنه لم يكن في كامل وعيه عندما مزق جلد معصمه . ولكن بمجرد أن رأى الدم . انتابته رغبة عارمة لكي يزيد من عمق جروحه .

واطلع الاسرائيلي على أول معلومة بشأن الرحلة التي كان من المقرر أن يقوم بها . الى القاهرة . عندما اشكا السنجاب من الارهاق الناجم عن السفر المتواصل ، فقد أجاب الفهد بأنه كان سيعود في نفس الطريق حتى لو لم تقتل خططهما . وأدرك « باروخ » أنه كان سيصبح هذا السنجاب الطيب القلب ، وتبنى في قرارة نفسه لو أن هذا الحلم تحقق .

وفن الأمور التي تدفع على التأمل . تلك العلاقة العجيبة التي نمت بين « باروخ » ، وضابط المخابرات المصرى القديم . فقد بلغ من تأثير السنجاب ، أن « باروخ » كان يشعر بالسعادة عندما يقع بصره عليه . وفيما بعد . كان السنجاب هو الوحيد من بين ضباط المخابرات المصريين ، الذى يحرص على قضاء أطول وقت ممكن مع « باروخ » كما كان دائب الاستفسار عنه عندما يتغيب .

وفي نفس الوقت . لم يحاول « الاسرائيلي » أبدا أن يرفع عينيه الى الفهد . فقد كان هذا الضابط الذى عامل « باروخ » بشهامة في البداية يمقت ألعابه الساذجة ومحاولاته الدائبة للافلات . وقد حرص على أن يظهر له مقتله لكى يسقط الاسرائيلي أسير عطف السنجاب . وكان ذلك منطقيا . لأن « باروخ » كان يشعر بالتفاوت الشديد بينه وبين الفهد من حيث القوة البدنية . لذلك فضل مصادقة السنجاب الذى كان أقرب إليه . بحكم سنه على الأقل .

وكان لابد لمحاولة الانتحار أن تترك أثرها على جو العربة . طوال الرحلة نحو صنعاء . وكان « باروخ » يشرد عن أفكاره ولا ينتبه إلا عندما يناولوه السنجاب علبة عصير أو بعض الطعام . وكان السنجاب حزينا بسبب فشل عملية نقل الأسير عن طريق البحر . أما الفهد فكان مشغولا بمتابعة الطريق وهو يندفع بسرعة رهيبه حتى في المنحنىات الخطرة .

وفي الحادية عشرة والنصف ، ظهرت أضواء صنعاء ، واندفعت العربيه في منحدر حاد وهنأ الفهد رفاقه بسلامة الوصول ، لكن « باروخ » الذى كان يعرف أن الوصول الى صنعاء ليس خاتمة المطاف ، ظل مستغرقا في شروده وقد اتكأ بذراع الجريمة على النافذة .

ومرة أخرى وقفت اللاندروفر أمام سداة الطريق ، التى تقع عندها نقطة الشرطة العسكرية ، عند مدخل المدينة ، واقترب جندى الشرطة ليلقى نظره فتناوله السنجاب جوازات السفر . وعلى ضوء مصباح يدوى ، راجع الجندى بيانات جواز السنجاب وسلم له ، ودار الى الناحية الأخرى ليسلم الفهد جوازه ، وعندما وقف تحت نافذة السيارة التى يجلس بجوارها « باروخ » رفع رأسه نحوه فوجد ذراعا مخضبة بالدم فوقه مباشرة .

وكان مشهد الدم مثيرا بدرجة أكثر حدة عندما أمر الجندى الركاب الثلاثة أن ينزلوا من العربة ، فقد كان قميص « باروخ » ملطخا ببقعة دم غطت نصف صدره وعلى الفور انضم اثنان من الجنود الى زميلهم ، وأحاطوا بالضباط الثلاثة وقد صوبوا نحو صدورهم فوهات البنادق ، ثم أ مروهم أن يدخلوا الى مقر نقطة الشرطة وأصدروا الباب باحكام .

وعندما دقت الساعة معلنة منتصف الليل ، كان اثنان من ضباط المخابرات المصرية ، ومعهم ضابط مخابرات اسرائيلى غارق في دمائه ، مسجونين في غرفة صغيرة من الأسمنت ، تحت حراسة الشرطة العسكرية اليمينية !!

الفصل الحادى عشر

« الاستعدادات تبلغ ذروتها »

بينما كان أثنان من ضباط المخابرات المصريين . ومعهما ضابط المخابرات الاسرائيلى . باروخ مزراحى . محتجزين في غرفة صغيرة من الأسمنت . عند مشارف صنعاء . كانت استعدادات المخابرات الاسرائيلية . قد بلغت أقصى ذروتها . وكان واضحا . أن الاسرائيلين قد قرروا أن يحضروا الى آخر الشوط . حتى لا يصل ضابطهم الأسير حيا الى القاهرة .

فى صباح الأربعاء السادس والعشرين . من يوليو . وصلت الى رئاسة المخابرات المصرية . معلومة على جانب كبير من الخطورة . وكان ملخص التقرير الذى عرض على المشير أحمد اسماعيل فى الساعة الثامنة صباحا . أن القوات الجوية الاسرائيلية . نقلت الى مطار إيلات . فى النقب الجنوبى . سرىا من طائرات الهيليوكبتير . المجهزة للعمل ضد الغواصات !!

وعلى الفور أجرت المخابرات اتصالا سريعا بقيادة السلاح البحرى . وأرسلت برقية عاجلة الى الغواصة ٦١٢ ، التى كانت مكلفة بنقل الأسير . وكان محتوى البرقية أمرا الى القبطان . بأن يبحر عائدا الى خط سيره الأسمى . وهكذا . اختفت الغواصة قبل أن يصل ضباط المخابرات الثلاثة . الى مكانها الذى سبق تحديده فى البحر .

والى الشمال من ميناء إيلات فى صحراء النقب . اكتشفت عيون المخابرات المصرية معسكرا أقيم على عجل لتدريب مجموعات من اليهود اليمينين على عمليات الاغارة . وكانت الوجوه التى تختفى من هذا المعسكر تظهر فى أديس أبابا . وأوضحت هذه المعلومات أن الاسرائيلين يستعدون لتوجيه ضربة قاصمة . بمجرد اكتشاف مكان « باروخ » . ومع هذه المعلومات تدفقت بشكل منتظم البيانات الخاصة بالدوريات الجوية فوق البحر الأحمر . وظهرت على خرائط غرف العمليات . فى رئاسة المخابرات المصرية . خطوط حمراء متشابكة توضح مسار طائرات العدو . ولوحظ مرات عديدة أن العدو يكثف نشاطه الجوى فى الجنوب بمجرد اقتراب أية طائرة من المجال الجوى المصرى .

ومن الاستعدادات الاسرائيلية . اكتشاف المصريون أن النبأ الذى نشرته صحيفة الأهرام عن وصول « باروخ » الى القاهرة . صباح الاثنين الرابع والعشرين من يوليو . لم يحدث أى أثر . وانقسم الضباط المصريون الى فريقين . فريق يعتقد أن الخدعة لم تنطل على الاسرائيليين . وفريق يؤكد بقوة أن الاسرائيليين لم يقرءوا هذا النبأ أصلا .

ويبدو أن جهاز المخابرات فى القاهرة . كان ينوى نقل « باروخ » عبر أراضى دولة أو دول أخرى . فبعد أن فشلت خطة نقله عن طريق البحر . تقدمت وزارة الداخلية المصرية . بمشروع قانون جديد للجنسية .

ونص هذا القانون الذى صدر بسرعة غريبة . على أن المصرى هو من كان متمتعاً بالجنسية المصرية . في الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٨ .

ومما يلفت النظر . أن الجنسية المصرية أُسقطت عن « باروخ » في الثالث والعشرين من فبراير من نفس السنة . أى بعد التاريخ الذى حددته القانون الجديد بيوم واحد !!

ولا شك أن التفسير الوحيد . لهذا الاجراء المفاجئ . هو أن المصريين عمدوا الى هذه الخطوة . حتى يتجنبوا حدوث أية تعقيدات . اذا اكتشف « باروخ » أثناء نقله في أراضى اجنبية . اذ اصبح بمقدور الحكومة المصرية أن تزعم . أن الضباط الثلاثة . بما فيهم الضابط الاسرائيلى . يتمتعون بالجنسية المصرية !!

ولعل أغرب ما حدث . في غمار الحوادث المتلاحقة . هو ما جرى في باريس . في الثامن والعشرين من يوليو . فقد تعرض موكب الملك الحسن ملك المغرب . أثناء عودته من اقليم « بورجيه » في شمال فرنسا . لوابل من طلقات الرصاص . وأصيب في الحادث بعض مرافقى الملك . ولكنه شخصيا لم يصب بأى أذى !!

وفي نفس الوقت . وصل الى مبنى السفارة المصرية . الكائن في شارع « دى بينا » . رجل فرنسى طويل القامة . يغطى عينيه بنظارة قاتمة . ويحمل في يده حقيبة أوراق متنفخة . وقال هذا الرجل . أنه يرغب في التحدث الى شخص مسئول . في مسألة على أقصى درجة من الأهمية . وأضاف . أن من الافضل ان يلتقى بالسفير نفسه !!

كان اليوم جمعة . وكانت موظفة الاستعلامات مشغولة باتصال تليفونى مع السفارة المغربية . وقد ظل الرجل الطويل واقفا والقلق يغمر ملامحه . وعندما طلبت منه بأدب جم أن يجلس . قال أنه في عجلة من أمره . وأنه لن يستطيع البقاء لأكثر من ربع ساعة . فاذا كان هناك

ما يبرر التأخير . فإنه يفضل الحصول على موعد عاجل بعد ظهر نفس اليوم .

تحدثت موظفة الاستعلامات في التليفون . وزجت الفرنسى القلق أن ينتظر . وبعد ثلاث دقائق . وصل الى مكتبها شاب طويل القامة أشبه بنجوم السينما . وقد اتجه مباشرة الى الضيف الفرنسى وطلب منه أن يتبعه .

دخل الرجلان معا الى غرفة صغيرة رمادية اللون . في الطابق الأرضى . ولاحظ الضيف أن الشاب يتفرس في وجهه وكأنه ينتظر منه أن يبدأ الحديث . فأجال بصره في الغرفة . ورفع ذقنه بجدة ثم هتف .

- حسنا ، انتنى موفد من قبل الاسرائيليين .

- الاسرائيليين ١٩ .

- نعم . هذا هو ماقلته بالضبط .

كان الشاب المصرى يتسم . ولكنه قطب جبينه . ولاحظ الضيف أنه يجيد الحديث بالفرنسية ، وبعد فترة ساد فيها الصمت عاد الفرنسى الى الحديث ،

- ان لدى رسالة ... أعنى ... هم يعرضون صفقة .

- إننى أنصت ... استمر .

- إننى محامى ، اسمى جاك مرسيه .

- أهلا بك .

- لقد وكلونى للدفاع عن شخص ما ... شخص في حوزتكم .

- أم انتنى أدرك مثل هذه المسائل . تقصد « متهم » .

- لست أعرف وجه الدقة ... ولكنى أود أن أناقش الأمر مع مسئول

مفوض .

- لا ... ان هذه المشاكل لا تحل على هذا النحو ... أود أن أعرف التفاصيل .

- ليس لدى تفاصيل كثيرة . يا سيدى . كل ما لدى أنهم يعرضون الأفراج عن أربع فتيات مقابل « المتهم » .

- فتيات ؟

- نعم ... هذا هو ما دفعنى الى الحضور . الفتيات موجودات الآن في السجن . وقد قبض عليهن في عملية من عمليات المقاومة

كان المصرى ينصت باهتمام . وفجأة . استدار الى جهاز تليفون موضوع فوق مائدة صغيرة وبعد أن تحدث بصوت هامس لمدة دقيقة واحدة . عاد إلى محدثه وقد بدا الجذ على تقاطعيه وواصل المحامى حديثه :

- إن الفتيات فرنسيات ياسيدى . وقد تحمست كثيرا لأداء هذه المهمة . أنت تقدر طبعا مثل هذه المواقف أليس كذلك ؟

- بكل تأكيد ... ومن المتهم ؟

- باروخ مزراحى ... !!

- آه . يبدو أنه اسرائيلى .

- نعم ... بالطبع ... لذلك عرضوا عرضا مغريا .

واتفق الرجلان على أن يلتقيا . في نفس الموعد بعد أربع وعشرين ساعة . ووعد المصرى بعرض الأمر على السلطات في القاهرة .

وبعد انصراف المحامى جاك مرسيه من مبنى السفارة . أرسلت برقية عاجلة الى وزارة الخارجية . بالقصة كلها . وعندما عرضت البرقية على المخابرات . دهش الضباط المزيون أيا دهشة . فقد كان معنى الصفة المقترحة . أن الاسرائيلين ليسوا واثقين من وجود « باروخ » في اليمن . ورأى المشير أحمد أسمايلى . أن الهدف من العرض الاسرائيلى . قد يكون

محاولة بارعة لاستكشاف الموقف . وعلى هذا الاساس . تقرر مواصلة المحادثات مع جاك مرسيه . على أن تدار هذه المحادثات . بحيث يمكن الاستفادة منها . في استطلاع معلومات المخابرات الاسرائيلية عن الموضوع برمته .

كانت اسرائيل تخشى أن يكون المصريون قد نجحوا في نقل « باروخ » . في غفلة من عيونها التي أنتشرت في المنطقة . ولم يكن مستبعدا . أن ينقل المصريون الأسير عن طريق رأس الرجاء الصالح . وفي هذه الحالة . كان من الضروري مراقبة الوحدات البحرية المصرية في البحر المتوسط . فإذا ما تأكد أن « باروخ » موجود على ظهر أى منها . يمكن اتخاذ إجراء حاسم . مهنا كانت العواقب .

وقبل الموعد المحدد لوصول « جاك مرسيه » الى السفارة . بساعة ونصف ساعة . اتصل شخص مجهول بالسفارة عن طريق التليفون . وقال أن لديه رسالة هامة . ورفض أن يفصح عن أسمه أو هويته . ثم قال أن من الأفضل . إنهاء موضوع « المتهم » الاسرائيلي لأن اسرائيل . لن تتورع عن الهجوم بالقوة المسلحة . لاستعادة الأسير وعندما حاول المصريون إطالة زمن المحادثة . وضع المتحدث سماعة التليفون !!

وفي نفس الغرفة الرمادية . التي شهدت اللقاء الأول . اجتمع المحامى الفرنسى مع « الدبلوماسى » المصرى الذى كان منشراح الصدر . وقد رجب بضيغه بحرارة . وأبلغه أن القاهرة لم ترد بعد على الرسالة العاجلة التى أرسلها . والتى تتضمن الغرض الاسرائيلي . وأنه يرى أن يرسل الى القاهرة مزيدا من التفاصيل . وقال « جاك مرسيه » أن « باروخ » مواطن اسرائيلي ضبط في اليمن وهو يلتقط عددا من الصور السياحية !! . وأضاف أن اسرائيل لديها معلومات مؤكدة بأن « باروخ » قد سلم الى السلطات المصرية .

وقال « الدبلوماسى » المصرى أن هذه المعلومات . لو كانت دقيقة . فإن « المتهم » لابد أن يقوم للمحاكمة . أمام المحاكم المصرية . وفي هذه الحالة . يستطيع جاك مرسيه أن يسافر ليتراجع فى القضية . طبقا للقانون . أما اذا تعذر عليه السفر . فإن بمقدوره أن يوكل محاميا مصرية . ليقوم بالمهمة نيابة عنه .

وعقب جاك مرسيه بأن المشكلة أن السلطات المصرية لم تعلن عن تقديم المتهم للمحاكمة . كما يحدث عادة . وأن اسرائيل تخشى أن يتعرض « للاجراءات المعروفة » عندما تحاط الأمور بالسرية المطلقة . واستطرد أن الرجل فيما يبدو يتمتع بأهمية بالغة فى نظر الاسرائيليين . وذلك على هذا الاعتقاد بأن الاسرائيليين عاودوا الاتصال به . وعرضوا أن يفرجوا فوراً عن مجموعة من الاسرى المصريين . الذين وقعوا فى قبضة الجيش الاسرائيلى أثناء الغارات التى يتبادلها الجانبان . ويتكتمان أنباءها .

وسأله « الدبلوماسى » المصرى عما إذا كان العرض الجديد يتضمن أيضا الافراج عن الفرنسيات الأربع . فأجاب بالايجاب . ولكن المصرى اقترح أن يستوثق المحامى الفرنسى من هذه النقطة . لأن القاهرة تهتم بالرعايا الفرنسيين . ولأن وجود أربع فتيات فى قبضة السلطات الاسرائيلية ليس من الأمور التى تبعث على البهجة .

وفيما يتعلق بالدفاع عن المتهم . قال المحامى الفرنسى . أنه يتخذ الاجراءات القانونية ليوكل أحد المحامين المصريين . لكى يتولى هذه المهمة . أمام المحاكم المصرية . اذا فشلت الجهود المبذولة للافراج عنه . وتعددت الاتصالات بين المحامى الفرنسى . والسفارة المصرية فى باريس ; وقد طالبت القاهرة ببعض الايضاحات الضرورية . قبل أن ترد على عرض المحامى الفرنسى . وكان على المحامى الفرنسى أن يتصل

بالاسرائيليين . ليسألهم عن اسم المتهم بالكامل . ورقم جواز سفره .
والجهة التى أصدرت هذا الجواز . ثم . جاء أهم سؤال فى قائمة الأسئلة
التي طلب المصريون الاجابة عليها . وهو . كيف وصل هذا المواطن
الاسرائيلي الى اليمن !!!

أسقط فى يد الاسرائيليين عندما اطلعوا على هذا السيل من
الاستفسارات . وأدركوا أن المصريين يقودونهم الى شرك بالغ الغرابة .
فبدلا من أن يحصلوا على معلومات عن موقف ضابطهم . كان عليهم أن
يتطوعوا بتقديم المعلومات للمصريين . وفى محاولة يائسة للتخلص من
هذا الشرك . أرسل الاسرائيليون بأنهم لا يرغبون فى مناقشة التفاصيل .
ولكنهم يرغبون فى معرفة رأى القاهرة . فى الصفقة التى يقترحونها .

كان المحامى الفرنسى هو همزة الوصل . بين المصريين
والاسرائيليين . فى تلك المفاوضات البالغة السرية . والتي لم يعلن عنها
قبل الآن . وقد لاحظ الفرنسى المذهب . أن الاسرائيليين يتعنتون بشكل
غير مقبول ، فرغم أنهم هم الذين طلبوا الاتصال بالسلطات المصرية . الا
أنهم يرفضون معاونته لكى ينجز مهمته .

وكما كان الاسرائيليون متعنتين اتخذ المصريون موقفا متشددا الى
أقصى حد . فقد رفضوا مناقشة أى جانب من المسألة قبل الاجابة على
اسئلتهم . وكان منطقهم صائبا يتسم بالقدرة على الاقتناع . فقد سألوا
المحامى الفرنسى عما اذا كان يوافق على أن يتوسط للافراج عن شخص
مجهول . وأضافوا . أن البيانات المطلوبة ضرورية تماما . فمن غير هذه
البيانات . تصبح العملية أشبه بالبحث عن سمكة سردين فى المحيط !!

وإزاء تصلب المصريين . وافق الاسرائيليون على أن يقدموا المعلومات
المطلوبة . ولكنهم لم يرسلوا سوى اسم المتهم ورقم جواز سفره . أما بقية

البيانات فرفضوا تقديمها وبرروا هذا الرفض . بأنهم لا يستطيعون تقديم الدليل . على قيام هذا المواطن بعمل غير مشروع في أراضى دولة عربية !!

واضطر المصريون الى اعلان عزمهم على نسيان الموضوع نهائيا . كنوع من العقاب على المراوغة الاسرائيلية المتواصلة . وعندما أبلغ هذا القرار الى الاسرائيليين . عادوا وأبدوا استعدادهم لتحقيق رغبة القاهرة . بشرط أن يتلقوا ما يفيد بشكل قاطع أن « باروخ » موجود بالفعل في قبضة المصريين .

ومن جديد لجأ المصريون الى اتخاذ موقف عنيف . فأجابوا بأنهم يطلبون بيانات عن المتهم . لكى يبدأوا التفاوض بشأن الافراج عنه . اذا كان موجودا بالفعل . ولكنهم ألحوا الى ان العرض الاسرائيلى ليس مغريا . وقالوا أنهم يفضلون في حالة الوصول الى اتفاق . أن يكتبوا قائمة بأسماء الاشخاص الذين يرغبون في مبادلتهم بالمتهم !!

ولم تسفر المفاوضات التى جرت في باريس . عن أية نتائج . وان كانت هذه المفاوضات قد حققت فائدة عظمتى للمصريين فيما بعد . فقد قدروا مدى لهفة اعدائهم للحصول على « باروخ » وأصبحت في حوزتهم قائمة ثمينة بأسماء السجناء في اسرائيل . الذين يمكن استعادتهم في الوقت المناسب .

ومن الغريب أن محور هذه المفاوضات المرهقة . كان موجودا في اليمن وليس في القاهرة . فمنذ منتصف ليل الخميس السابع والعشرين من يوليو . عندما أمرت الشرطة العسكرية اليمنية الضباط الثلاثة بأن يدخلوا الى غرفة الحراسة . أصبح « باروخ » تحت تصرف السلطات اليمنية من جديد !!

كان الفهد مكتئبا بعد أن انتهت جهوده الى فشل ذريع . وكان « باروخ » جالسا القرقصاء وقد اكتشف ملامحه باللا مبالاة . ومن المؤكد أن الاجهاد والرحلة الرهيبة التى عاشها بكل تفاصيلها قد أدت الى اصابته بالبلادة . فاستسلم لمصيره استسلاما كاملا .

وطول الليل كان السنجاب يطل بوجهه الهادئ من وراء قضبان غرفة الشرطة . وهو غارق في التفكير . وعندما كان الفهد يقترب ويقف بجواره . كان النقاش يدور هما بينهما حول نقطة واحدة . فرضت نفسها على الرجلين . فقد كانا قلقين من أن تقرر الحكومة اليمنية . محاكمة « باروخ » في صنعاء . مادام المصريون قد عجزوا عن نقله إلى القاهرة .

وقبل الفجر حمل اليهم جندي الشرطة نبأ مقبضا . فقد فتح الباب بعنف وسأل عن يكون صاحب اللاندروفر . وأجاب السنجاب بأنه هو . فسأله عن السبب في أن عربته تحمل لوحة معدنية واحدة . ولما لم يتلقى

أية اجابة . أعلن أن هذه المخالفة تستوجب تسليمه لادارة الامن العام . لتتولى التحقيق معه .

كانت التعقيدات تتفاقم باضطراب . وكان السنجاب يأمل في أن يبقى الضباط الثلاثة معا حتى يتمكن من التصرف . وبعد مشاور مع زميله . الذى كان يبدو مثل أسد حبيس جائع . استقر رأيهما على أن يبذلا كل جهدهما حتى لا يجرى تسليمهم للسلطات المدنية . وكان السنجاب مصرا بقوة على الا يطلب عون السفارة المصرية . مهما كانت الظروف !! وقد طلب أن يعرض موضوعهم على رئيس الاركان بأقصى سرعة .

وفي الصباح الباكر حضر الى مقر الضباط الثلاثة . أحد ضباط الشرطة العسكرية . واطلع على جوازات السفر . ثم سأل عن سبب احتجازهم . وأجاب جنود الحراسة بأنهم لا حظوا الدماء النازفة من المدعو « موسى » وكان جواز سفر باروخ يحمل اسم موسى زكى سلامه !!

ووجه ضابط الشرطة أسئلة الى « باروخ » . الذى كان زائغ البصر واهنا . ولكنه أجاب بأن يده جرحت عفوا عندما كان يحاول فتح علبة تونة مستخدما مديّة حادة . ولكن ضابط الشرطة لاحظ أن « باروخ » ينظر بخوف الى الفهد . كما أنه كان يرتعد بشدة دون سبب ظاهر .

وجاء دور السنجاب الذى كان يرقب الموقف من مكانه بجوار النافذة . ولما سئل عن سبب قيادته لسيارة تحمل لوحة معدنية واحدة . أجاب بأن من المحتمل أن تكون اللوحة الخلفية قد سقطت في الطريق . من الحديدية الى صنعاء . وحدثت الكارثة المتوقعة عندما طلب ضابط الشرطة من السنجاب أن يطلعه على « ترخيص » اللاندروفر . ولم تفلح كل المحاولات التى بذلها السنجاب . للتخلص من المأذوق فقد كانت العربّة واقفة تحت النافذة . ولأول مرة بدا منظرها مثيرا للكراهية . وكان على السنجاب الذى اعترف بأنه صاحبها . أن يبرر قيادته لها بدون ترخيص . وفي نفس الوقت . كان « باروخ » يثير الريبة بهيئته التى تدفع على الرثاء . وبقيصه الملطخ بالدم . ونظراته الوجلة التى تنم عن خوف دفين .

وبعد انصراف ضابط الشرطة . الذى صارحهم بأن موقفهم ليس سهلا . انهمك السنجاب وزميله في مناقشة هامة . وكان رأى الفهد . الا مخرج من هذه الورطة الا بالاتصال بالسفارة . التى تستطيع أن تبذل مساعيها للافراج عنهم . ولكن السنجاب كان متشبثا برأيه . فضلا عن

رغبته في تجنب السفارة أية مشاكل . كان يعتقد اعتقادا راسخا في ضرورة ابقاء الامر سرا وفي أضيق نطاق .

وفي السفارة المصرية كان الدبلوماسى الذى يتلقى برقيات القاهرة . المرسلة الى الضابطین . في حالة قلق هو الآخر . فقد تلقى برقيتين بالشفرة . ولكنه لم يعثر على الفهد في شقة « باب اليمن » . ودesh الرجل بشدة . عندما وجد اللاندروفر تحت البيت . ومع ذلك لم يكن هناك أى أثر للفهد . وبعد أن تردد على الشقة عدة مرات . قرر أن ينتظر ما يأتى به المستقبل .

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح الجمعة . وصلت الى موقع الشرطة العسكرية . عربة جيب هبط منها رجل نحيل يرتدى الثياب المدنية . واتجه الى الغرفة التى احتجز فيها ضباط المخابرات الثلاثة . وبعد أنلقى نظرة . عاد الى كشك خشبى يقع في مواجهة الغرفة على الجانب الآخر من الطريق ولا حظ السنجاب أنه يمسك في يده بجوازات السفر الخاصة بهم . وكان لون الجوازات الأخضر كافيا للفت نظر السنجاب الى ان التحقيق سيكون أكثر دقيقا هذه المرة .

وبعد دقائق نادى المحقق على الفهد . وبعد أن تأمل الصورة المثبتة في جوازه مليا سأله الاسئلة التقليدية . تاريخ قدومه الى اليمن وسبب الزيارة وعنوانه في صنعاء . وفي النهاية . استبقاه الى جواره ونادى على السنجاب . تكررت نفس الاسئلة . بعد التحقيق من صورته في جواز السفر . وعندما تطرق التحقيق الى موضوع العربة . زعم السنجاب ان الاوراق كلها في التابلوة . ولكن تفتيش « التابلوة » اثبت أنه لا يحتوى الا على مفك من الصلب . وعلبة سجائر « بلمونت » . ولفة شريط لحام سوداء اللون !!

وعندما جاء دور « باروخ » . نادى المحقق على موسى زكى سلامة .
ولكن « المتهم » لم يخرج من الغرفة . وتكرر النداء دون جدوى . وتبادل
السنجاب والفهد النظرات . وأمر المحقق اثنين من جنود الشرطة بحراسة
« المتهمين » ثم عبر الطريق ليستطلع الامر .

كان « باروخ » مكوما في ركن الغرفة وهو يحرق في الباب بعينين
باردتين . وسأله المحقق . الذى كان يكتنم غيظ من استهتار هذا
« المصرى » التعس . عن سبب امتناعه عن تلبية ندائه . ولكن « باروخ »
ظل ساكنا كأنه أصم . وصرخ اليمنى بغضب متوعدا . وبهدوء شديد
اعتذر « باروخ » بأن احدا لم ينادى عليه . ولما قال المحقق أنه ردد اسم
« موسى زكى » ثلاث مرات . اجاب « باروخ » بأن هذا الاسم لا يمت
له بأى صلة !!

بدا الارتياح على وجه المحقق اليمنى وذاب غضبه . فها هو يضع يده
على الحلقة المفقودة في قصة المصرين الثلاثة التى كانت مثيرة للشكوك .
وبعد أن ألقى موعظة بليغة عن مزايا الادلاء بالحقيقة . والعواقب
المرذولة التى تنجم عن اخفائها . سأل بحنان غامر عن اسم « المتهم » .

عاودت الرعدة « باروخ » واصطكت أسنانه فأحدثت صريحا
مسموعا . وبدأ العرق في التصبب فوق جبهته . فقد أدرك أنه ارتكب
حماقة سوف تؤدى الى اثاره حنق الفهد . الذى كان مخيفا رغم انه تحت
الحراسة . وبذل المحقق اليمنى جهده لكى يستحبه على الكلام . ولكنه
أغلق فمه وهو يرتجف .

لم يكن مقبولا . بأى صورة من الصور . أن يبقى « باروخ » إلى
الأبد مطبقا فمه . وعمد المحقق اليمنى إلى زرع الاطمئنان في نفسه
المحطمة . وقال له أن أسوأ خطوة يمكن الاقدام عليها . هى تركه تحت

رحمة المصريين الذين سوف يشويانه خيا إذا عرفا أنه باح بسر اسمه المزيف .

هلم يجد « باروخ » مناصا من الاعتراف باسمه الحقيقي . وعندما قال أنه اسرائيلى الجنسية . كاد المحقق أن يفقد صوابه من الدهشة . وسرد « باروخ » على مسامعه قصة القبض عليه في الجديدة . وقيام هذين المصريين « باختطافة » من صنعاء . ورحلته الغامضة في مياه البحر الأحمر .

كانت القصة . بالنسبة لليمنى الذى يبدو أنه كان متخصصا في الجرائم العادية . مدعاة للذهول . ورأى أن يضع معلوماته الجديدة أمام المصريين لغلله . يحصل على تفسير مقنع . يضئ له السبيل وسط المتاهة المظلمة التى عزق في خضمها حتى ذقنه . وأصيب الرجل بخيبة أمل قاسية . عندما قال له السنجاب . أن المواطن المصرى موسى زكى سلامه . مصاب بلوثة عقلية . وأن هذه اللوثة أدت إلى محاولة الانتحار . ثم أنها وراء القصص الخيالية التى يجترها !!

وعندما طوى المحقق اليمنى أوراقه في النهاية . كان يعرف الاجراءات التى يجب أن تتخذ . بأقصى سرعة . فقد كان عليه أن يخطر « الأمن الوطنى » . أى جهاز المخابرات اليمنى . ليتولى التحقيق فيها يتعلق بالاسرائيلى . وأن يحال السنجاب ومعه عربته اللاندروفر إلى إدارة الأمن العام . أما الفهد . فكان عليه أن يوضح للمختصين في مصلحة الأمن الداخلى . أسباب وجوده في عربة ليس لها ترخيص رسمى . فضلا عن مصاحبته لهذا الاسرائيلى الذى يحمل جواز سفر مصرى مزور !!

وهكذا . عند مشارف صنعاء . وقت غروب شمس الجمعة . كانت عملية المخابرات المصرية . والتى شغلت الجهازين المصرى والاسرائيلى .

لمدة تزيد على شهر ونصف شهر . والتي حشدت من أجلها كل الأسلحة .
في البر والبحر والجو . كانت هذه العملية . قد وصلت إلى نهاية محزنة .

ووسط مشاعر الأسف ، والإحساس الممعن بالآخباط . مع القدر
الناسب من الحيرة ، كان ضابطا المخابرات المصرية . يجريان تقديرا
سريعا للموقف ، وكانا محتجزين في الكشك الخشبي ، بينما قع
« باروخ » في الغرفة الصغيرة . على الجانب الآخر من الطريق ، وكانت
الظلمة تنسدل تدريجيا في سماء العاصمة اليمنية العريقة ، وفي الخارج .
كانت الجلبة التي تنبعث من عربات الركوب . والشاحنات . وصياح
السائقين والجنود . تبدأ مع قدوم الليل .

وفجأة . وصل إلى موضع حاجز الشرطة العسكرية . صوت دراجة
بخارية ترسل من مؤخرتها فرقة مزعجة ، وسمع المحتجزون صوت وقع
أقدام مسرعة . فوق الأسفلت . وفتح باب الكشك الخشبي بهدوء .
وومض ضوء « فانوس زوبعة » من النوع الذي تستخدمه الجيوش . وفرك
السنجاب عينية وهو يحاول أن يتبين جلية الأمر . ولدهشة الشديدة .
تقدم منه ضابط شرطة وحياء باحترام وافر . ثم قال بلهجة رسمية . أن
السلطات اليمنية قررت إطلاق سراحهم . وأن باستطاعتهم أن يصبحوا
« زميلهم » المحتجز في الناحية الأخرى . ويستقلوا العربة اللاندروفر . ثم
ينطلقوا إلى وجهتهم !!

كانت اللحظات مثيرة ومنعمة بالمشاعر المتضاربة . وكان ضابط
الشرطة العسكرية اليمنية يتمم بعبارات الاعتذار عن الإزعاج الذي لحق
« بالأخوة المصريين » . ولم يكن الفهد في حاجة إلى عبارات الاعتذار
الأخوية . فقد انطلق كالسهم إلى مكان « باروخ » ، واقتاده وهو يتلفت
حواله إلى اللاندروفر .

وقبل أن تتحرك اللاندروفر . صافح السنجاب ضابط الشرطة بحرارة
صادقة ، واستدار ليصعد إلى مكانة المفضل . بجوار « باروخ » . ولكنه
توقف فجأة وهتف .

- هل تسمح ... أود أن أعرف كيف صدر أمر إطلاق سراحنا .
- حسناً ، لقد عرضت قصتكم على رئيس الأركان فأصدر هذا الأمر
على الفور .

- رئيس الأركان ؟

- نعم ... ابراهيم الحمدي ؟



مرافقى الرسمى السيد / يحيى العلقى يشير إلى الهاوية
السحيقة التى كادت أن تسقط فيها عربة المخابرات المصرية .

« الفصل الثانى عشر »

رحلة إلى المجهول ... !!

بعد إطلاق سراح ضابط المخابرات الثلاثة ، الذين قضاوا ليلة عصبية في قبضة الشرطة العسكرية اليمنية ، قاد الفهد العربية بسرعة إلى حى باب اليمن ، وهناك استقر « باروخ » في الشقة من جديد ، ومن الغريب أن ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى كان منهارا إلى أقصى حد ، والذي تعرض لحادث انتحار مفزع ، استعاد هدوءه بمجرد أن دخل إلى الشقة ، التى شهدت أيامه الأخيرة في صنعاء ..

وبعد غروب الشمس ، ترك الفهد زميله ومعه الأسير ، وهبط إلى الطريق ، وتولى بنفسه إعادة اللوحة المعدنية إلى اللاندروفر القديمة . ثم قادها إلى مكانها القديم ، في شارع جانبى ضيق على مقربة من البيت . وعندما ضمت الشقة لضباط الثلاثة أثناء الليل ، كان « باروخ » يبدو في حالة حرج بالغة ، فقد تسبب في متاعب جمّة ، وحدث بكل قسم أقسمة ، كما أن أنهياره والمذلة التى كانت تكسو تصرفاته ، كانا

سببا كافيا لأنه يشعر بالخجل ، ولكى يتجنب نظرات الضابطين المصريين ، انهمك في تنظيف الغبار الذى كان يغطى قطع الأثاث وبعد ذلك قبع في المطبخ ، ليغسل أدواته بعيدا عن الرجلين !!

وفي منتصف الليل ، خرج الفهد ليلتقى بصديقة الدبلوماسى ، وفي الدقائق الأولى من صباح السبت التاسع والعشرين من يوليو ، ثم أول لقاء بينهما ، منذ أن بدأت رحلة الحديد ، وتسلم الفهد من صديقة ثلاث برقيات جاءت من القاهرة ، اثنتين أرسلتا أثناء غياب الضابطين ، وواحدة وصلت صباح الجمعة .

وعندما اطلع السنجاب على محتوى البرقيات الثلاث ، بعد أن قام الفهد بحل الشفرة ، قطب جينيه بحدة ، فقد تضمنت هذه البرقيات ، سبب العدول عن نقل « باروخ » داخل الغواصة ، كما اشتملت على تفاصيل الاستعدادات الاسرائيلية المضادة ، ثم ، تنبيه مشدد بضرورة نقل ضابط المخابرات الاسرائيلى ، وفق أى خطة بديلة ، حيا الى القاهرة !! كان موقف الضابطين قاسيا تكتنفه الصعوبات من كل جوانبه ، وكان رأى السنجاب أن البديل الوحيد المطروح الآن ، هو أن يقوموا بنقل الأسير عن طريق الجو ، وقال الفهد أن أى طائرة ستقلع من مصر ، وتنتج إلى اليمن ، لابد أن تلتفت أنظار الاسرائيليين ، وعلى هذا الأساس ، فليهما إذا استقر رأيهما على نقله جوا ، أن يدبرا طائرة !!

ابتسم السنجاب وهو يناقش اقتراح تلميذه الذى لا يعرف المستحيل ، وعندما سأله بسخرية عما إذا كان يفكر في شراء طائرة ، أجاب الفهد بلهجة جادة أن لديه فكرة تبسم بالشجاعة ولكنه يفضل أولا أن يناقش الخطوات التالية !!

ومع افتراض وجود طائرة لنقل « باروخ » تفاقت الصعوبات وأخذت تحمق في وجه الضابطين كأنهما وحوش خرافية ، فقد كانا في

حاجة إلى طيار بارع . ليتولى قيادة الطائرة الخيالية . وكانت ظروف السرية تقتضى أن تستخدم هذه الطائرة . في الاقلاع والهبوط أراضى نزول بعيدة عن المطارات المعروفة . وفي نفس الوقت . كان عليها أن تطير على ارتفاع منخفض حتى لايفضح أمرها !!

وبرزت مشكلة سخيفة أخرى أثناء النقاش . وكانت هذه المشكلة التى يستحيل تجاهلها . أن الطائرة التى ستقطع الرحلة من صنعاء إلى القاهرة . حتى لو ذللت كل المصاعب الأخرى . لابد أن تكون طائرة ضخمة . الأمر الذى يخلق عائقا خطيرا . أمام الطيران المنخفض .

هز الفهد رأسه باستخفاف عندما عرض السنجاب مشكلة حجم الطائرة للنقاش . وقال أنه من السهل وضع وقود إضافي في بطنها . وفي النهاية هتف بصوت خافت : إننا لن نعبّر الأطلنطى . أليس كذلك ؟ وهكذا اتضحت صورة الخطة المقترحة . في شكلها النهائى : على نحو يدعو الى اليأس . فقد كان على الفهد الذى يحتفظ في رأسه بفكرة تتم بالشجاعة ان يحصل على طائرة صغيرة . ذات محركين . وأن تصل هذه الطائرة في ظلام الليل إلى ضواحي صنعاء . وأن تهبط في الصحراء المنبسطة بين الجبال . في أرض نزول تحدد بعد دراسة المنطقة بعناية !! أما فيما يتعلق بالطيار . فكان من الواجب العثور على طيار لديه قسط وافر من الجرأة . التى تصل إلى حد التهور . لكى يغامر بحياته في رحلة تحنفها المخاطر من كل صوب . وأهم من كل ذلك . أن يعرض هذا الطيار حياته للخطر . دون أن يطلع على أية تفاصيل عن المهمة التى سيقوم بها !!

كانت خطوط هذه الصورة تبدو مثل حلم بعيد المنال . ومع ذلك . تطرق الفهد إلى مراحل الخطة الأخيرة . فقال أن عليهما بمجرد وصول

الطائرة ، أن يقتادا « باروخ » بسرية مطلقة إلى موضع الهبوط ، وأن ينقلا مع الأسير ، أكبر كمية ممكنة من وقود الطائرات !!
واقترح السنجاب خطة خداع مبسطة ، قبل الاقلاع من اليمن ، وكانت خطة تعتمد على إرسال برقية بشفرة بسيطة ، الى رئاسة المخابرات في القاهرة ، وأن تتضمن هذه البرقية معلومات كاذبة ، عن نقل « باروخ » جوا في موعد سابق للموعد الحقيقي ، الذى سوف يحدد نهائيا بعد اتمام كل الاستعدادات المطلوبة ، وقال السنجاب : سوف يبحثون في السماء حتى يرهقهم البحث ، وعندما تلمس عجالات طائراتهم الأرض نقتلع ، هن !!

وقال الفهد أنه سوف يتغيب عن صنعاء ، لمدة أربع وعشرين ساعة ، وأنه يأمل عندما يعود أن تكون في جعبته طائرة ، ولكنه أضاف أن المشكلة الملحة الان هى ، كيف يمكن دخول الأجواء اليمنية ، بطائرة لا تعلن عن هويتها ، ولا تحصل على إذن رسمى بالهبوط ، ووضع الضابطان في حسابهما ، أن اليمن دولة شقيقة وأن أى محاولة للتسلل الى أجوائها ، تعد عمل مخيف يتسم بعدم اللياقة ، رغم أن الهدف من العملية كلها نبيل ويحقق كسبا للأمة العربية كلها .

توقف الضابطان أمام هذه العقبة وقلبا الامر على جميع جوانبه ، وكانت مشكلة الحصول على الوقود هى الاخرى تفرض نفسها بقسوة ، ورفض السنجاب اقتراحا للفهد ، بأن يقوموا باخطار السلطات اليمنية بمرحلة الطائرة ، وكان رأى السنجاب أن السرية تستلزم حصر التبا في أضيق الحدود ، وفجأة ، أضاء وجه ضابط المخابرات الذى عركته السنين وهتف : رئيس الاركان ..!

دهش الفهد بشدة واتبه وهو يحدق في وجه أستاذه بشغف . ووضع السنجاب المسألة قائلاً ، أن الرجل الذى أصدر الأمر باطلاق سراحهما سوف يقدم لهما عونته بالتأكيد . وأنه السبيل الوحيد أمامهما الآن . أن يتصلا به وشرحا له القصة كلها . ثم يأتى دورهما لكى ينصتا اليه .

ووقع الاختيار على الفهد لكى يجرى أول اتصال مع الرئيس الحمدي ، وأن يبقى السنجاب في حراسة الاسير . وفي الساعة العاشرة والرابع من صباح السبت . أجرى الفهد أول مقابلة مع رئيس الاركان . الذى استمع باهتمام شديد الى ضابط المخابرات المصرى . ثم أعلن بهدوء أنه يؤيد الخطة المقترحة . وأنه يأذن بدخول الطائرة الى أجواء اليمن . وسوف يصدر الأمر بتزويدها بالوقود !!

وقبل أن تنتهى المقابلة . قال الرئيس الحمدي أنه في غنى عن مناقشة دوافع المصريين للحصول على « باروخ » ، ولكنه يمنح تأييده بلا حدود . حتى لا تتمكن اسرائيل من اخباط الخطط المصرية . وعندما صافح ضابط المخابرات المصرى . لا حظ في عينيه نظرات الاكبار كما لمح على وجهه مشاعر الحب .

عاد الفهد الى السنجاب متلهل الاسارير وقد علت البسمة شفتيه . وقال أنه سوف يلتقى مرة أخرى برئيس الاركان اليمنى . لكى يدر سامعا خط سير الطائرة . وموقع الهبوط . وكان دور السنجاب المرتقب . يتلخص في أن يقتاد الاسير الى النقطة التى ستحدد بدقة . وأن يقفز مع الاسير الى الطائرة لحظة هبوطها لتقلع على الفور .

وفي اللقاء الثانى مع رئيس الاركان . في صباح الاحد . الثلاثين من يوليو . اكتشف الفهد أن الرئيس الحمدي لديه خبرة عظيمة بالطيران . وخصائصه الفنية . وفي هذا اللقاء . تم الاتفاق على أن تصل الطائرة في الساعة العاشرة والنصف من مساء السبت الخامس من أغسطس . وكان

السر في اختيار هذا الموعد ، هو اتاحة الوقت الكافي للفهد ليدبر أمره .
كما أن النبوءات الجوية ، كانت تشير الى سماء صافية من الغيوم ، في
تلك الليلة ، كما وضع في الاعتبار ، وصول الطائرة الى سماء القاهرة ، في
الساعات الاولى من الصباح يوم الاحد السادس من أغسطس .

ولضمان أكبر قدر من السرية ، تقرر أن يطير السنجاب الى القاهرة ،
ليتولى بنفسه إخطار المخابرات بموعد وصول الطائرة ، حتى تتمكن من
إجراء اتصالاتها بالسلطات المصرية ، حتى تهبط الطائرة بسلام ، ولكي
تنتظر في مطار المظلة الحربى ، سيارة تنقل ضابط المخابرات الأسير
بأقصى سرعة إلى مكان آمن ، تابع لجهاز المخابرات المصرى .

ومن أجل مزيد من الخداع ، استقر الرأى على أن يواصل جهاز
المخابرات المصرى إرسال برقيات المعتادة عن طريق سفارتنا في صنعاء
حتى بعد اقلاع الطائرة ، وفي نفس الوقت ، اتفق على أن يرسل الفهد ،
البرقية التى تم الاتفاق عليها من قبل ، والتى تقرر أن تكتب بشفرة
عادية ، سهلة الحل ، وكان محتوى هذه البرقية ، ينص على أن
« باروخ » سيصل إلى القاهرة على متن طائرة ركاب تصل إلى القاهرة
يوم السبت الخامس من أغسطس ، في الصباح الباكر .

طار السنجاب من صنعاء بعد ظهر الأحد ، ليصل إلى القاهرة بعد
رحلة جوية ملتوية ، وعندما عرض الخطة التى تبناها بحماس ، أبدت
منظمة مقاومة التجسس تخوفها من أن يفشل الفهد في الحصول على
الطائرة ، وعرضت على بساط البحث ، فكرة الاتصال بالطريق
الدبلوماسى ، بأية دولة صديقة مجاورة ، لكي تقدم الطائرة وطياريها ،
ولكن السنجاب قال أن الفهد ، واثق من نجاحه في مهمته .

كذلك اتضح صعوبة أخرى أسوأ من كل الصعوبات السابقة ، فقد
كان من المفروض أن تمتنع الطائرة امتناعا كاملا عن إجراء أية اتصالات

لأسلكية ، وكان الضباط في رئاسة المخابرات يعتقدون أن بمقدورهم انذار القهد ، إذا حدث وتنبه الاسرائيليون إلى وجود طائرته في الجو . عندما يقترب من الأجواء المصرية ، وإزاء هذا الاحتمال ، تقرر أن تفتح الطائرة جهاز الاستقبال ، وأن تمتنع تماما عن الإرسال . مهما كانت الظروف .

وفيما يختص بخط سير الطائرة ، نصح الأخصائيون بأن تتجه الطائرة من صنعاء ، نحو الشمال الجغرافي ، حتى إذا ما وصلت إلى الحدود اليمنية السعودية ، انحرفت غربا بزاوية ٢٢ درجة ، وعند الوصول إلى الأجواء المصرية ، تتجه الطائرة شمالا إلى أن تصل عبر الصحراء الشرقية إلى القاهرة .

كذلك اتفق على أن تتولى رئاسة المخابرات ، الاتصال بقيادة السلاح الجوي ، بحيث يمكن نجدة الطائرة ، بأسرع ما يمكن ، إذا تعرضت لهجوم جوى معاد ، وفي نفس الوقت ، تقرر إجراء اتصال بقيادة الدفاع الجوي ، حتى لا تهاجم وسائل الدفاع الجوي المصرية ، الطائرة التي كان الصمت اللاسلكي ، مفروضا عليها .

وعندما تناولت الدراسة آخر المراحل في هذه العملية الخطيرة ، استقر الرأي على إيواء ضابط المخابرات الاسرائيلي في مبنى منعزل من مباني جهاز المخابرات ، وروعى عند اختيار المبنى ، أن يجرى تجهيزه بمجموعة طبية ، وجهاز لكشف الكذب ، وأن تعد إحدى الغرف لإقامة الضابط الأسير ، بالقرب من مكتب يحتله أطباء الاختبارات النفسية ، مع وضع نظام صارم للحراسة ، وكان اتخاذ هذه الترتيبات ، ضروريا حتى لا يدخل « باروخ » إلى مبنى المخابرات ، فقد كان المصريون على دراية تامة ، بأن الرجل بصرف النظر عن أية عوامل تدعو إلى الاستهانة بقدراته ، ليس سوى ضابط محترف من ضباط المخابرات .

وعرضت الخطة بعد أن وضعت في صورتها النهائية على مدير المخابرات المصرية المشير أحمد إسماعيل على ، صباح الاثنين الأخير من يوليو ، وقد ألقى المشير نظرة فاحصة على الخريطة الملونة المرسوم عليها خط سير الطائرة ، ثم أصدر أوامره إلى مدير منظمة مقاومة الجاسوسية بأن يحرص على ألا تدخل الطائرة إلى المجال الجوي لأى دولة من الدول المطلة على البحر الأحمر .

وبعد الموافقة على الخطة ، رحل السنجاب مرة أخرى إلى صنعاء ، ووصل إلى هناك بعد غروب شمس الأربعاء الثانى من أغسطس ، وعندما أفضى بنتائج رحلته للفهد ، قال الأخير ، أنهما في حاجة إلى قدر كبير من الحظ الطيب ، وأضاف ، أن الدبلوماسى المصرى الذى تحمل معهما عبء العملية من بدايتها ، سوف يصل في التاسعة لكى يبقى مع الأسير حتى يقوموا باستطلاع ارض نزول الطائرة .

كانت المنطقة التى حددت لهبوط الطائرة ، عبارة عن سهل فسيح يقع على مسافة خمسة وأربعين كيلو مترا من صنعاء ، وعلى مسافة اثني عشر كيلو مترا من طريق صعهده ، وكانت الحكمة من اختيار هذه المنطقة ، تكمن في أن الطيار يستطيع أن يرتفع في الجو ، بمجرد الوصول إلى سماء العاصمة اليمنية ، ويستدل بأنوار مطارها المدنى ، ثم ينحرف إلى الشمال الغربى ، ليصل إلى السهل ويميز أشباح مستقبله .

وبأنتهاء الرجلين من استطلاع منطقة الهبوط ، عادا إلى مقرهما ، ووجها الشكر لصديقيهما الدبلوماسى ، الذى لم يكن أمامه سوى آخر إجراء كلف بتنفيذه ، وهو أن يرسل برقية إلى القاهرة ، تلك البرقية التى حددت موعد وصول « باروخ » ، في صباح يوم السبت الخامس من أغسطس قبل الموعد الحقيقى بأربع وعشرين ساعة .

وفي صباح الخميس الثالث من أغسطس ، أطلع الفهد من صنعاء ، دون أن يفصح عن وجهته ، ولكنه أكد أنه سيعود ، في العاشرة والنصف مساء السبت ، وأنه سوف يعود بصحبة الطائرة !!

ولابد لي من الاعتراف بأنني فشلت فشلا ذريعا ، في الحصول على معلومات محددة عن الدولة التي قدمت الطائرة للفهد ، رغم أني سألته شخصا ، ووجهت نفس السؤال إلى الرئيس الحمدي ، ولكنني لم أحصل أبدا على اجابة محددة .

ويدل رذاذ المعلومات الذي حصلت عليه في هذا الشأن ، على أن الفهد قام بزيارة خاطفة لدولة صديقة ، وهناك ، اتصل بضابط مخابرات من أصدقائه ، في هذه الدولة ، وطلب منه أن يخطر حكومته . بأنه يطلب باسم مصر ، طائرة صغيرة ذات محركين ، على أن تجهز هذه الطائرة بحيث يمكن تزويدها بالوقود من الداخل ، وأن يطلى جسمها بطلاء أسود ، وأن تزال من فوقها أية علامات تدل على جنسيتها .

وفيما يتعلق بالطيار ، قال الفهد أنه يود أن يحصل على الطائرة ومعها قائدها ، نظرا لدواعي السرعة . ولكنه استدرك قائلا ، أنه على استعداد لاستدعاء طيار مضرى على وجه السرعة ، إذا كانت هناك أية عقبات تحول دون تحقيق هذه الرغبة .

وليس لدى أدنى شك ، في أن غرابة هذه المطالب ، قد أدت إلى عرض الأمر على أعلى مستويات السلطة في هذه الدولة ، وعندما تمت الموافقة ، استغرق تجهيز الطائرة وقتا إضافيا ، وكانت الأوامر الرسمية التي تسلمها الطيار ، الذي وقع عليه الاختيار ، تنص على يتسلم أوامره من الفهد بمجرد أن يغادر مطار الأقلاع ، وإلى أن يعود إلى وطنه .

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء السبت ، الخامس من أغسطس ، أمر السنجاب « باروخ » أن ينتبه ، وأفضى إليه بأنهما مقبلان على رحلة

جديدة ، وبصوت تعمد السنجاب أن يكون هادئاً ، أبلغ ضابط المخابرات الاسرائيلي بأن الموقف لا يحتمل أية مراوغة ، وحذره بشدة من أن أية حماقة جديدة ، لن تلقى سوى القسوة ، ودون أن تضع لحظة واحدة في المناقشة .

وبعد أن قيد السنجاب يدي « باروخ » وراء ظهره ، وضع عصا سمكة فوق عينه ، وهمس بأن سوابق الاسرائيلي القبيحة والمتاعب التي جرّها ، هي سبب هذا الاجراء الممقوت . ثم أقناده أمامه إلى اللاندروفر وأجلسه بجواره على المقعد الأمامي ، وانطلقت اللاندروفر صوب طريق صعه ، وبعد ذلك توغل السنجاب في السهل إلى أن وصل إلى سلاسل الجبال التي تحده من الغرب .

أطناً السنجاب محرك اللاندروفر وفك قيود الأسير ورفع العصا عن عينه ، ثم أمره أن يتقدم أمامه في الصحراء ، سيرا على الأقدام . حتى إذا ما وصل الرجلان إلى منطقة تكسوها الأشواك أمره أن يجلس القرفصاء . أما هو فبقى واقفاً بعد أن ألقى نظرة على ساعة يده . وفي العاشرة والربع لاح بصيص من الضوء ، على مسافة بعيدة ، ودقق السنجاب البصر فاكشف عربة بعيدة في الظلام ، وعندما وصلت العربة إلى نقطة على الطريق في منتصف السهل ، انحرفت إلى اليسار وأخذت تتقدم ببطء وهي تبض أنوارها الأمامية لفترات قصيرة متقطعة وفي النهاية توقفت العربة على مقربة من السنجاب ولاحظ أنها عربة جيب يغطي سطحها بروز أسود سرعان ما أتضح أنه عبارة عن مجموعة من « الحراكن » التي تستخدم في نقل الوقود . وبمجرد أن توقفت الجيب هبط منها شاب يرتدي ثياب الجيش ويتدلى من حزامه مسدس ضخمة ، وقدم نفسه للسنجاب قائلاً أنه موفد من قبل الرئيس الحمدي ، وأضاف

أن رئيس الاركان كلفه أن ينقل إليه تحياته . ويتمنى أن يوفق في مهمته .

وأجاب السنجاب أنه يشعر بامتنان عميق ويرجو أن ينقل هذا الشعور إلى رئيس الاركان . وقال الشاب اليمنى أنه سوف يبقى إلى أن يتأكد أن كل شيء على مايرام . وبعد ذلك سيعود إلى صنعاء ليصحب زميلا له مرة أخرى إلى المكان . ليتولى قيادة اللاندروفر ولاحظ السنجاب أن الشاب يفحص المنطقة حولهما بعينية . فأشار بأصبعه في اتجاه الجبال . وقال أن اللاندروفر هناك .

واقترح السنجاب أن يقود الشاب اليمنى الجيب بعيدا عن منطقة الهبوط . وأن يبقى هناك إلى أن تهبط الطائرة . وعندئذ يمكن أن يقترب بعربة حتى يصل إليها .

وفي العاشرة والنصف بالضبط انتبه ضابط المخابرات المصرى وبدا عليه القلق . وكان يحدق في السماء بينما أرصف أذنيه وكاد قلبه أن يتوقف عن الدق . وعندما مضت ثلاثون دقيقة دون أن يظهر أى أثر للطائرة . جلس على الأرض وخلع نظارته وهو يتمتم بشفتيه . وكان « باروخ » يجلس على مرمى حجر منه وهو يتعجب لما يجرى حوله .

وبعد أن أمضت ساعة كاملة . ترك الشاب اليمنى عربة وجاء سيرا على الاقدام ليستفسر من السنجاب عما حدث . وقال السنجاب أن شيئا ماقدر عوق وصول الطائرة ولكنها ستصل على أية حال . ولاحظ بعد أن فرغ من حديثه أن « باروخ » قد اضطلع على الرمال ولكنه لم يعره ادنى التفات .

وعندما أشرفت الساعة على الواحدة صباحا . كاد اليأس أن يملك الضابط العجوز . ولكنه أصر على أن يبقى في أنتظار الطائرة . ربما لأنه

كان قلقاً على النهر ، وشكا « باروخ » من أنه يشعر بالبرد ، ولكنه لم يتلق أية إجابة ، فقد أكتفى السنجاب بأن غمغم وهو يلعن هذا الضابط الذى يبدو مثل جثة من القش .

وفي غمرة القلق والسخط والمشاعر المتضاربة ، انتبه السنجاب وتحول إلى أذنيين ، فقد سمع أزيز طائرة تقترب ، وبعد أن أدار رأسه في كل اتجاه كما لو كانت هوائى رادار وضع نظارته فوق عينيه واتجه نحو الجنوب الشرقى ، وفي الأفق رأى الطائرة وهى تدور إلى اليسار ، كانت تحلق على ارتفاع منخفض فوق قمم الجبال المحاذية للسفلى من جهة الغرب ، وكانت تشبه غراباً ضالاً وقد اطفئت أنوارها ، ولكنها عندما وصلت إلى منتصف السفلى كانت تبدو عالية كنقطة سوداء تزحف وتحجب النجوم بمقدمتها ، وأخرج السنجاب مندبلاً أبيض وأخذ يلوح بقوة ، ولكن الطائرة أقتربت ثم تجاوزته ودارت دورة كاملة ، وفي النهاية ابتعدت نحو الجبال واختفت هناك !!

تصبب العرق فوق جبين السنجاب وشعر كأنه فقد القدرة على التنفس ، وقبل أن ينطق قال الشاب اليمنى أن الطائرة سوف تعود مرة أخرى ، وأشعل السنجاب عود ثقاب ولكنه اكتشف أن فى يده سيجارة مشتعلة ، وأقترب أزيز الطائرة من جديد ، وظهرت الطائرة مرة أخرى وأخذت تحوم فوقهم ، واشتد الوهج الأحمر المنبعث من سيجارة السنجاب وهو يلوح ببجنون بالمندبل الأبيض ، ولكن الطائرة عادت إلى الاختفاء فى الأفق .

— يجب أن نضىء أنوار العربية .

وهكذا همس السنجاب وهو يدير بصره فى اتجاه اللاندروفر ، كانت بعيدة فى آخر السفلى حتى أنه لم يستطع أن يميزها فى الظلام ، وقال الشاب اليمنى أن الجيب قريبة ، على مسافة مائتى متر فقط ، وكما لو

أنه لم يسمع قفز السنجاب فوق الرمال كعصفور بلله المطر ، وتعثر الضابط العجوز في حجر فسقط على ركبتيه ولكنه هب واقفاً ، وكانت تصرفاته تبدو عشوائية وكأنه فقد زمام نفسه ، بمجرد أن وقف على قدميه استدار عائداً وطلب من اليمنى أن يضيء أنوار الجيب .

وبينما كان اليمنى يجرى بأقصى سرعة إلى الجيب ، كان السنجاب يبدو وقد تقدم به العمر عشرين سنة . فقد كان يعرف أن هذه الرحلة يجب أن تكمل بالنجاح . فقد بذلت جهود وضاعت أموال وتعرضت حياة كثيرين للخطر ، ولم يكن ليفكر في احتمال الفشل أبداً ، وكانت كل الظروف مواتية هذه المرة . فقط كانت اللحظة الحاسمة قد حلت ، اللحظة الحاسمة في الخطة الدقيقة التي تسير في خطها المرسوم بعناية ، وكان على هذه الطائرة أن تهبط .

أضيئت الأنوار الصغيرة في الجيب في نفس اللحظة التي عاد أزيز الطائرة للمرة الثالثة . وعندما اقتربت الطائرة لم تتخذ المسار البائرى الذى أتخذته في المرتين السابقتين ، ولكنها خففت من سرعتها ودارت إلى اليمين . وفي نفس الوقت بدأ حجمها يكبر تدريجياً . وأدرك السنجاب أنها تهبط . وأمتلاء صدره بالهواء وود لو أنه صفق بيديه . وتعالى الضجة المنبعثة من محركات الطائرة ثم انخفضت . مقدمتها دفعة واحدة ، وأخذت في الهبوط بزاوية حادة ، ولاحظ السنجاب أن بطنها يتضخم لحظة بعد أخرى ، وعندما لامست عجلاتها الأرض على مسافة مائتى متر من مكانه شعر كأنه سيطيح فوق الأرض من الفرح .

أثارت الطائرة عاصفة من الغبار وأحدثت عجلاتها صريرا مخيفاً . وأسرعت ضربات قلب الضابط العجوز عندما وجد أن جناحها الأيمن يميل بشدة حتى كاد أن يلامس الأرض . ولكنها اعتدلت بسرعة ثم توقفت على مسافة أمتار قليلة منه .

جری السنجاب كآرنب جبلى ووصل إلى الطائرة وهو يلهث ،
وعندما رفع رأسه إلى أعلى وجد الفهد واقفا على الباب وهو يتشم كما لو
كان عائدا من نزهة خلوية ، وصرخ السنجاب قائلا ان العربية ستصل
حالا لكى يستخدمها الفهد في النزول إلى الأرض ، ولكن الفهد قفز
بخفة ، فقد كان فهدا حقيقيا .

قاد الشاب اليمنى الجيب وأوقفها تحت جناح الطائرة ، وخلال
دقائق كانت أوعية الوقود قد نقلت إلى جوفها ، ووضعت هناك كيفما
اتفق ، على الأرض وفوق المقاعد وفي فتحة الباب أيضا ، وأمر باروخ أن
يتسلق الجيب والتقطه الفهد ثم دفعه دفعا حتى أجلسه على أول مقعد
وراء مقصورة الطيار مباشرة ، وبدلا من أن يعاون الفهد زميله في الصور
إلى الطائرة قفز من جديد إلى الأرض ، وصافح الشاب اليمنى بحرارة
بعد أن عرف أنه موفد من قبل رئيس الاركان ، وقال السنجاب أنهم
تأخروا وأن ذلك سوف يسبب ارتباكاً فظيعا عندما يصلون إلى مصر ،
ولكن الفهد هز كتفيه باستهتار ، واقترح أن ينقلوا حقائبهم الشخصية من
اللاندروفر إلى الطائرة .

مضت الجيب بسرعة لتخترق السهل الصحراوى حتى وصلت إلى
مكان اللاندروفر ، التى كانت تبدو نائمة في ظل الجبال الشاهقة
الارتفاع ، وبعد أن اسقرت الحقائب في الطائرة وقف الضابطان
المصريان ليودعا اليمنى الذى قدم لهم عونه ، قال الفهد أنه لن ينسى
مدى الحياة صنع رئيس أركان الجيش اليمنى ابراهيم الحمدي .

وفي الطائرة لاحظ السنجاب أن الطيار شاب تخطى العشرين
بستين أو ثلاثة . ولاحظ أن معه مساعدا في مثل سنة ، وجلس الفهد

بجوار « باروخ » ، أما السنجاب فكان جالسا بوداعة في الناحية الأخرى وهو ينظر من وراء زجاج النافذة .

وعندما أعطى الفهد إشارة الإقلاع زارت المحركات من جديد ، ودرجت الطائرة ببطء ودارت إلى اليمين ، ثم توقفت وأحدثت ضجة المحركات هديرا يصم الآذان ، وارتعد جسمها بعنف ، وبعد ذلك انطلقت مسرعة في اتجاه اللاندروفر ، وبعد أن قطعت السهل كله توقفت من جديد !!

ترك الفهد مقعده ودخل إلى مقصورة الطيار ليستطلع الأمر ، وقال الطيار أن طبيعة الأرض تمثل مشكلة كبيرة وأنه اضطر إلى أن يتوقف حتى لا يضطدم بالجبال ولكنه سيحاول مرة ثانية واستدارت الطائرة

واندفعت إلى أن وصلت إلى النقطة التي بدأت منها وكنتم ضابط المخبرات أنفاسهما ، ورفع السنجاب رأسه إلى السماء وابتهل الى الله أن يوفق هذا الطيار الشجاع ، وعندما ابتعدت العجلات عن سطح الأرض نهض الفهد من مكانه ليتهىء الطيار . عندما عاد انحنى فوق السنجاب وقبله في صمت !!

وبينما كانت هذه الطائرة تبدأ رحلتها الخطيرة إلى القاهرة . كان ضباط منظمة مقاومة التجسس يشعرون برهبة الموقف ، فقد كانوا يتوقعون وصول الطائرة في الصباح الباكر يوم الأحد السادس من أغسطس ، وكانت أمامهم أربع ساعات من الانتظار المرهق ، وكانوا قد اتخذوا كل الاجراءات الضرورية ، وفيما يتعلق بالخداع ، قامت السلطات في القاهرة باغلاق مطار القاهرة الدولي ، لمدة ست ساعات ، يوم السبت الخامس من أغسطس ، وحولت ست طائرات مدنية إلى مطار

بيروت ، وكان أمل المصريين أنه يعتقد الاسرائيليون أن « باروخ » قد وصل بالفعل إلى القاهرة .

ولكن الطائرة الصغيرة ، التي أقلت الضابطين المصريين والأسير ، كانت قد تأخرت عن موعد إقلاعها ، بأربع ساعات كاملة ، وتعرضت أثناء الرحلة لمواقف يقشعر لها الجلد البشري ، واستحقت عن جدارة اسم ، طائر الرعب !!

« الفصل الثالث عشر »

طائرة الرعب ١١

في الساعة الثالثة وأحدى عشرة دقيقة من صباح الاحد ، السادس من أغسطس ، بدأت الطائرة الصغيرة ، التى أقلت ضباط المخابرات الثلاثة رحلتها المحاطة بالسرية المطلقة متجهة الى القاهرة . ورغم ان موعد أقلاعها تأخر اربع ساعات . عن الموعد المتفق عليه ، إلا ان ضابطى المخابرات المصرية كانا يشعران بالارتياح ربما لأول مرة منذ ان بدأت مهمتهما المعقدة ، لنقل الضابط الأسرائيلى الأسير من صنعاء الى القاهرة .

كان ضوء القمر الشاحب يتسلل على شكل بصيص هزيل من النوافذ الضيقة ، وكانت قمم الجبال تتتابع بشكل رتيب . وكان بمقدور من يلقى نظرة ان يرى تحته مباشرة سناما صخريا داكنا ، تنحدر فوقه نحو الشرق خطوط بيضاء تتشعب منها خطوط سيريلية ، رسمتها مجارى السيول .

وعندما دخلت الطائرة في منخفض تحيط به الجبال ، أصبح الظلام في الداخل دامسا ، وكانت القمم الاسطورية والتواءات الضخمة المديبة تحيط بالطائرة الصغيرة من الجانبين . تثير في النفس الرهبة ، والمشاعر المبهمة الغامضة ، الناجمة عن التخيل الدائم للحظة الاصطدام بالصخر ، ثم الثقة في ان الطيار هناك في المقدمة يعرف طريقه جيدا وبعد ان انقضت ساعتان ، في جو مقبض يسوده الصمت ، بدأت الطائرة تفقد ارتفاعها بالتدريج وابتعدت سلاسل الجبال الى اليسار ، وشاهد الركاب الثلاثة سهلا صحراويا منبسطا ، وكان ظل الطائرة يبدو مهيبا على الرمال . ومن آن لآخر ، كانت الطائرة تمرق بجوار كتل صخرية متناثرة ، وفي المناطق التي تغطيها جبال قليلة الارتفاع ، كانت الطائرة ترتفع لتجاوزها ثم تعود الى الانخفاض من جديد .

وفي الخامسة والنصف حدث أمر مضحك بدد جو الكآبة الذي ساد الركاب ، فقد خرج الطيار من مقصورته . وتبادل حديثا ضاحكا مع الفهد ، وعندما سأل عن هذه الصفائح المتناثرة ، أجابه الفهد بأنها تحتوى على وقود إضافي ، ولكن الطيار ضحك بصوت مرتفع وقال ان الطائرة جهزت بخزانات إضافية للوقود ، واقترح القاء هذه الصفائح من الباب ، ولكن أحد لم ينفذ الاقتراح ، فقد عاد الطيار وهو يبتسم الى مقصورته . وعندما اشرفت الشمس شعر السنجاب بالقلق . وقام من مقعده وأشار للفهد ان يتبعه ، ووقف الضابطان يتشاوران عند ذيل الطائرة ، وكان الفهد محتفظا بتفائله ، وقال انهما سوف يصلان الى مصر عند الظهر ، وأنه لا يعتقد ان الاسرائيليين يتوقعون وصولهم ، وأضاف مداعبا السنجاب . ان المصريين انفسهم قد فقدوا الأمل في وصولهم . بالتأكيد ، وطلب السنجاب من الفهد ان يتحدث الى الطيار . ليزيد من سرعته ،

ولكن الفهد قال ان التحليق المنخفض هو سبب بطء الطائرة . وعندما عاد الرجلان الى مقعديهما . رمقهما « باروخ » بنظرة متطلعة . ولكن الفهد جلس بجواره دون ان يلتفت اليه .

كان خط سير الطائرة يقتضى ان تنحرف . قبل حدود اليمين الشمالية . لتعبر البحر الاحمر في خط مائل . وبمجرد ان وصلت إليه . كان « باروخ » هو أول من رأى أمواجه البيضاء وهى تتعاقب تحتهم . فالتفت الى الفهد وهمس . البحر .

مال الفهد برأسه وابتسم ثم التفت الى الناحية الاخرى حيث يجلس السنجاب وهو يشير باصبعه الى اسفل . ونظر السنجاب الى النافذة بسرعة ولكن ميل الطائرة على جانبها الأيسر . حال دون رؤيته البحر . فأشار للفهد مستفسرا . وعندما سمع كلمة البحر اشرب بعينه فرأى الصحراء والجبال عند حافة نافذته السفلى . وعندئذ . انتقل من مكانه واستند على كف الفهد وانحنى حتى كادت نظارته ان تلامس رأس « باروخ » وبمجرد ان رأى امواج البحر ربت على كف الفهد وعاد الى مقعده .

وبعد ثلاثين دقيقة من التحليق فوق البحر . مرقت الطائرة فوق جزيرة صخرية يحيط بها شريط اخضر من صنع طجالب البحر . وبينما كان الركاب الثلاثة يحدقون في الجزيرة . الخالية تماما من أى مظهر للحياة . بدأت الطائرة ترتعد بشدة . وتحول صوت المحركات الرتيب . الى ضجة تتخللها حشجة مزعجة . وقام الفهد الى مقصورة القيادة . وعندما عاد . بعد قرابة دقيقتين . لم يستطع تجاهل نظرات السنجاب فاتجه اليه . وأخطره ان المحرك الأيمن لا يعمل كما يجب .

ارتفعت مقدمة الطائرة وكان واضحا ان الطيار قد قرر ان يطير عاليا . وقال السنجاب انه . يعرف شيئا عن قيادة الطائرات ولكنه ينصح

بألا يحلقوا على ارتفاع عال . وانتقل الفهد مرة أخرى الى مقصورة القيادة ، وفي هذه المرة غاب خمس دقائق ثم فتح الباب وأشار للسنجاب ، وغاب الرجلان في مقصورة القيادة وبقي « باروخ » وحده لأول مرة منذ ان قبض عليه .

وفي مقصورة القيادة كان المشهد يبدو أخاذا . وكان ضوء الشمس ينعكس على سطح الماء ويغمر لوحات القيادة ، وكان عداد تسجيل الارتفاع يتقدم ببطء ، وشعر السنجاب بأن جسما صلبا يضغط كثقة الايسر . فابتعد وهو يتطلع الى الجدار ، ولاحظ جهازا لقياس الضغط مثبتا في حامل حديدى وراء الباب مباشرة .

وقال الطيار للضابطان ان ثمة خللا قد اصاب محركة الايمن ، وانه اضطر الى الارتفاع حتى يتبين حقيقة ما حدث ، وقال انه ينحرف عن خط السير بمعدل اربع درجات الى اليمين ، ورجا الضابطان ان يجلسا في مقعديهما ، ووعده ان يخطرهما بأى تطورات مفاجئه . وعندما استدارا ليخرجا من المقصورة . همس مساعد الطيار قائلا ان على كل منهما ان يتأكد من وجود « شرة النجاة » تحت مقعدة !!

وأثناء عودة الضابطان الى مكانهما قال الفهد ، في محاولة لتبديد القلق الذى بدأ يخيم فوق الرؤوس ، انه يجيد السباحة وان العملية سوف تكون أكثر إثارة ، إذا وصل هذا الاسرائيلى الى مصر والمياه تقطر من ثيابه !!

وفي الثامنة الزرع فتح باب المقصورة فجأة . وظهر الطيار على الباب وهو يتسم . وقبل ان يسرع الضابطان اليه ، رفع اصبعه الابهام ثم استدار متجها الى مقعده ، ولم تكن علامة النجاح التى رسمها كافية . فقد قفزا من مكانيهما وفي ثوان قليلة كانا يقفان وراءه هو ومساعدته . وقال الطيار ان المحرك عاد الى العمل بكفاءة .

غمر الفرح الضابطين وتبادلا النظرات وهما يبتسمان . وسأل
السنجاب عما اذا كان بمقدور الطائرة الآن ان تهبط لتطير على ارتفاعها
السابق ، وأجاب الطيار انه يفضل البقاء على هذا الارتفاع الى ان يتأكد
من أن كل شيء يسير كما يجب . وقطب السنجاب جبينه وأضاف أن
حياة الجميع متوقفة على عدم اكتشاف الطائرة ثم هتف بحزم : يجب أن
تهبط الآن .

رفع الطيار الشاب رأسه وبدأ عليه الضيق ، وهو يتفرد في وجه ذلك
الكهل الذى يصدر الأوامر ولم يكن هناك مجال لأى خلاف في طائرة
معلقة فوق كف القدر . لذلك تدخل الفهد قائلاً أن اقتراح زميله يهدف
الى تأمين سلامة الطائرة بركابها ، ولكن الطيار اجاب بأنه يود ان
تترك له القيادة . أو ان يحل محله من يرى أنه يستطيع ذلك بطريقة
أفضل .

وخفف مساعد الطيار الذى كان يتعجب من هذه الرحلة الغامضة
التي شارك فيها دون أى انذار من حدة الموقف ، عندما قال ان المحركين
يعملان بكفاءة تامة ، وفي نفس الوقت داعب السنجاب شعر الطيار
الشاب وانسحب ووراءه الفهد ؛ وقبل ان يجلسا في مقعديهما ، لاحظا ان
الطائرة تفقد ارتفاعها بقوة .

واستمرت رحلة الطائرة فوق البحر الأحمر لمدة تزيد على ثلاث
ساعات ، وكان « باروخ » قد استغرق في النوم ، وعلى الجانب الآخر
كان السنجاب قد خلع نظارته وحذاه واستند برأسه الى زجاج النافذة .
أما الفهد فكان متيقظا ومن آن لآخر كان ينبه الاسرائيلي الذى كان
يميل اثناء نومه فوق كتف غريمه !!

وعندما وصلت الطائرة الى الصحراء الشرقية المصرية ، مرقت بين
سلاسل جبال البحر الأحمر ثم انطلقت فوق الصحراء وبمجرد ان لاحظ

الفهد أنهم يخلقون فوق اليابسة ، انتقل الى المقعد المجاور للسنباب ولس
يده ، وتهللت اسارير الضابطين وقال السنباب ان مهمتهما تعد في حكم
المنتصية ، وأضاف ان بوسعهما إذا حدث ما يعكر الصفو ان يقتادا الأسير
سيرا على الأقدام الى القاهرة !!

وفي الثانية عشرة وأربعين دقيقة أوقف « باروخ » من النوم ليتناول
وجبة طعام جافة ، ولكنه قضم قطعة خبز وأخذ يلوكها بين اسنانه بلا
شهية ، ووزع الفهد على زميلية زجاجات المياه الغازية ، وكان السنباب
يشعر بالضيق لأنه لم يدخن طوال الرحلة ، ورغم أن الأرض المصرية
لا تختلف من ناحية المكونات الطبيعية عن أراضي الساحل الشرقي
للبحر ، إلا ان السنباب كان منشرخ الصدر رغم الازهاق الناجم عن
الايام الحافلة بالأحداث التي قضاها في اليمن ، لمجرد انه كان يحلق
فوق مصر .

وفي الواحدة فتح باب مقصورة القيادة ، وظهر مساعد الطيار لأول
مرة ، وأشار الى الفهد ، فنهض من مكانه ، وكان واضحا ان شيئا طارئا
دعا الطيار الى استدعائه بدلا من ان ينتقل اليه ، وعندما وصل الى مكان
الطيار ، سنع بأذنيه صوتا مصرية ينادى على الطائرة ، وكان الطيار قد
خلع سماعات الاذن وقربها من أنف الفهد !!

كان النداء يتوالى في جهاز اللاسلكى بحدة ، وقال الطيار ان مصدر
النداء هو مطار الأقصر ، وأنهم يستفسرون عن هوية الطائرة ووجهتها ،
وهز الفهد رأسه ، ثم قال ان من الأفضل ألا يجيب الطيار وان يستمر في
التقدم .

عاد الفهد الى مقعده وصوت النداء يلاحقه ، وعندما جلس في مقعده
بجوار « باروخ » كان يأمل ان تعبر الطائرة هذا المأزق بسلام ، ولما

سأله السنجاب عما وراءه أجاب بأن مطار الأقصر ينادى على الطائرة .

وقال السنجاب أنهم تأخروا كثيرا ولكن الموقف لا يدعوا الى الندم .

مرت ست دقائق ثقيلة وفجأة لكن « باروخ » الفهد بكوعه فانتبه .
ووراء زجاج النافذة مباشرة رأى ثلاث تقط لامعة تندفع من الأفق .
وقبل ان يتبين جلية الأمر كانت النقط الأمعة قد اقتربت ، وعلى مسافة
امتار قليلة من مكانه . رأى طائرة ميج تطير بسرعة رهيبية بجوارهم ،
وعلى الجانب الآخر . كانت طائرة ميج أخرى تملأ فراغ النافذة ، اما
الطائرة الثالثة فلم تكن في مدى الرؤية . إذ كانت تحلق فوقهم مباشرة !

أسرع الفهد الى مقصورة القيادة وتبعه السنجاب الذى كان حافى
القدمين ، ووقف الضابطين وراء الطيار الذى كان يستقبل نداءات المطار
وهو يرى الطائرات المقاتلة يعنى رأسه . ومن باب مقصورة القيادة
المفتوح كان « باروخ » يتطلع بفضول وهو يقاوم الرغبة في ان ينضم الى
أسريه ، وهتف الطيار منبها الفهد الى أنهم سوف يسقطونه اذا لم يوضح
هويته . وجاءه صوت السنجاب من الخلف أن لا يرد ، وصاح « باروخ »
متسائلا عما اذا كان ما يجرى انتحار جماعى ولكن أحدا لم يسمعه .
وابتعدت طائرتان وبقيت واحدة تحوم أمام زجاج مقصورة القيادة .
وشاهد الرجال الاربعة اللهب المنبعث من مؤخرتها .

وللإجابة على نداء من المطار . بأن يحرك اجنحته اذا كان صديقا .
بدأت طائرة الضباط الثلاثة في تحريك اجنحتها . فكانت تميل الى
اليسار ثم الى اليمين بتتابع يشبه تتابع رقصة شيطانية . ومضت دقائق
رهيبية ثم شوهدت طائرة ميج وهى تهز اجنحتها هى الأخرى . وبدأت

الطائرات الاربعة تتخذ طريقها في هيئة تشكيل بالغ الغرابة ، ثلاث طائرات مقاتلة تحيط بطائرة ركاب اسيرة . وفي جوف طائرة الركاب ، اثنان من الضباط المصريين يحيطون بأسيرهم !!

وبدلا من طريق السير الاصلى ، عبر الصحراء الشرقية ، أجبرت الطائرة على ان تطير فوق الوادى الاخضر ، وقبل مدينة بنى سويف ، انفصلت طائرة مقاتلة عن زميلتيها وهزت أجنحتها أمام طائرة الركاب ثم ابتعدت كالقذيفة ، وتبعتها زميلتاها ، وقبل ان يتنفس الطيار الصعداء ، لمح ثلاث طائرات أخرى وهى ترتفع من ناحية اليمين ، واتخذت الطائرات الجديدة نفس تشكيل الحراسة السابق تماما !!

وفي قاعدة للدفاع الجوى ، غرب القاهرة كان العريف محمد الاباصيرى محمد ، يتأهب لاستلام نوبته ، في الثالثة الا عشر دقائق بعد الظهر ، وكان يقف بالقرب من شاشة ضخمة من شاشات الرادار وكان زميله يستعد لمقادرة مقعده ، أمام الشاشة ، عندما شاهد الزجلان نقطة مضيئه تتحرك ببطء ، وعلى الفور ، حرك العريف ذراعا يتصل بمجموعة من الدوائر الالكترونية ، وفي نفس الوقت ظهرت نفس النقطة المضيئة على الشاشات الضخمة في غرفة العمليات الرئيسية في قيادة القوات المسلحة المصرية .

ان العريف الاباصيرى شاب طويل القامة ، ذو عينين واسعتين وحاجبين كثيفين . وقد حصل على بكالوريوس التجارة ثم التحق بالجيش ، والتحق في نفس الوقت بكلية الحقوق ، وعندما ظهرت نقطة الضوء على شاشة الرادار ، كان يتأبط كتابا في القانون الرومانى ، وكان يأمل في ان يتمكن من القاء نظرة على الكتاب اثناء نوبه خدمته . في وقت كانت السماء فيه تبدو هادئة . ولكنه فتح عينيه على اتساعها وألقى

كتابة على سرير في ركن الموقع . وطلب من زميله أن يترك له مكانه بهدوء .

وفي غضون ثوان ازدحمت شاشة الرادار بالحركة فقد ظهرت طائرات الميج الثلاثة . وتحركت الذراع الالكترونية من جديد ، لتسجل حركة الطائرات كلها ، وكان موكب الطائرات الاربع يتجه الى القاهرة .

وفوق القاهرة حاول طيار طائرة الركاب أن يتجه الى مطار المازة ، ولكن الميج اعترضت طريقه ، واقتادته الى مطار القاهرة الدولي ، وبمجرد ان حلقت الطائرة فوق المطار ، ابتعدت طائرات الميج بعد ان رقصت رقصاتها التقليدية .

وتردد نداء مطار القاهرة الدولي في مقصورة القيادة ، وتكررت نفس الأسئلة . طالبة الافصاح عن هوية الطائرة ، ولكن الطيار لاذ بالصمت . وقال الفهد الذي كان يتابع الموقف بعناية . ان الطيار يستطيع ان يتكلم لأول مرة . ليعلن انه يحمل معه راكبا مهما !!

واستمر مطار القاهرة في توجيه الأسئلة ، فبالاضافة الى جنسية الطائرة كان على الطيار ان يفصح عما اذا كان لديه اذن بدخول الاجواء المصرية ، وشخصية الراكب المهم الذي ينقله . ولكن الطيار لم تكن لديه أية اجابة . وكانت العبارة الوحيدة التي ظل يرددها دون

ملل هي ، معى راكب مهم !!

وإزاء هذا العناد اضطر المسؤولون عن حركة الطيران في مطار القاهرة الدولي إلا إعلان رفضهم منح الطائرة اذنا بالهبوط ، ونقل الطيار نص الرسالة الى الفهد ، وطلب منه الفهد ان يدور حول المطار ويصر على طلب اذن الهبوط ، ولكن مطار القاهرة ظل مصرا على الرفض !!

دارت الطائرة ثلاث دورات حول المطار والتفت الطيار الى الفهد وفي عينيه نظرة يأس وعندئذ قال الفهد أن باستطاعتهم الآن أن يخطروا مطار القاهرة بأن معهم راكب مهم وترددت كلمة راكب مهم في أجهزة الإرسال اللاسلكية ، وبعد دقائق من الصمت المفزع ، أذن مطار القاهرة للطائرة بالهبوط ، بشرط أن تهبط في ممر فرعى بعيد في أقصى أطراف المطار .

ابتسم الطيار وتنهّد وأصدر أمره الى مساعده لكي يستعد للهبوط ، ولدعشته الشديدة وضع الفهد يده على كتفه ، فلما التفت اليه ، هز رأسه بما يعنى ألا تهبط ، ثم هتف بهدوء وهو ينظر في ساعة يده : در دورة أخرى فوق المطار !!

كانت الساعة تقترب من الثالثة والنصف عندما تلقى جهاز المخابرات المصرى ، نبأ من مطار القاهرة الدولى ، يفيد بأن طائرة مجهولة تحلق فوق المطار وتدعى أنها تحمل ضابط مخابرات ، وكان الضباط الذين سئموا انتظار الطائرة ، يتصورون أنها تعرضت لحادث ! ، ولكن النبأ الذى وصل من مطار القاهرة ، أحدث زوبعة من التصرفات السريعة ، وبدأت أجهزة التليفون فى العمل ، وأبلغ المشير أحمد اسماعيل ، الذى كان يتناول طعام الغداء ، فى مكتبه ، بأن « باروخ » وصل بعد طول انتظار الى القاهرة .

وفي الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة ، قال الطيار أن الوقود يكاد أن ينفذ ، وأنه لن يستطيع البقاء الى الابد فى الجو ، وألقى الفهد نظره على المطار وعلت وجهه ابتسامة واسعة ، فقد شاهد رتلا من السيارات تتجه نحو الممر المحدد للهبوط وعندئذ طلب من الطيار أن يهبط . أحاطت عربات الحراسة بالطائرة وتقدمت عربة السلم الى أن التصقت بها ، ورأى « باروخ » من النافذة للجنود المسلحين وضباط

الشرطة السرية . بفلباسهم المدنية وهم يهرولون تحت الجناح الأيسر مباشرة . وخرج الطيار ومساعدته من مقصورة القيادة . ولكن الفهد كان جالسا في مقعده وكان الطائرة ما زالت تحلق فوق البحر !!

وفي تمام الرابعة سمح الفهد بفتح باب الطائرة وصعد اثنان من الضباط إلى الطائرة وقال الفهد أنهم سوف يهبطون من الطائرة بعد دقائق . ورفض نهائيا أن يفصح عن شخصيته أو عن شخصية أى من ركاب الطائرة . وعندما قال له أحد الضابطين أن الطيار سوف يواجه تحقيقا رسميا . لاختراقه المجال الجوي المصرى دون إذن . ابتسم الفهد وقال أن هذا الحديث سابق لأوانه .

وتبدد الصمت فجأة عندما سمع الجميع « صفارة » عالية . من النوع الذى تطلقه عربات الشرطة . ووصلت إلى مكان الطائرة عربية جيب تتبعها عربية مرسيدس سوداء وابتعد الجنود ليفسحوا الطريق . وعندما توقفت المرسيدس أسرع سائقها بالهبوط وفتح بابها الخلفى . وهبط رجل بدين على وجهه ابتسامة واسعة . ولم يكن هذا الرجل سوى المشير أحمد اسماعيل نفسه . يتبعه اثنان من كبار ضباط المخابرات . وفي أعلى

السلم . ظهر السنجاب بوجهه الأحمر . وكان يبدو مرهقا . كما أن حذاءه لم يكن مربوطا . ووراءه ظهر باروخ وكان زائف البصر متهاكما وفي النهاية ظهر الفهد بقامته الفارعة وكتفيه العريضتين . وكان يتدقق بالحيوية . وقد هبط السلم بنشاط وعندما لمست قدما السنجاب الأرض . تقدم منه المشير أحمد اسماعيل وصافحه بجرارة . أما « باروخ » فقد تلقفته أيدي اثنين من ضباط المخابرات . واقتادوه الى العربية الجيب . وعندما جاء الفهد لكى يصافح المدير . تبادل مع المشير أحمد اسماعيل

حديثاً طويلاً ، وكانت ضحكات الرجلين تصل الى مسامع الذين حضروا
اللحظة التاريخية من بعيد .

وبعد هذا الاستقبال الحافل ، هبط الطيار ومساعدته ، وقام الفهد
بتقديمهما إلى المشير ، الذى صافحهما ووضع يده على كف الطيار
الشاب ، وهمس الفهد في أذن المشير بأن سلطات المطار تطلب التحقيق
مع الطيار كاجراء روتينى ، وهز المشير رأسه موافقا ولكنه قال أن ذلك
يجب أن ينتهى خلال دقائق ، وكلف الفهد أن يتولى بنفسه الترحيب
بالضيوف نيابة عنه .

وفي الرابعة والربع تحركت سيارة المشير أحمد اسماعيل إلى خارج
مطار القاهرة الدولى ، وانطلقت العربّة الجيب إلى المبنى الذى خصص
لاقامة « باروخ » ، أما السنجاب فاتخذ طريقه إلى مبنى منظمة مقاومة
الجاسوسية . ليقدم تقريراً عن رحلته ، وعندما التقى بمدير هذه المنظمة
النشيط . تلقى لوما ضاحكا لأنه تأخر عن مواعده ، الذى حدده في
زيارته السابقة للقاهرة .

وفي ضاحية مصر الجديدة ، كانت سيدة جميلة التقاطيع مسترخية في
مقعد وتير في غرفة نومها ، وكان طفلها يرقد بوجهه الملائكى مستغرقا
في النوم بعد أن تناول طعام الغداء ، وسمعت السيدة صوت جرس الباب
فانتبهت ، وعندما فتحت الباب وجدت زوجها ، الذى تركها ذات ليلة
منذ ثلاثة وخمسين يوما ، فالقت نفسها بين ذراعيه وهى تجش
بالبكاء .

وفي الساعة والنصف وكان الفهد قد اغتسل وبذل ثيابه ، طلب من
زوجته أن ترتدى ثيابها وأن تصحب الطفل إلى الطابق الأرضى ،
ويتنظره إلى أن يخرج عربته من الجراج ، وعندما سأله وهى تبتسم عن

وجهته ، هتف ، سندهب لنتم نزهتنا ، إن ذلك يبدو كما لو كان قد حدث أمس .

وبينما كان الشاب الرياضى القوام الهادئ الملامح يجلس مسترخيا وأمامه السيدة الجميلة التقاطيع . كان طفلهما يلهو بالقرب من حافة البحيرة التى تسبح فيها قوارب على هيئة الأوز ، كان « باروخ مزراحى » ضابط المخابرات الاسرائيلى ، يجلس إلى منضدة من الصاج . فى مبنى تابع للمخابرات ، ليكتب بخط يده ، كل ما لديه من معلومات ، وكان أحد الجنود يقف أمام باب الغرفة وقد تمنطق بمسدس اتوماتيكي ، وعندما مر أحد زملائه أمام باب الغرفة همس فى أذنه ، إنه اسرائيلى ورفع الجندى حاجبيه بدھشة ثم مضى دون أن ينطق بكلمة .

وفى فندق فاخر من فنادق القاهرة ، كان اثنان من الطيارين يستعدان لقضاء سهرة جميلة بدعوة من جهاز قوى للمخابرات ، وكان الطيار الذى بدا وسيما فى ثياب السهرة الأنيقة ، قد أبلغ بأن طائرته سوف تطلى بلونها الأصلى ، كما سترسم فوقها علاماتها المميزة قبل ظهر الغد .

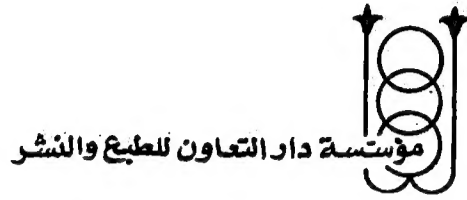
ولم يكن أى فرد من كل هذه المجموعة ، يعرف إن ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى وصل إلى القاهرة بعد مغامرة منهكة ، سوف يكون ذا أثر حاسم فى مستقبل الصراع العربى الاسرائيلى ، وأن المعلومات التى أولى بها ، سوف تحقق نفعا عظيما فى حرب ضارية وشرسة ، وأن هذه الحرب ستنتشب بعد أربعة عشر شهرا بالضبط ، فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كما أن أحدا لم يكن يتخيل أن مصر سوف تغلق لحظة نشوب الحرب ، نفس المضيق الذى أوفدت المخابرات الاسرائيلية واحدا من ضباطها ، لكى يتجسس عليه !!

صدر للمؤلف

- قصتى مع الجاسوس
- المفجأة
- (دور المخابرات في حرب الشرق الأوسط)
- عملاء من القاهرة
- كنت صديقا لـديان
- دار النهضة العربية
- مكتبة القاهرة
- دار الثقافة العربية
- الشركة المتحدة للنشر والتوزيع

تحت الطبع

- عملية قذرة
- (قصة إختطاف رجل ١١)
- عبد الناصر ... الحقيقة



مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

رقم الإيداع ٧٨ / ٤٩٥١